

عبقرية عمر

تأليف
عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية
طيدا - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم عبقريّة عمر

حمدا لله ، وصلاة وسلاما على البشير النذير ، والسراج المنير ، سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وكل من سار على نهجه ودربه ، ونستعين بخير معين ٠٠ ربنا آتينا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا ٠ وبعد : فالكتاب الذي بين أيدينا ٠٠ امتطى له العقاد صهوة فكره ، بغية الاحاطة بعظمة بطله ، فبطله ذو لون جديد ، وعبقريته ذات طابع فريد ٠٠ فنوه الى منهجه في الكتاب ٠٠ بأنه ليس سردا لسيرة عمر ، ولا عرضا لاربخ عصره ، وانما هو وصف له ، ودراسة لاطواره ، ودلالة على خصائص عظمه ، واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس ، وعلم الاخلاق ، وحقائق الحياة ، لذلك ركز على ما يفيد في هذه الدراسة ، سواء لديه أكان من حادث صغير أم عظيم ٠

وأظهر الاستاذ العقاد حرجه عندما حاول أن يجاري من يسمون بالكتاب المنصفين ، الذين يفرنون المدائح بالمعائب ، ويمزجون النقائص بالمنائب ، ولا يأتون بحسنة الا نقبوا عن سيئة تمحوها ، أو تقلل منها ، وكان سر حرج العقاد ، أنه لم يجد عيبا ولا نقيصة ولا ما يستحق اللوم في حياة عمر وأطواره. مما جعله يتوقع أن يتهم بالمغالاة والتحيز والاعجاب ، وله العذر كل العذر في ذلك ، اذ كيف يحاسب - هو أو غيره - عمر بن الخطاب ، وقد كان عمر يحاسب نفسه بأعنف مما كان يمكن أن يحاسبه غيره ؟؟؟ ٠٠

ان طبيعة عمر بن الخطاب وخلائقه ، كانت تؤهله للزعامة عن جدارة وامندار ، ولكن أي نوع من الزعامة كان يمكن لعمر أن يناله ؟ لم تكن هناك زعامة مهيأة له - لولا الاسلام - الا زعامة قبيله « بني عدي » ، أو زعامة قريش قبيله الكبرى ، ثم انتهى به الامر عند هذا الحد ، ولا يسمع له بعد ذلك خبر ، شأنه في ذلك شأن من سبوه ، ولكن الاسلام هو الذي أبرز طاقات عمر ، وأظهر مواهبه ، وفجر قدراته ، وكشف النقاب عن عظمته وعبقريته ، وحدد له الزعامة اللائمة به ، والدور الملائم له ، ليعز به الاسلام ، ويزداد هو بالاسلام عزا ، ويبقى ذكره عطرا ، وأثره عبقا ٠٠ فعمر الذي عرّفه تاريخ العالم ، وليد الدعوة المحمدية دون سواها ، ولولا الاسلام ، لما عرف العالم عمر ٠٠

ولكن ما دام هذا شأن عمر ، فلماذا لم يقدم على أبي بكر في الخلافة ؟
يجيب الكاتب على هذا السؤال .. بأن تقديم أبي بكر على عمر لم يكن
من باب المفاضلة بين رجلين ، وانما من باب التوفيق بين الرجل والموضع الذي
ينبغي أن يوضع فيه ، والمهمة التي ينبغي أن يندب لها ، والوقت الذي يحسن
فيه أوانه ..

والرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يعرف لكل من الرجلين فضله
ومميزاته ، وأن عمر أشد المسلمين في الله ، وأبو بكر فيه لين وهوادة ،
وخلافة أبي بكر ستجمع للاسلام المزيتين ، لان عمر لن ييخل بشدته ، ان
احتاجها أبو بكر سندا لهوادته .. ولذلك .. فقد كان عمر أول من بايع أبا
بكر ، وحث الناس على بيعته ، وقال لأبي بكر وهو يمد يده ليبايعه : أنت
أفضل مني ، فيقول له أبو بكر : بل أنت أقوى مني ، فيجيبه عمر : ان قوتي لك
مع فضلك !! فكان لأبي بكر وقته الملائم ، وكان لعمر حينه المناسب ، والحبيب
المصطفى - صلى الله عليه وسلم - أشار الى خلافة أبي بكر ، وانها ستكون
قصيرة ، وسيأتي بعده عمر .. وذلك حين قال :

« رأيت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب ، فجاء أبو بكر فنزع
ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا - والله يغفر له - ، ثم جاء عمر ، فاستحالت
غربا ، فلم أر عبقريا يفري فريه ، حتى روى الناس ، وضربوا بعطن » .
وفسر ضعف النزاع ، وكونه ذنوبا أو ذنوبين ، بقصر خلافة أبي بكر ،
وفسر فيض الري على يد عمر ، بأنه فيض العبقرية التي يفسح لها الاجل ،
وتتسع أمامها منادح العمل ، ويؤتى لها من السبق ما لا يؤتى لغير العبقرين .
ولئن كانت العبقرية لا تخرج في معناها عن : التفرد ، والسبق ،
والابتكار .. فكل هذه الصفات قد تجمعت في شخص عمر ، لان تاريخه زاخر
بتلك المعاني في الكثير مما أنجز .

لقد كان عبقريا ممتازا في تكوينه وأعماله ، وكان مهيبا رافع المحضر ،
حتى في حضرة النبي - عليه الصلاة والسلام - فقد روت السيدة عائشة
- رضي الله عنها - : أنها طبخت له - عليه السلام - حريرة ، ودعت سودة
أن تاكل منها فأبت ، فعزمت عليها لتأكلن أو لتلطخن وجهها ، فلم تأكل ،
فوضعت يدها في الحريرة ، ولطختها بها ، وضحك النبي - صلى الله عليه
وسلم - وهو يضع الحريرة بيده لسودة ، ويقول لها : لطخي أنت وجهها ،
ففعلت ... ومر عمر ، فناداه النبي : يا عبد الله ، وقد ظن أنه سيدخل ،
فقال لهما : قوما فاغسلا وجهيكما !!

قالت السيدة عائشة : فما زلت أهاب عمر ، لهيبة رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - اياه !!

ولنا أن نتصور رجلا له مهابة في نفس الرسول !! وقد كان النبي يرى تلك الهيبة ، رضى عنها ، واغتباطا بأثرها في نصرته الحق ، وهزيمة الباطل ، وتأمين الخير والصدق ، واخافة أهل البغي والبهتان ٠٠
ولقد كانت هيبة عمر نابعة من قوة نفسه ، قبل أن يكون مصدرها قوة جسده ٠٠

على أن عمر المهاب ، كان سريع البكاء اذا جاشت نفسه بالخضوع والخشوع بين يدي الله ، حتى ترك البكاء على صفحتي وجهه خطين أسودين ٠٠

ومن السمات التي اتسم بها عمر : أنه كانت له قدرة مذهلة على تمييز المدوفاة والمشمومات التي لا يسهل التمييز بينها ٠٠ ومن ذلك ما روي : أن غلامه سفاه ذات يوم لبنا ، فأكره ، فسأله : ويحك ، من أين هذا اللبن ؟ قال الغلام : ان الناقة انفلت عليها ولدها ، فشرب لبنها ، فحلبت لك ناقة من مال الله !! ٠

وكان ذا فراسة نادرة ، وقدرة على كشف الخفايا واستيضاح البواطن ، وكان يحب التفاؤل ، ويعند بالرؤيا ، والنظر أو الشعور على البعد ، وهذا ما يطلق عليه علماء النفس المعاصرون اسم : « التلبائي » ، وله في ذلك من النوادر ما يبهر ٠٠ ساق الكاتب عديدا من نماذجها ٠

والقوة صفة لازمت عمر ، ودلت عليها مناقبه ٠٠ والى جانب قوته ٠٠ فقد اشتهر بالعدل ، والرحمة ، والغيرة ، والفتنة ، والايمان الوثيق ، واستمد عمر هذه الصفات من روافد شتى : بعضها من وراثته أهله ، وبعضها من تكوين شخصه ، وبعضها من عبر أيامه ، وبعضها من تعليم دينه ٠٠ واستدل الكاتب على كل صفة من هذه الصفات بما يثبتها ويؤيدها ، مبينا أن كل صفة من هذه الصفات ، كانت في موضعها تغطي على غيرها ، فلا تعطى الى جانبها مدانه رسوخ واستمرار ٠

واذا كان المسنشقون قد اتهموا عمر ، بأنه كان محدود التفكير ، وأنه كان يأخذ الامور بفياس واحد ، فقد رد عليهم الكاتب ، بأن عمر كانت له فطنة الرجل العليم بنفائض الاخلاق ، وخبايا النفوس ، وأنه لو كان محدود التفكير ، ينظر الى الامور من جانب واحد ، لما كثر مشاوراته للكبار والصغار ، والرجال والنساء ، مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد ، وأن للامور وجوها لا تنحصر في الوجه الذي يراه ، وأنه كثيرا ما قال : « أخوف ما أخاف عنكم اعجاب المرء برأيه » ٠٠

وذكر الكاتب في كلامه عن صفات عمر : بأنه لم يكن ينثني للخطوب كغيره ، وانما كانت تنثني له الخطوب !! وعبر عن كل صفاته ، بأنها « تركيبة » وليست « تركيبا » ، تشبيها لها بأجزاء الدواء ، الذي اذا نقص جزء منه ، نقص نفعه كله ٠

ولقد رأى الكاتب أن مفتاح شخصية عمر : « طبيعة الجندي » في صفتها المثلى ، وبين أن أهم الخصائص لطبيعة الجندي في صفتها المثلى : الشجاعة ، والحزم ، والصراحة ، والخشونة ، والغيرة على الشرف ، والنجدة ، والنخوة ، والنظام ، والطاعة ، وتقدير الواجب ، والايان بالحق ، وحسب الانجاز في حدود التبعات أو المسئوليات ٠٠٠ وان هذه الخصائص كلها كانت واضحة في عمر ، حتى أنه بمجرد السؤال عن عظيم اتصف بهذه الصفات ، يأتي الرد : انه عمر .

وعمر في مخالفاته وطاعاته ، كانت له مخالفات الجند وطاعاتهم ، ولا عجب في هذا ، فقد كان فعلا شرطيا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وصرح هو نفسه بذلك ، حيث قال في احدى خطبه ما فحواه : « ٠٠٠ كنت مع رسول الله ، فكنت عبده ، وخادمه ، وجلوازه (الجلوازي : الشرطي) ، وكان كما قال الله تعالى : « بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، وكنت بين يديه كالسيوف المسلول ، الا أن يغمدني ، أو ينهاني عن أمر فأكف عنه ، والا أقدمت على الناس لمكان أمره ٠٠٠ » .

وحتى فكاهات عمر نفسها ، كانت فكاهات الجند ، فيها طابع الخشونة والحدة .

واستطاع الكاتب أن يبرز كل صفات الجندي المثالي في عمر ، بما قدم له من أدلة ، وما أتى من برهان .

وتناول الكاتب قصة اسلام عمر ، برواياتها المختلفة ، مقدما لذلك ، بأن أي تغيير يطرأ على الانسان في شكله ، أو زيه ، أو وطنه ، أو ما الى ذلك ، فهو أمر عادي ، أما تغيير معتقده ، فهذا أمر يحتاج الى أسباب وجيهة ، ومهيئات عديدة ، ذاكرا ان الاسلام بدأ يدب في قلب عمر ، منذ ان رأى أم عبد الله بنت حثمة ، وهي تستعد للهجرة الى الحبشة ، فاقترب منها ، وقال لها : انه الانطلاق يا أم عبد الله ! قالت : نعم ، والله لنخرجن في ارض الله ٠٠٠ آذيتونا ، وقهرتمونا ٠٠ حتى يجعل الله لنا فرجا ، فقال لها في رقة غير معهودة : صحبكم الله !!

ثم استعرض أسباب اسلام الكثيرين ، وجمع كل هذه الاسباب لعمر ، فمن أخذوا - مثلا - ببلاغة القرآن ، فأسلموا ، فان عمر كان طويلا الباع في البلاغة ، حسن النقد فتيها ، هوام منها الصدق ، والطبع ، وجمال التفصيل ، فكان - مثلا - يطرب لقول زهير :

فان الحق مقطعه ثلاث : يمين ، أو نفار ، أو جلاء .

ويقول كلما أنشدته معجبا : ما أحسن ما قسم ، وسماء شاعر الشعراء ، لانه لا يعاقل بين القوافي ، ولا يتبع حواشي الكلام ، وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرق الفجر ، فيقول لجليسه : الان اقرأ يا عبد الله !!

وقدم الكاتب العديد من الصور الناطقة له بذلك .

كما تحدث عن نهج عمر في الاسلام ، موضحا بالامثلة رأيه في المظهر المخالف للمخير ، والعمل للدنيا ، والتواكل ، والاستكانة والتماوت ، ونظافة الثوب وطيب الرائحة ، والرمي ، والعموم ، والفروسية ، والعدوى بالطامون ، والضرر والنفع بالنسبة للحجر الاسود وشجرة الرضوان .
ثم تحدث عن تقشفه ، وطريقة معاملته للأمينين ، وحبه وكرهه ، وأنا كان في حبه وكرهه لا يظلم ولا يحابي .
وعلى العموم . . . فقد دخل عمر الاسلام من كل أبوابه كالعاصفة ، وكان اسلامه صفحة جديدة قد تفتحت في العالم الانساني .
واذا كانت العبقريّة لا تخرج عن معنى التفرد ، والسبق ، والابتكار . . . فقد تجسدت كل هذه المعاني في عمر ، وهو يؤسس الدولة الاسلامية ، والتي ارتأى الكاتب أنه بدأ في تأسيسها من يوم أن باع أبا بكر على الخلافة ، بل من يوم أن شرح الله صدره للاسلام . .

فانفتح بذلك تاريخا ، واستهل حضارة ، وأنشأ حكومة ، ورتب لها دواوين ، ونظم أصول القضاء والادارة ، واتخذ لها بيت المال ، ووصل بين أجزائها بالبريد ، وحمى ثغورها بالجيوش ، وكان أول واضح لدستور الشهوري في الدولة الاسلامية ، ووضع دستور الحرب لقواده ، ولم يفته أن يضع دستورا دستورا قوامه : « ان الحكم محنة للحاكم ، ومحنة للمحتكرين » . وان لا يصلح الا بشدة لا جبرية فيها ، ولين لا وهن فيه » . وان الخليفة مهنول أمام الله والناس عن جميع ولاته » . وان صلاح الامر في ثلاث : اداء الأمانة ، والاخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله » . وصلاح المال في ثلاث : أن يؤخذ من حق ، ويعطى في حق ، ويمنع من باطل » . . . ووضع دستور الولاية ، وكان قوامه : تمييز بالواجب والكفاءة ، وليس تمييزا بالواجب والاستعلاء .
وبين الكاتب ما يمكن أن يقال في عزل الاكفاء من الولاية ، واسلوب عمر في مراقبتهم . .

وكان لعمر مذهب في الاخلاق الاجتماعية ، يشبه مذهبه في القضاء ، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه ما يستره عنه ، وينهى أن تظن بكلمة شرا وانت تجد لها في الخير محملا . . .

ووضع نظاما لتحصيل الجزية ، وأسس ديوان الوصف الخيري ، وعددا آخر من الدواوين ، وكان له دور ملموس في التعمير ، واصطلاح بنفريج الازمات كما حدث في عام الرمادة . . . مما يمكن معه أن يقال : ان عمر أكبر مؤسس لدولة الاسلام ، قبل أن يكون أكبر فاتح في صدر الاسلام ، وأنه أسس تلك الدولة على الايمان ، لا على الصولجان ، وكان من يوم اسلامه أخذنا في تشييد هذا البناء ، حتى تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء .
وكانت حكومة عمر قائمة على أساس من العدل والحرية ، ولو أردنا أن نقارن بين حكومات العصر وحكومته ، لم نجد أساسا للمقارنة ، وإذا قسنا

أعماله بنظام الحكم في زماننا ، وجدنا الكثير من المستغربات التي تحول بيننا وبين تقديرها الصحيح لأول وهلة ، فممر قد أدى الواجب الحكومي على الوجه الاقوم ، ولا سبيل لمؤاخذته بقياس حديث أو قديم .

وركن الكاتب على منهج عمر في التقشف ، وبين أنه لم يكن عن عجز ، وإنما كان وفاء لحق الصداقة ، والمراد بالصداقة هنا : صداقته للنبي ، وصداقته للصدوق ، فكان لا يستسيغ لنفسه متاعا لم يتحقق لكليهما ، وكان يؤثر الشدة ، ليقطع الشك ، ويدرك الشبهة ، ويقتدي بصاحبيه ، ويترك القدوة المثلى لمن يليه .

وفي الوقت الذي نرى فيه عمر بطلا يروع ، ويعرف روعة البطولة ، ويستحق الإعجاب غاية استحقاقه ، نراه من فرط ولائه لمن يفوقه أنه خلق للاعجاب بغيره ، ولم يخلق ليكون موضع إعجاب ، وكم كانت غبطته حينما ناداه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله : « يا أخي » !!

وكان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء ، لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر ، وليس أدل على ذلك من دخوله الشام ماشيا على الرغم من أنه المنتصر ، وتذكيره لنفسه كلما حدثته بأنه قد صار في منزلة العظمة والسلطان ، بأنه كان راعيا لإبل الخطاب .

وكان إعجابه بالنبي - صلى الله عليه وسلم - لا يفوقه إعجاب ، مع أنه لم يكن أحد مستقلا برأيه في مشورة النبي كاستقلال عمر ، فهو صاحب المشورة في حجب نساء النبي ، وصاحب التأييد في رأيه من رب العالمين في العديد من الأمور ، وهو الذي راجع النبي في التبشير بالجنة لمن يشهد أن لا اله الا الله ، مخافة أن يركن المسلمون الى ذلك . ولكن مع ذلك ، كان يضع نفسه بالنسبة للرسول - عليه الصلاة والسلام - موضع المأموم من الامام ، والمريد من العالم ، والشرطي من القائد .

وتناول الاستاذ العقاد بالايضاح والتحليل موقف عمر من آل البيت ، ورد على من اتهموه بأنه كان يناجزهم ، وأنه حال بين علي والخلافة . ولقد كان رأي الصحابة في عمر واضحا غاية الوضوح ، « يحمل كل اجلال واكبار . . . فعثمان بن عفان هو الذي قال لزياد : « . . . لن تلقى مثل عمر . . . لن تلقى مثل عمر . . . لن تلقى مثل عمر » .

وبكى علي يوم مات عمر ، وسئل في ذلك ، فقال : « أبكي على موت عمر ، ان موت عمر ثلثة في الاسلام لا ترتق الى يوم القيامة » . وقال فيه ابن مسعود : « كان اسلامه فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت امامته رحمة » .

وقال معاوية موازنا بين الخلفاء : « أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردھا ، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهرا لبطن » . وقال عمرو بن العاص : « لله در ابن حنتمة (اسم أم عمر) ، أي امرئ كان ؟ » .

أما عمر ، فقد كان يرعى قدر الصحابة ، ويعرف لكل منهم فضله وقدره ، وما أثير حول عزله لخالد بن الوليد من الاتهامات .. تناوله الكاتب بكشف حقائق ، تجعل عمر متهما لو لم يتخذ هذا القرار .. فقد كان هناك مأخذ لعمر على خالد في عهد الرسول ، وفي عهد الصديق ، ثم في عهد عمر ذاته ، ويتوج هذه المآخذ خوف عمر من افتتان الناس بخالد ، أو افتتان خالد بالناس ، وهذا وحده سبب وجيه لقرار العزل ... ثم ان عزل خالد كان سنة عمرية متبعة مع جميع الولاة .

وأما عن ثقافة عمر ، فقد كان موفور الحظ من ثقافة عصره ، وكان اديبا مؤرخا فقيها ، وخطيبا مطبوعا على الكلام ، وشغوبا بالشعر الجيد وان لم يقله ، وهو الذي حث على تعليم العربية ، وأوصى بوضع قواعد النحو خاصة بعد أن كثرت الفتوح ، وأنكر بعض أنواع الشعر : كالهجاء والنشيب ، وكان ذواقة للشعر .. كما أنه كان عالما بتاريخ العرب ، وأيامهم ، ومفاخر أنسابهم . وكان عالما فقيها ، قال فيه ابن مسعود : « كان عمر أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا في دين الله » .

وقال : « لو ان علم عمر بن الخطاب في كفة ميزان ، ووضع علم الارض في كفة ، لرجح علم عمر بعلمهم » ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة اعشار العلم .

وقال عنه ابن سيرين : « اذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر ، فشك في دينه » ..

ولقد نصح عمر العلماء فأحسن النصح .. وكان يشجع الاختراعات التي تنفع الناس ، وله علم بجغرافية الشرق ، وكان - رضي الله عنه - وفيما للذكرى ، فأرخ للهجرة ، واحترم توقف بلال عن الأذان بعد وفاة النبي .. ونهى الكاتب عن عمر تهمة أمره بحرق مكتبة الاسكندرية ، بأدلة مقنعة ، وحجة فاطمة .

وعمر صاحب السلطان الكبير ، والسيطرة الواسعة ، كان يعيش عيشة الكفاف ، الى حد أزهده فيه العديداً من النساء ، فرفض الزواج منه ، وهذا الرفض خير شهادة على عظمتة .. وقد وصفته إحدى الرفضات ، وهي : أم ابان بنت عتبة بن ربيعة ، بقولها : « انه رجل أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه ، كأنه ينظر الى ربه بعينه » !!

وهل مثل هذه الشهادة تحسب لعمر ، أو على عمر ؟؟
كذلك كان من بين الرفضات : أم كلثوم بنت أبي بكر ، وبينت سبب رفضها بقولها للسيدة عائشة : « انه خشن العيش ، شديد على النساء » .

وقد سلمنا أن خشونة العيش تحسب له ، فهل شدته على النساء كذلك ؟

أثبت الاستاذ العقاد أن شدته على المرأة لم تكن الا بقدر مجاوزتها لحدودها ، وهذا امر طبيعي في الرجال .. معظم الرجال .. فما للمرأة من حق تعطاء ، وما ليس لها بحق لا تعطاء ، بل وتزداد عنه ..

ومن ذلك - مثلا - أن امراته تشفعت له في وال مقصر ، وسألته : فيم وجدت عليه ؟ فالتفت اليها غاضبا ، وقال لها : وفيم أنت وهذا ؟؟
والمتصفون يحسبون مثل هذا الموقف لعمر لا على عمر ..

ومع ما عرف عنه من الشدة وخشونة العيش ، فنساؤه اللاتي عاشرنه ، قد كلفن بحبه ، ورضين عيشه ، لرضاهن بمودته وعطفه ، وكانت احداهن لا تطيق فراقه ، فاذا خرج مشيت معه الى باب الدار ، فقبلته ، ولم تزول في انتظاره ..

وعاتكة بنت زيد - احدى نساؤه - تولعت في رثائه حين قتل ، وقالت فيه شعرا يذوب أسى وحسرة ، ولم يكن بكأؤها عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد .

واشتهر عمر بالغيرة على المرأة ، وفي ذلك يقول الحبيب محمد - صلى الله عليه وسلم - : « ان الله غيور يحب الغيور ، وان عمر غيور » .. وكانت غيرته على المرأة شطر من غيرته على كل حرم وحوزة .
وكان عمر ابنا بارا .. وأبا رحيما .. وعطوفا على الاطفال .. وكان له أجمل الصلات برحمه ، وذويه .

ولقد أشار الاستاذ العقاد اشارة لطيفة ، عندما قارن بين تحمل الرسول لتناول نساؤه ، ورفض عمر لهذا التناول ، فقال :

محمد « انسان » عظيم ، وعمر « رجل » عظيم ، والرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندي في معرض القوة والنضال ، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها في معرض الهوى والفتنة ..

أما الانسان العظيم : فهو يشمل ضعف الانسانية كلها ، ويعطف عليه ، ومنه ضعف المرأة في غرورها ، واعتزازها بدلال الضعف على القوة ... فهو يرى في تكبر المرأة - اذا كانت كبيرة عنده - نوعا من الاعتراف بكبره ، وهو لا يقف معها في ميدان كما يقف كل ذكر وأنثى ، لان ميدانه يشمل الميدانين مجتمعين : اذ هو ميدان الانسان كله ، والانسانية جمعاء .

ومع كل ذلك ، فقد كان للمرأة رأي في عمر ، لا يخرج عن الاحترام والتقدير .. فقد وصفته سيده نساء العصر ، أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بأنه : نسيج وحده .

وفالت فيه الشفاء بنت عبد الله : « كان اذا تكلم أسمع ، واذا مشى أسرع ، واذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا » .
وقالت أم أيمن ، يوم أصيب : « اليوم وهى الاسلام » .
واذا كان هذا رأي النساء فيه ، فما هو رأي أعلام الصحابة ؟؟؟
قال عنه عارفوه : « باطنه خير من ظاهره » .
وقال فيه الصديق ما فحواه : « ان مبغضيه هم المبغضون للخير » .
وقال فيه ابن مسعود : « لو أعلم عمر كان يحب كلبا لاحبته » .
وعمر بن العاص ، ومعاوية ، كانا يثنيان عليه ، مع أنهما ذاقا ضربات عدله وهيبته .
وشاء القدر أن يقتل عمر بيد الغدر والتآمر والخيانة ، وقد تكشفت له تلك النهاية قبيل ذلك ، حينما رأى فى منامه : كان ديكا نقره نقرتين ، فقال : بسوق الله الى الشهادة ، ويقتلني أعجمي .
وفعل مات عمر بطعنات من حنجر فيروز « أبي لؤلؤة » الذي كان من سببايا الفرس بالمدينة . وذهب - رحمه الله - شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الاسلامية ، وصوت الحق ينادي :
« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي الى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي » . ودفن الى جوار الحبيبين : محمد . والصديق .
وبعد هذا العرض الخاطف ، الذي لا أدعي أنني قدمت فيه كل ما يجب ان يقدم . أشعر في النهاية - مثلما شعرت في البداية - بالهيبة والوقار ، والتجلة والاكبار ، وكل ما يليق ببطل هذه الرحلة : عمر الرجل . عمر الممتاز . عمر العظيم . عمر العبقرى .
ولا يفوتني أن أنوه بعظمة الكاتب في احاطته بالموضوع ، وعرضه الشيق ، وأسلوبه الجزل ، ومعانيه الحسان ، ودقة تحليله ، وروعة استنباطه ، فما أثبت لعمر صفة الا وأقام عليها الدليل ، وما درأ عنه تهمة الا واستند الى برهان .
رحم الله عمر ورحم الله العقاد .

مهدي عبد الحميد مصطفى
مبعوث الأزهر الشريف في لبنان

مقدمة

تم تأليف هذا الكتاب في أحوال عجيبة هي أحوال بأس وخطر .
فلا غرابة بينها وبين موضوع الكتاب الذي أدركته عليه ، لأننا لا نتكلم
عن عمر بن الخطاب الا وجدنا اننا على مقربة من البأس ومن الخطر
في آن^(١) .

فما شرعت في تحضيره ، وبدأت في الصفحات الأولى منه ، حتى رأيتني
على سفر بغير أهبة^(٢) الى السودان . فوصلت اليه وليس معي من مراجع
الكتاب الا القليل ، وكانت الصفحات الأولى التي كتبتها في القاهرة مما
تركته مع المراجع الكثيرة فيها ، فأعدت كتابتها في الخرطوم ومضيت
فيه هنالك حتى انتهيت من أكبر شطريه . واستغنيت بدراجع الخرطوم
عن المراجع التي أعجلني السفر عن قتلها ، لأن أدباء السودان وفضلاءه ،
يدخرون جملة صالحة من هذه المراجع ، ويوجدون بها أسخياء مبادرين
الى الجود ، فلا أذكر اني طلبت كتابا في المساء الا كان عندي في بكرة
الصباح ..

واني لأتوفر^(٣) على كتابته ، وأحسبني منتها منه في السودان ، اذ رأيتني
مرة أخرى على سفر بغير أهبة الى القاهرة ، فعدت اليها بالطائرة ألتمس
العلاج السريع ، لأن يدي أوشكت أن تعجزا عن تناول القلم مما عراها
من تأليل^(٤) « الحريف »

فعدت وما يشغلني عن اتمامه شاغل في السفر والمقام ، ولم أحسب
هذا البأس في الحالتين من موانعه وعراقيله ، لأنني ألفت بعض كتبى
الكبار في أحوال تشبه هذه الأحوال . فألفت كتابى عن « ابن الرضى »
بين السجن ونذرته^(٥) ومقدماته ، وألفت كتابى عن « سعد زغلول » وأنا
غير مستريح من كفاحه ، وكلاهما من آثار^(٦) الكتب عندي ، وأكبرها في

(١) آن أيه : حان حينه . (٢) استعداد . (٣) وفر : كمل . (٤) بطور

صغيرة مستديرة صلبة . (٥) الانتار . (٦) أفضل .

الموضوع ، وفي عدد الصفحات ..

انما حسبت هذا البأس من مطابقاته وموافقاته ، ومن وضع الشيء في موضعه على نحو من الأنحاء ، ولم أعدده من حرج التأليف كما عدته من مهيئات جوه ، ولا سيما حين ألفتني أدرس الحركة المهدية ، وأقلب بين مشاهدتها وميادينها ، وأستخرج العبرة من القتال بين الراجلين^(١) والفيلة في مواقع فارس ، ومن القتال بين الراجلين والسفن المسلحة في مواقع الخرطوم وأم درمان . فهذه عقيدة وتلك عقيدة ، ولكن العقيدة التي ظفرت كان معها حليف^(٢) من الغد المأمول ، ولم تكن العقيدة التي فشلت على وفاق مع الغد ولا مع الأمل

ولكن الحرج كل الحرج في التأليف انما كان في محاسبة عمر بن الخطاب ، أو ليس الحرج في الحساب أيضا من العبريات المأثورات ؟ !
فالناس قد تعودوا ممن يسمئونهم بالكتاب المنصفين ، أن يجذبوا^(٣) وينقدوا وأن يقرنوا بين الثناء والملام ، وأن يسترسلوا في الحسنات بقدره ، لينقلبوا من كل حسنة الى عيب يكافئها^(٤) ، ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها ، فان لم يفعلوا ذلك فهم اذن مظنة المغالاة والاعجاب المتحيز ، وهم اذن أقل من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون ، ولا يعجبون الا وهم متحفزون للملام

عرض لى هذا الخاطر فذكرت قصة العاهل^(٥) الذي تحاكم الى قاضيه مع بعض السوق^(٦) في عقار يختلفان على ملكه فحكم القاضى للسوق بغير العدل لينغم سمعة العدل في محاسبة الملوك ، وعزله العاهل لأنه ظلم وهو يتغنى الرياء بظلمه . فكان أعدل عادل حين بدا كأنه يحرص على مال مغضوب ويجور على تابع جسور^(٧) .. لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم ، وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالانصاف

قلت لنفسي : ان كنت قد أفدت شيئا من مصاحبة عمر بن الخطاب في سيرته وأخباره ، فلا يخرجك أن تزكى عملا له كلما رأيته أهلا للتركية ،

(١) المشاة . (٢) أي معاهد . (٣) بمعنى يشجعوا . (٤) استرسل : أي قال . (٥) يدافعها . (٦) الملك الاعظم كالخليفة . (٧) الرعية . (٨) الجسور : المقدام .

وان زعم زاعم أنها المغالاة ، وانه فرط الاعجاب ..
وهذه هى الأسوة العمرية فى الحساب ..
فالحق اننى ما عرضت لمسألة من مسائله التى لغط بها الناقدون الا
وجدته على حجة ناهضة فيها .. ولو أخطأه الصواب ..
وان أعسر شئ أن تحاسب رجلا كان أشد أعدائه لا يبلغون من عسر
محاسبته ، بعض ما كان يبلغه هو من محاسبة نفسه ، وأحب الناس اليه
ذلك رجل قل أن يجور^(٢) عن القصد^(٣) وهو عالم بجوره ، وقل أن يتج
لأحد أن يكسب دعوى الانصاف على حسابه ، الا أن يكسبها أيضا على
حساب الحق والنقد الأمين ..
فاذا عرفت منحا^(٤) من الخلق والرأى ، وسلمت له مزاجه ووجهة تفكيره ،
فكن على يقين انه لن يتجافى عن النهج السوى ، ولن يتعلق بأمر يعدوه^(٥)
الصالح ويشوبه السوء
وذاك أخرج الحرج الذى عانيته فى نقد هذا الرجل العظيم
وتلك حيلة معه ان لم يستفدها الكاتب ، وهو مشغول بعمّر ونهج
عمر ، فـ مله عبث ذاهب فى الهواء

وعلم الله لو وجدت شططا فى أعماله الكبار ، لكان أحب شئ الى أن
أحصيه ، وأطنب^(٦) فيه وأنا ضامن بذلك أن أرضى الاثرة وأرضى الحقيقة ،
ولكنى أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه فى مقدورى : ان هذا الرجل
العظيم أصعب من عرفت من عظماء الرجال نقدا ومؤاخدة ، ومن فريد
مزاياه أن فرط التمحيص وفرط الاعجاب فى الحكم له أو عليه يلتقيان
وكتابى هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ
التي تقصد بها الحوادث والأنباء .. ولكنه وصف له ، ودراسة لأطواره ،
ودلالة على خصائص عظمتة واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس
وعلم الأخلاق وحقائق الحياة ، فلا قيمة للحدث التاريخى جل أو دق الا
من حيث أفاد فى هذه الدراسة ، ولا يمنعنى صغر الحادث أن أقدمه

(١) مجاوزة الحد • (٢) الحجة : البرهان • (٣) يميل • (٤) العدل

(٥) طريقه أو قصده • (٦) ما ركب عليه من الطبائع • (٧) أى ينجازه

(٨) أطنب الرجل : أتى بالبلاءه

بالاهتمام والتنويه^(١) على أضخم الحوادث ، إن كان أوفى تعريفاً بعمر ، وأصدق دلالة عليه

وعمر بعد رجل المناسبة الحاضرة في العصر الذي نحن فيه لأنه العصر الذي شاعت فيه عبادة القوة الطاغية، وزعم الهاتقون بدينها أن البأس وألحق تقيضان فإذا فهمنا عظيماً واحداً كعمر بن الخطاب فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه ، لأننا سنفهم رجلاً كان غاية في البأس، وغاية في العدل، وغاية في الرحمة ...

وفي هذا الفهم ترياق^(٢) من داء العصر يشفى به من ليس بميثوس الشفاء وأنه لجهاد جديد^(٣) لعمر بن الخطاب ، يطيب لنا أن نوجزه في كتاب

عباس محمود العقاد

(١) نوه بالشيء : رفع ذكره . (٢) الترياق : دواء مركب اختبره « ماغنيس » وتممه « أندروماخس » القديم بزيادة لحوم الافاعي فيه ، وقد سمي بهذا لأنه نافع من لدغ الهوام السببية . (٣) أي شاق .

عبرى

« .. لم أر عبقرىا يغرى فريه ^(١) ... »

كلمة قالها النبى عليه السلام في عمر رضى الله عنه ، وهي كلمة لا يقولها الا عظيم عظماء ، خلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال ..

فمن علامات العظمه التى تحيى موان الأمم، أن تختص بقدرتين لا تمهدان في غيرها ، أولاها أن تبتعث كوامن^(٢) الحياة، ودوافع العمل في الأمة بأسرها وفي رجالها الصالحين لخدمتها ، والأخرى أن تنفذ ببصيرتها الى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة^(٣) والوحى الصادق فيم تكون عظمة العظم ، ولأى المواقف يصلح ، وبأى الأعمال يضطلع^(٤)، ومتى يحين أوانه، وتجب ندبته ، ومتى ينبغى التريث في أمره الى حين ؟ ..

كلتا القدرتين كان، لهما الحظ الوافر في سيرة عمر بن الخطاب

فأين — لولا الدعوة المحمدية التى بعثت كوامن العظمة في أمة العرب — كنا نسمع بابن الخطاب ؟ وأى موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمى الذى يزخر بكبار الأسماء ؟

انه الآن اسم يقتزن بدولة الاسلام ودولة الفرس، ودولة الروم، وكل دولة لها نصيب في التاريخ . فأين كنا نسمع باسم عمر لولا البعثة المحمدية ؟

لقد كان ولا ريب خليقا أن يستوى على مكان الزعامة بين بنى عدى آلہ الأقربين ، أو بين قريش قبيلته الكبرى ، ثم ينتهى شأنه هناك، كما انتهى شأن زعماء آخرين لم نسمع لهم بخبر .. لأنهم عظموا أو لم يعظموا ، يعطون البيئة كفاء^(٥) ما تطلب من جهد ودراية ، وهى تطلب منهم ما يذكرون

(١) فرى الجلد : قطعه ليصلحه ، وفرى الفرى أتى بالعجب . والمعنى أن عمر عبقرى منفرد في عمله ، فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه .
(٢) كوامن الانبياء . مكنوناتها وبواطنها . (٣) غير الخاطئة . (٤) يعوم بكفاءة . (٥) جذبرا . (٦) أى فدر .

به في بيئتهم ، ولكنها لا تطلب منهم ما يذكرون به في أقطار العالم البعيد وقد كان عمر قوى النفس بالغاً في القوة النفسية .. ولكنه على قوته البالغة لم يكن من أصحاب الطمع والافتحاح ، ولم يكن ممن يندفعون الى الغلبة والتوسع في الجاه والسلطان ، بغير دافع يحفز به وهو كاره لأنه كان مفطوراً^(١) على العدل، واعطاء الحقوق والتزام الحرمات ما التزمها الناس من حوله . وكان من الجائز أن يهيج خطر على قبيلته أو على الحجاز ومحارمه المقدسة في الجاهلية ، فينبئ^(٢) لدفعه ، ويبلى في ذلك بلاء يتسامع به العرب في جيله وبعد جيله ، ولكنه لا بعدو^(٣) ذلك النطاق ولا هو يبالى أن يمعن في بلائه حتى يعدوه

بل كان من الجائز غير هذا ، وعلى تقيضه ..

كان من الجائز أن تفسد تلك القوة بمعاقرة الخمر والانصراف اليها فانه كان في الجاهلية كما قال : « صاحب خمر يشربها ويحبها » وهي موبقة^(٤) لا تؤمن حتى على الأقوياء اذا أدمنوها ولم يجدوا من زواجرو^(٥) الدين أو الحوادث ما يصرفهم عنها ، ويكفهم عن الافراط في معاطاتها فعمر بن الخطاب الذي عرفه تاريخ العالم وليد الدعوة المحمدية دون سواها ، بها عرف، وبغيرها لم يكن ليعرف في غير الحجاز أو الجزيرة العربية ..

أما القدرة الأخرى التي يمتاز بها العظيم الذي خلق لتوجيه العظماء فقد أبان عنها النبي عليه السلام في كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى ، أى من اللحظة التي سأل الله فيها أن يعز به الاسلام ، الى اللحظة التي ندب فيها أبا بكر للصلاة بالناس وهو — عليه السلام — في مرض الوفاة

سبر غوره^(٦) واستكنه^(٧) عظمته ، وعرفه في أصلح مواقفه فعرف الموقف الذي يتقدم فيه على غيره والموقف الذي هو أولى بتقديم غيره عليه وليست هي مفاضلة بين رجلين ، ولا موازنة بين قدرتين ..

ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذي ينبغي أن يوضع

(١) الفطرة : الخلقة التي خلق عليها • (٢) انبرى له : اعترض له •
(٣) يتخطى ويتجاوز • (٤) مهلكة • (٥) موانع ونواهي • (٦) امتحن عمق جرحه ، والمراد : مكشواته • (٧) بلغ غايته •

فيه ، والمهمة التي ينبغي أن يندب لها ، والوقت الذي يحين فيه أوأانه وربما رأينا في زماننا هذا رئيسا يوصى لنصير من أنصاره بالوزارة ويوصى لغيره بقيادة الجيش ، فلا نقول: انه يفاضل بين النصيرين، أو انه يرجح أحدهما على الآخر في ميزان الكفاءة ، وإنما يختار كلا منهما لموضعه في الوقت الذي يحتاج اليه ، ولا غضاضة^(١) على أحد منهما في هذا الاختيار ..

فالنبي عليه السلام كان يعلم من هو أبو بكر ومن هو عمر . وقد عادل بينهما أجل^(٢) معادلة حين قال : « ان الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال : « من تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فانك غفور رحيم^(٣) » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم^(٤) » ومثلك يا عمر مثل نوح قال : « رب لا تدنر على الأرض من الكافرين ديارا^(٥) » ومثلك كمئل موسى قال : « ربنا اطمس^(٦) على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم^(٧) »

كان النبي عليه السلام يعلم - كما قال - ان عمر أشد المسلمين في الله ، ويعلم أن في أبي بكر لنا وهودة ، فجمع للاسلام الزيتين حين اختار أبا بكر للصلاة، وضمن هذا الاختيار معنى من معاني الاستخلاف .. أو كما جاء في بعض الروايات، أنه نص على استخلاف أبي بكر بالقول الصريح ..

فتعزيز الاسلام بعد نبيه، كان في حاجة الى كثير من الهودة والمجاورة ، وكان كذلك في حاجة الى كثير من الشدة والصرامة ، ولن تذهب شدة عمر اذا احتاج اليها أبو بكر في محنة يشتد فيها اللين الوديع . انما الخوف أن يذهب لين أبي بكر اذا اشتد عمر ، ولا خوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد . فان الموقف اذا استنفد حجاج الرحمة حتى يلجأ فيه أبو بكر الى البأس ويصر عليه ، فأقرب شيء أن يعدل عمر عن لينة وأن يثوب الى

(١) الذلة والمنفصة . (٢) أي أعظم . (٣) الآية : ٣٦ من سورة ابراهيم .

(٤) الآية : ١٨ من سورة المائدة . (٥) أحدا . (٦) الآية : ٢٦ من سورة نوح .

(٧) أمحها أو عيرها . (٨) الآية : ٨٨ من سورة يونس .

المعهود من صرامته^(١) ولدده

وكان النبی علیه السلام يعلم ان احتمال التبعة أو « المسئولية » خلیق أن یدل أطوار النفوس فی بعض المواقف والأزمات ، فیجئح اللین الی الشدة ، ویجئح الشدید الی اللین .. لأننا اذا قلنا ان رئیسنا أصبح یشعر بالمسئولية، فمعنی ذلك أنه أصبح یراجع رأیه فلا یتسلم لأول عارض یملیه علیه طبعه ، ولا یقنع باللین أول وهلة اذا كان من دأبه اللین ، ولا بالشدة أول وهلة اذا كان من دأبه الشدة ، ومن هنا ینشأ الاختلاف بین موقف الرجل وهو مسئول وموقفه وهو غیر مسئول

وهذا الذی ظهر أعجب ظهور فی موقفی الصاحبین من حرب الردة . فإن عمر الشدید قد آثر الهوادة وأبا بكر الرفیق قد آثر القتال وأصر علیه ، وكان عمر یقول : « ان رسول الله كان یقاتل العرب بالوحي والملائكة یمده الله بهم » وقد انقطع ذلك إلیوم ، ثم یقول للخليفة : « الزم بیتك ومسجدك فانه لا طاقة لك بقتال العرب » وكان أبو بكر یقول متسائلا : « أئن كثر أعدائكم وقل عددكم ركب الشیطان منكم هذا المركب ؟ .. والله لیظهرن الله هذا الدین علی الادیان كلها ولو كره المشركون » قوله الحق ووعده الصدق « بل نقذف بالحق علی الباطل فیدمغه فاذا هو زاهق^(٢) » .. « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين^(٣) » . « والله أیها الناس، لو منعونی عقالا^(٤) لجاهدتهم علیه واستغنت علیهم بالله وهو خیر معین ! »

هنالك بلغت التبصرة بوجوه الرأى المختلفات غاية مداها ، وجاء عمر بقصارى^(٥) ما عنده من حجج الرأى الآخر، حتى وضحت المناهج واستقر العزم والتقى الصاحبان علیه فكانت شدتهما فی الحق شدتین .. وهب الأمر مع هذا قد اختلف فی موقف الصاحبین ، فمال أبو بكر الی السلم والمساحة ، فأین كانت شدة عمر ذاهبة عنه فی هذه الحال ؟ .. أغلب الظن أنه هو الذی كان یتولی یومئذ أن یسقط وجه الشدة فی معاملة

(١) یرجع • (٢) أي شدته • (٣) الآية ١٨ من سورة الانبیاء
(٤) الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة • (٥) زكاة عام من الابل والغنم • (٦) بغاية .

المرتدين .. لأنه يعلم انه المسئول عن بسط هذا الوجه دون غيره، فلا تفوت الاسلام مزية من مزايا الصالحين

إن محمدا عليه السلام قد عرف من هم رجاله ، وما هو الموقف الذي هم مقبلون عليه بعد وفاته ، فعرف الموضع الذي يضع فيه كلا منهم والعمل الذي يتولاه خير ولاية في ذلك الموضع ، ولم يفته أن يحسب حساب التبعة وما في احتمالها من ضمان للأخلاق الصالحة والعقول الراجحة ، وأبو بكر وعمر من خيرة أصحاب هذه الأخلاق وهذه العقول ولا يحسبن حاسب اننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد وقوعها ، ولم يكن مقصودا في النيات قبل ذلك .. فان الذي يحسب هذا الحسبان يخطيء تلك الخطأة الشائعة التي لا تثبت على أقل نصيب من الروية والمراجعة : يخطيء في وهمه خطأة الذين يتخيلون أن هذه السياسات العالية من بدع^(١) الزمن الأخير وليست هي من البدع في زمن كان .. لأن العظمة لم تكن قط وقتنا على العصر الحديث ، ولا سيما العظمة التي ترجع الى الفطرة القويمة، والبدية النافذة، والنظر السديد

فكل هذا التقدير الذي أجملنا شرحه كان تقدير قصد وتدبير ، وكان مفهومًا على البداهة بين ولادة الأمر في تلك الآونة ، ملحوظًا بينهم في مناجاة النيات قبل أن تلحظه نحن في عصرنا هذا من تفسير حوادث التاريخ ..

والى ذلك أشار عمر في قول صريح، حين قال لمن هابوه^(٢) وتحذثوا بخوف الناس منه : « بلغنى أن الناس هابوا شدتى وخافوا غلظتى وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، ثم اشتد وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور اليه ؟ .. ومن قال ذلك فقد صدق . فقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخدمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله : بالؤمنين رؤوف رحيم ، فكنت بين يديه سيفًا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعى فأمضى .. فلم أزل مع رسول الله

(١) اخترعه ، ويبرع : أي مبتدع ، وفلان بدع في هذا الامر : أي بديع .

(٢) من الهيبة .

صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد . ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعتة^(١) وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بليته ، فأكون سيفاً مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد . ثم انى قد وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ، ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين : فأما أهل السلامة والدين والقصد^(٢)، فأنا ألين لهم من بعض لبعض ... »

بل ظهرت آثار الشعور بالتبعة بعيد موت النبى والحال على أشده فى يوم السقيفة ، والمسلمون مختلفون على من يلى الأمر بعد محمد حتى قيل فيما قيل : من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير ففى تلك المحنة التى تشخص^(٣) فيها الأبصار، وتعظم التبعات ، وقودى^(٤) زلة الساعة فيها بالكثير الذى لا تستدركه الأعوام، كان عمر الحاد الشديد : يخشى بواذر الحدة من أبى بكر ويهيم^(٥)، الكلام اللين ليعالج الأمر بالرفق والثؤدة^(٦) ويقول فيما رواه عن محنة ذلك اليوم : « وكنت أدارى منه بعض الحد - أى الحدة - فلما أردت أن أتكلم، قال أبو بكر : على رسلك^(٧) ! فكرهت أن أغضبه . فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم منى وأوقر^(٨) عمر الحاد الشديد يحاذر من بواذر أبى بكر ، وأبو بكر، الحليم الوديع يكف عمر عن الكلام ، فيطيع !

هؤلاء رجال يعرفهم صاحبهم ، وهذه مواقف يعرفها صاحبها ، وهذه مسألة فصل فيها الزمن، ولم يبق لنا نحن الذين نعود إليها ونستخلص عبرتها الا أن نراقب ما فيها من آيات الاعجاز ، وسوابق النظر البعيد ما وضع أبو بكر خيرا من موضعه ، وهو يلى الاسلام والخطر من داخل أهله ، والطب الذى يطبهم به هو طب التآلف والاحجام عن السطوة ما كان الى الاحجام عنها سبيل

(١) جعله فى غمده . (٢) سكونه . (٣) استقامة الطريق . (٤) شخص بصره : اذا فتح عينيه وجعل لا يطرف . (٥) أي تهلك . (٦) أي التريث . (٧) تمهل أو انتظر .

وما وضع عمر خيرا من موضعه ، وهو يلى الاسلام والخطر عليه من أعدائه المحدثين^(١) به ، والطب الذى يطبهم به هو طب الصلابة والحزم الذى لا ينكل^(٢) عن صراع

وكانما توقع النبى أن أيام أبى بكر معدودات ولكنها الأيام التى تحتاج إليه وتكفى لانجاز عمله . وتوقع أن يأتى عمل عمر فى حينه المقدور . فلا يفوت الاسلام أن ينتفع بمقدرته فى عهد أبى بكر ولا فى عهده . نقول هذا على الترجيح ، ومن حقنا أن نقوله على التوكيد ، لأن حديث النبى فيه غنى عن التخمين والتأويل . قال عليه السلام : « رأيت فى المنام انى أنزع بدلو بكرة على قلب فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا ، فلم أر عبقرى يفرى فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن »
وفهم فقهاء الاسلام ان ضعف النزاع هو قصر المدة وانصراف اللزم الى حرب الردة ، وأن فيض الرى على يد عمر هو فيض العبقرية التى يفسح لها الاجل وتنفسح أمامها منادح^(٣) العمل ، ويؤتى لها من السبق ما لا يؤتى لغير العبقرين

ولنا أن نفسر العبقرية بمعناها الذى يفهمه الاقدمون أو بمعناها الذى نفهمه نحن المحدثين ، فكلا المعنيين مستقيم فى وصف عمر بن الخطاب .. أتراها على كلا المعنيين شيئا غير التفرد والسبق والابتكار ؟ .. كلا .. ما للعبقرية مدلول يخرج عن صفة من هذه الصفات ومن يكتب تاريخ عمر فقد يجد فى النهاية انه يكتب تاريخا « لأول من صنع كذا وأول من أوصى بكذا » حتى ينتهى بسرد هذه « الأوليات » الى عداد العشرات وتلك هى العبقرية التى لا يفرى فريها أحد كما قال صاحبه وأعرف الناس به . صلوات الله عليه

(١) أحذقوا به : أحاطوا به . (٢) لا يجبن . (٣) الندح : الكثرة

رجل ممتاز

يوصف عمر بالعبقريّة اذا نظرنا الى أعماله ، ويوصف بها اذا نظرنا الى تكوينه الذي جعله مستعدا لتلك الأعمال مضطلعا بتلك القدرة . وان لم يكن من اللازم اللازب^(١) أن تقتزن القدرة بالعمل الذي تستطيعه . لما يتفق أحيانا من وقوف العوائق بينها وبين الانجاز أو الاتجاه الى ذلك العمل ..

الا أن عمر كان رجلا ممتازا بعمله ، ممتازا بتكوينه ، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد في عرف الأقدمين والمحدثين ، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين ..

اذا وصفته للأقدمين الذين يقيمون العبقريّة بالفراسة والخبرة عرفوا من صفته أن الذي يوصف لهم رجل ممتاز أو رجل نسيج وحده وإذا وصفته للمحدثين الذين يقيمون العبقريّة بالعلم أو مشاهدات العلماء، عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز ، أو رجل موهوب كانت نظرة اليه — قبل السماع بعمل من أعماله — توقع في الروع^(٢) أنه من معدن في الرجال غير معدن السواد^(٣)، وأنه جدير بالهيبة والاعظام ، خليق أن يحسب له كل حساب كان مهيا رائع المحضر، حتى في حضرة النبي التي تتطامن عنده الجباه ، وأولها جبهة عمر

أذن النبي يوما لجارية سوداء أن تفي بنذرهما « لتضربن بدفها فرحا ان رده الله سالما » فأذن لها عليه السلام أن تضرب بالدف بين يديه ودخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل على وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، والصحابة مجتمعون

(١) الثابت . (٢) من التفرس ، وهو التثبت وبعد النظر . (٣) من قوم السلعة : اذا قدر قيسها . (٤) العقل والقلب . (٥) سواد الناس : عوامهم .

فما هو الا أن دخل عمر حتى وجمت^(١) الجارية وأسرت الى دفيها تخفيه ، والنبي عليه السلام يقول : « ان الشيطان ليخاف منك يا عمر ! » وروت السيدة عائشة رضى الله عنها أنها طبخت له عليه السلام حريرة ودعت سودة أن تأكل منها فأبت .. فعزمت عليها لتأكلن أو لتلطنن وجهها . فلم تأكل ، فوضعت يدها في الحريرة^(٢) ولطختها بها ، وضحك النبي عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها : لطخي أنت وجهها ففعلت

ومر عمر فناده النبي : يا عبدالله ! .. وقد ظن أنه سيدخل ، فقال لها : قوما فاعسلا وجهكما !

قالت السيدة عائشة : فمازلت أهاب عمر لهيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياه

ومن تلك الهيبة أنها كانت رضى الله عنها تتحفظ في زيارة قبره بعد موته ، وحكت ذلك فقالت : « ما زلت أضع خماري^(٣) وأتفضل في ثيابي وأقول : انما زوجي وأبى حتى دفن عمر بن الخطاب ، فلم أزل متحفظة في ثيابي حتى بنيت بينى وبين القبور جدارا فتفضلت^(٤) بعد » وان من أدب الرسول عليه السلام ، أنه كان يرعى تلك الهيبة رضى عنها واغتباطا بأثرها في نصرة الحق وهزيمة الباطل وتأمين الخير والصدق واخافة أهل البغى والبهتان^(٥)

وقد كان الذين يعرفون عمر أهيب له من الذين يجهلون . وتلك علامة على أذ هيته كانت قوة نفس تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار .. فربما اجترأ عليه من لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه^(٦) عن الخلاء وقلة اكترائه للمظهر والثياب ، أما الذين عرفوه واختبروه فقد كان يروعهم على المفاجأة روعة لا تذهبها الالفة وطول المعاشرة ، ومن ذاك أنه كان يمضى ذات يوم وخلفه عدة من أصحاب رسول الله اذ بدا له فالتفت . فلم يبق منهم أحد الا وحبل ركبتيه ساقط ! وتنحنج عمر . والحجامة يقص له شعره ، فذهل الحجامة عن نفسه .

(١) أدسكت عن ضرب الدف . (٢) دقيق يطبخ بلبن أو دسم .

(٣) أنزعجه وأخلسه . (٤) أى النبذل . (٥) أى سرورا ومرحاً . (٦) أى

الباطل . (٧) لا ابتعاده . (٨) أى اقسامه .

وكاد أن يغشى عليه، فأمر له بأربعين درهما
فهى هبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد ، الا انه مع
هذا كان فى منظر الجسد رائعا يهول^(١) من يراه ، ولا يذهب الخوف منه
الا الثقة بعدله وتقواه

كان طويلا بائن^(٢) الطول يرى ماشيا كأنه راكب ، جسيما صلبا يصرع
الأقوياء ويروض^(٣) الفرس بغير ركاب ، ويتكلم فيسمع السامع منه وفاق^(٤)
ما رأى من نفاذ قول وفصل خطاب

تشهد العيون كما تشهد القلوب انه لمن معدن العظمة ، أو معدن
العبقرية والامتياز بين بنى الانسان ، وللمحدثين علامات فى العبقرية
تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال
فالعالم الايطالى «لاومبروزو» ومدرسته التى تأتم^(٥) برأيه ، يقررون
بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا نخطئها على صورة من
الصور فى أحد من أهلها .. وهى علامات تتفق وتتناقض ولكنها فى جميع
حالاتها وصورها نمط^(٦) من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين
أصحاب التشابه والمساواة

فيكون العبقري طويلا بائن الطول ، أو قصيرا بين القصر ، ويعمل
بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين ، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة^(٧)
الشعر على غير المهود فى سائر الناس . ويكثر بين العبقريين من كل طراز
جيشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارئ ، فيكون فيهم
من تفرط سورتهم كما يكون فيهم من يفرط هدوءه ، ولهم على الجملة
ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة فى الزكاة والفراسة،
وتارة فى النظر على البعد ، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله
ومهما يكن من الشك فى استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين
تفصيلاتها وبين الواقع، فهى بلا ريب صادقة فى حالات ، مقارنة فى حالات ،
غير أهل فى كل حال للتصديق التام ولا للنبد التام ، ولا سيما عندما
تتفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد

(١) يفزع ويخيف . (٢) وأضح وظاهر . (٣) أي يدرجه ويعلمه .
(٤) أي قدر . (٥) تقتدي . (٦) نوع . (٧) للطريقة . (٨) أي قلته .
(٩) جاش البحر والقدر : غلى .

العرف المأثور ..

وفى عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير
كان كما تقدم طويلا يمشى كأنه راكب ، وكان أعسر يسرا يعمل بكلتا
يديه ، وكان أصلع خفيف العارضين ، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله
بلال : وكيف تجدون عمر ؟.. فقال : خير الناس ، الا أنه اذا غضب
فهو أمر عظيم ..

وكان سريع البكاء اذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدي الله ، وأثر
البكاء فى صفحتي^(١) وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان
ومن فرط حسه ، وتوقّر شعوره ، انه كان يميّز به بعض المذوقات
والشمومات التى لا يسهل التمييز بينها . سقاه غلامه ذات يوم لبنا
فأنكره . فسأله : ويحك !.. من أين هذا اللبن ؟.. قال الغلام : ان
الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال الله
وقد عرفنا أهل البادية. وعرفنا أنهم جميعا أصحاب ابل وألبان ، ولكننا
لم نجد منهم الا قليلا يدعون أنهم يفرقون بين لبن ناقة ولبن غيرها هذه
التفرقة السريعة ، ولا سيما فى المناخ الواحد والمرعى المتقارب
وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن « من لم ينفعه
ظنه لم تنفعه عينه » ... وتروى له فى أمر هذه الفراسة روايات قد
يصدق منها القليل وتتسرب المبالغة الى كثير ، ولكنها على كلتا الحالتين
تنبئنا بحقيقة لا شك فيها ، وهى انه اشتهر بالفراسة وحج الثفرس
والاستنباط بالنظرة العارضة ، فمن ذلك : انه كان جالسا فمر به رجل
جميل فقال ما معناه : أحسبه كان كاهنهم فى الجاهلية . فكان كذاك
وانه أبصر اعرابيا نازلا من جبل فقال : هذا رجل مصاب بولده قد
نظم فيه شعرا لو شاء لأسمعكم ، ثم سأل الاعرابى : من أين أقبلت ؟ ..
فقال : من أعلى الجبل .. فسأله : وما صنعت فيه ؟.. قال : أودعته وديعة
لى .. قال : وما وديعتك ؟.. قال : بنى لى هلك فدفتته .. قال :
فأسمعنا مرثيتك فيه .. فقال : وما يدريك يا أمير المؤمنين ؟.. فوالله

(١) صفحة كل شيء : جانبه .

ما تفوهت بذلك ، وانما حدثت به نفسى ، ثم أنشد أبياتا ختمها بقوله :
فالحمد لله لا شريك له فى حكمه كان ذا وفى قدره
قدر موتا على العباد فما يقدر خلق يزيد فى عمره
فبكى عمر حتى بل لحيته . ثم قال : صدقت يا اعرابى ..!

وكان عمير بن وهب الجمحى ، وصفوان بن أمية ، يذكر ن مصاب أهل
بدر فقال .صفوان : والله ما ان فى العيش بعدهم خير . فوافقهم عمير وهو
يقول كالمعتذر من تخلفه عن الثأر : أما والله لولا دين على ليس له عندى
قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت الى محمد حتى أقتله
فقال صفوان يحرضه : على دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى
أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شيء ويعجز عنهم
فوقع كلامه من نفس عمير ، فأسرَّ اليه بعزمه على الغدر بالنبي ،
وشحذ^(١) سيفه وسه ، ثم انطلق حتى قدم المدينة

فما نظر عمر اليه متوشحا بالسيف حتى أوجس منه^(٢) وهمس لمن معه :
هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب . ما جاء الا لشر وهو الذى حرش^(٣)
بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر . ثم دخل على النبي فأخبره خبره ، وعاد الى
عمير فأخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبيه^(٤) بها . وقال لرجال من الأنصار :
ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه
من هذا الخبيث ، فانه غير مأمون . ثم دخل به على رسول الله فلما رآه
وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال : أرسله يا عمر !.. اذن يا عمير ا
وجعل رسول الله يسأل عمير وهو يراوغ^(٥) حتى ضاقت به منافذ
الانكار فباح بسر ، وأعلن الاسلام والتوبة

هذه الفراسة وشبهاتها هى ضرب من اسنيحاء الغيب واستنباط
الأسرار بالنظر الثاقب^(٦) وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من
قرائن المبقرية فى حاشية من حواشيها^(٧) . اذ ما هى المبقرية فى لبابها
كأئنا ما كان عمل المبقرى المتصف بها ؟ .. ما هى الحكمه المبقرية ؟
ما هو الفن المبقرى ؟ .. ما هو دعاء السياسة فى الدهاة المبقرين ؟

(١) أي الضياع . (٢) حده . (٣) أضمر في نفسه الخوف منه .
(٤) أغرى . (٥) التقدير والحرص . (٦) المراد : جعلها في نحره . (٧) حاد
عن السيء . (٨) النافذ . (٩) أي جانب من جوانبها .

من هو :

الألمعى^(١) الذى يظن بك الظن^(٢) كأن قد رأى وقد سمعا ؟
كل أولئك يلتقى فى هبة واحدة ، هى كشف الخفايا ، واستيضاح
البواطن واستخراج المعانى التى تدق^(٣) عن الأبواب .. فاتصالها بالفراصة
وشببهاها أمر لا عجب فيه ، ولا انحراف به عن النحو الذى تنتجيه
والذى يعيننا^(٤) من الفراسة وشببهاها فى صدد الكلام عن عمر رضوان
الله عليه أن نحصى الخصال الأخرى التى هى كالفراسة فى هذا الاعتبار ،
وهى التفاؤل ، والاعتداد بالرؤيا والنظر ، أو الشعور على البعد ، أو
« التلبائي^(٥) » كما يسميه النفسانيون المعاصرون ، ولكل أولئك شواهد
شتى مما روى عن عمر فى جاهليته وبعد اسلامه الى أن أدركته الوفاة .
جاءه رسول من ميدان نهاوند فسأله : ما اسمك ؟ .. قال : قريب ،
وسأله مرة أخرى : ابن من ؟ .. فقال : ابن ظفر ! .. فتفأله وقال : ظفرا^(٦)
قريب ان شاء الله ، ولا قوة الا بالله

وروى يحيى بن سعيد أن عمر سأل رجلا : ما اسمك ؟ .. قال :
جمرة ! .. فسأله : ابن من ؟ .. قال : ابن شهاب .. فسأله : ممن ؟ ..
قال : من الحرقة ، وعاد يسأله : ثم ممن ؟ .. قال : من بنى ضرام ،
وهكذا فى أسئلة ثلاثة أو أربعة عن مسكنه وموقعه ، والرجل يجيب بما
فيه معنى النار ومرادفاتهما ، حتى استوفاه . فقال عمر : أدرك أهلك فقد
احترقوا ..

وقد يكون التأليف ظاهرا فى هذه القصة ، ولكنها مع تأليفها لا تخلو
من الدلالة على اشتهاى عمر باستكناه الألفاظ فى معرض التفاؤل أو
الانذار ..

أما الرؤيا فآخر ما روى عنه من أخبارها ، أنه رأى قبيل مقتله كأن ديكاً
نقره نقرتين فقال : يسوق الله الي الشهادة ويقتلنى أعجمى ، فان الديك
فى الرؤيا يفسر برجل من المعجم
على أن المكاشفة أو الرؤية Vision كما يسميها النفسانيون

(١) المتوقد الذكاء . (٢) الهبة : الساعة . (٣) أى تخض . (٤) أى
نقصه . (٥) أى الشعور البعيد . (٦) أى نصر .

المحدثون انما تظهر بأجلى وأعجب من هذا كثيرا في قصة سارية المشهورة ، وهى مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباثى Telepathy أو الشعور البعيد

كان رضى الله عنه يخطب بالمدينة خطبة الجمعة ، فالتفت من الخطبة ونادى : يا سارية بن حصن ! الجبل .. الجبل ! ومن استرعى^(١) الذئب ظلم فلم يفهم السامعون مراده ، وقضى صلاته ، فسأله على رضى الله عنه : ما هذا الذى ناديت به ؟ .. قال : أو سمعته ؟ .. قال : نعم .. أنا وكل من فى المسجد ..

فقال : وقع فى خلدى ان المشركين هزموا اخواننا ، وركبوا أكتافهم ، وأنهم يملكون بجبل .. فان عدلوا^(٢) إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وان جاوزوه هلكوا ، فخرج منى هذا الكلام

وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا فى ذلك اليوم وتلك الساعة حتى جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول : يا سارية بن حصن ! انجبل .. الجبل .. فعدلنا إليه ففتح الله علينا

ولا داعى للجزم^(٣) بنفى هذه القصة استنادا الى العقل أو الى العلم أو الى التجربة الشائعة ، فان العقل لا يمنعها ، والعلماء النفسانيون فى عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفى أمثالها . بل منهم من مارسوا « التلباثى » وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين :

الا أن المهم من نقل هذه القصة فى هذا الصدد أن عمر كان مشهورا بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية اما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد ، وهى الهبات التى يلحقها بالعبقريه علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الانسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها ..

فهو رجل نادر بما تراه منه العين ، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق ، نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين أو هو رجل ممتاز ، وعبرى موهوب فى جميع الآراء

(١) أى جعله راعيا . (٢) عدل الى الشيء : رجع ، الى الطريق : مال .

(٣) القطع .

صفاته

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال . رجل عبقرى ، أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة،الذين لا يعدون في الزمن الواحد بأكثر من الآحاد أقول رجل قوى ؟.. نعم هو رجل قوى لا مرأ^(١) .. وكل عظيم فهو قوى بمعنى من معانى القوة . نعلم هذا فنعلم الشيء المهم عنه ، ولكننا بعد هذا لا نعلم شيئا مهما عن صفاته وأخلاقه . لأز، الناس من حيث القوة أقوياء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون الى هذا تارة والى هناك تارة أخرى . أما من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوف وألوف ، وهم فى قوتهم أو ضعفهم أنماط لا تحصى من المناقب^(٢) والعيوب ، وأحرى^(٣) بنا أن نقول ان القوة صفة تستفاد من جملة مناقب الانسان وعيوبه . فهي حالة تدل عليها المناقب والعيوب ، أو تدل عليها الصفات والأخلاق ، وليست هى بالحالة التى تدلنا على مناقب الانسان، وعيوبه وتهدينا بغير هاد الى صفاته وأخلاقه . فاذا قلت ان عمر بن الخطاب رجل قوى ، إنما زدت على أن تقول انه رجل عبقرى أو انه رجل عظيم

وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالأمر اليسير ، لأنه نمط لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس الى أمثاله الكثيرين .. وقد يكون الرجل العظيم نمطا وحيدا فى التاريخ كله لا نظير له فى تفصيل أخلاقه وصفاته وان ساواه فى القدر أنداد^(٤) وقرناء^(٥)

وعمر بن الخطاب مثل فذ من أمثلة هذا الطراز الفريد ، تفهم سره فاذا هو على وفاق مع جهره ، وتنفذ الى باطنه فاذا هو مصدق للظاهر من سيماه ..

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر والسرية ؟.. كلا .. ولا تقدمنا بعيدا فى طريق حلها ، لأننا لا نعرف

-
- (١) المرية : الشك • (٢) أي أنواع وأصناف • (٣) المنقبة : المفخرة •
(٤) أولى وأجدر • (٥) والند : المثل والنظير • (٦) القرن : متلك فى السن
وقرنك : تفؤك فى الشجاعة ، والقرين : الصاحب •

هذا التقارب الا بعد معرفة السريرة^(١) التي نبحث عنها ، فلا بد اذن من البحث ، ولا بد اذن من المعرفة .. فاذا وصلنا الى الغور^(٢) البعيد عرفنا ساعتئذ انه لا يناقض الظاهر المدشوف ، ولكن لابد من الوصول الى الغور البعيد قبل ذلك

لا تناقض في خلائق^(٣) عمر بن الخطاب ، ولكن ليس معنى ذلك انه أيسر فهما من المتناقضين ، بل لعله أعضل^(٤) فهما منهم في كثير من الأحيان . فالعظمة على كل حال ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه ، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ الى صميمه ويحتويه

انما الأمر الميسور في التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جدا لا يسترها حجاب . فما من قارى ألم بفذلكة صالحة من ترجمته الا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلا ، وكان رحيمًا . وكان غيورا ، وكان فطنا ، وكان وثيق الايمان ، عظيم الاستعداد للنخوة الدينية ..

فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والايمان الوثيق صفات مكيئة فيه تحفى على ناظر ، ويبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف تتجه هذه الصفات الى وجهة واحدة ، ولا تتشعب في اتجاهها طرائق قدا كما يتفق في صفات بعض العظماء ، بل يبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتم بعض هذه الصفات بعضا حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان ..

وآعجب من هذا في التوافق بين صفاته: أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى ولا تستمدّها من ينبوع واحد^(٥) ، ثم هي مع ذلك متفقة لا تتناقض ، متساندة لا تتخاذل ، كأنها لا تعرف التعدد والتكاثّر في شيء ..

خذ لذلك مثلا عدله المشهور الذي اتسم^(٦) به كما لم يتسم قط بفضيلة من فضائل الكبرى .. فكيف رافدة لهذا الخلق الجميل في نفس ذلك الرجل العظيم ؟ ..

(١) أي الامور الخفية . (٢) القمر من كل شيء . (٣) طبيعة . (٤) اشتد . (٥) أي متفرقة . (٦) ينابيع . (٧) عين الماء . (٨) أي تميز به

روافد شتى : بعضها من وراثته أهله ، وبعضها من تكوين شخصه ،
وبعضها من عِبَر أيامه ، وبعضها من تعليم دينه .. وكلها بعد ذلك تمضى
فى اتجاه قويم^(١) الى غاية واحدة لا تتم على افتراق
لم يكن عمر عادلا لسبب واحد بل لجملة أسباب :

كان عادلا لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه ، فهو من أنه بيوت
بنى عدى ، الذين تولوا السفارة والتحكيم فى الجاهلية ، وراضوا أنفسهم
من أجل ذلك جيلا بعد جيل على الانصاف وفصل الخطاب ، وجده ثقيل
ابن عبد العزى هو الذى قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية حين تنافرا
اليه وتنافسا على الزعامة ، فهو عادل من عادلين ، وناشئ فى مهد الحكم
والموازنة بين الأقوياء ..

وكان عادلا لأنه قوى مستقيم بتكوين طبعه .. وان شئت فقل أيضا
بتكوينه الموروث ، اذ كان أبوه الخطاب وجده ثقيل من أهل الشدة
والبأس^(٢) ، وكانت أمه منتمة بنت هشام بن المغيرة قائد قريش فى كل نضال
فهو على خليفة الرجل الذى لا يحابى^(٣) لأنه لا يخاف ، والذى ينجل من
الميل الى القوى لأنه جبن ، ومن الجور على الضعيف لأنه عوج يورى^(٤)
بنخوته^(٥) وشممه^(٦).

وكان عادلا؛ لأن آله من بنى عدى قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم
بنى عبد شمس، وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم نعقة الدم ، ولكنهم
غلبوا على أمرهم لقلّة عددهم بالقياس الى عدد أقربائهم ، فاستقر فيهم
بغض القوى المظلوم للظلم، ووجه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه ،
وساعدت عِبَر الأيام على تمكين خليفة العدل فى خلاصة هذه الأسرة ،
أو خلاصة هذه القبيلة ، ونعنى به عمر بن الخطاب

وكان عادلا؛ بتعليم الدين الذى استمسك به وهو من أهله؛ بمقدار ما
حاربه وهو عدوه ، فكان أقوى العادلين؛ كما كان أقوى المتقين والمؤمنين
وكذلك اجتمعت عناصر الوراثة الشعبية ، والقوة الفردية ، وعبر
الحوادث موعقيدة الدين فى صفة العدل التى أوشت أن تستولى فيه على

(١) أي معتدل . (٢) اشرف . (٣) من قولهم : راض المهر : أي ذلله
ودربه وعلمه . (٤) بمعنى الشدة والقوة . (٥) حاباه : نصره واختصه ومال
اليه . (٦) يعيب . (٧) عظّمته وكبريائه . (٨) بمعنى الكبرياء أيضا .

جميع الصفات ..

كان عادلا لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقلة التناقض فيه ، وربما كان تعدد الأسباب هو العاصم الذي حمى هذه الصفة أن تتناقض في آثارها ، لأنه منحها القوة التي تشدها كما يشد الحبل المبرم^(١) فلا تنفك ولا تتوزع ، فكان عمر في جميع أحكامه عادلا على وتيرة^(٢) واحدة لا تفاوت بينها ، فلو تفرقت بين يديه مائة قضية في أعوام متباعدات ؛ لكنني على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا .. كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير ..

الا أن الصفات اذا بلغت هذا المبلغ من القوة الرائعة لم تكد تسلم من طرود التناقض عليها ، وان سلمت منه بطبيعتها ، لأنها تدخل في صفات البطولة التي تثير الإعجاب والمبالغة ، وكل بطولة فهي عرضة للمبالغات والاضافات ، ومن ثم لا تسلم من تناقض الأقاويل .. وصفات عمر كلها صفات لها طابع البطولة ، وفيها دواعي الإغراء بالإعجاب والمبالغة . ومن ؟ .. من الأصدقاء المصدقين لأنهم لا يتهمون بقصد السوء ، وهم في الواقع أولى بالاحتراس من الخصوم المتهمين .. فمن هنا يجيء التناقض لا من طبيعة الصفات التي تأباه فالعدل مثلا هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم في قضاء الحقوق وإقامة الحدود ..

وليس أقرب الى الحاكم من ابنه

فاذا سوَّى الحاكم بين ابنه وسائر الرعية ، فذلك عدل مأثور يقتدى به الحاكمون ..

ولقد سوَّى عمر بين أبنائه وسائر المسلمين ، فبلغ بذلك مبلغ البطولة في هذه الصفة النادرة بين الحكام

وذلك كاف في تعظيم قدره .. لا حاجة بعده الى مزيد ..

الا انها صفة من صفات البطولة التي تروغ^(٣) وتعجب ، وتملأ النفس بالرغبة في التحدث بها ، والاطناب^(٤) في أحاديثها ، فهي لا تكفي المبالغين حتى

(١) الحبل المبرم : المفتول فتلا شديدا . (٢) أي طريقة . (٣) من راعه الشيء : أعجبه . (٤) الاطالة والبلاغة في الوصف .

يجعلوا عمر مقيما للحد على ابنه ، مشتدا في عقوبته اشتدادا لا يسوى فيه بينه وبين غيره ، ثم لا يكتفى المبالغون بهذا حتى يموت الولد قبل استيفاء العقوبة ، فيمضى عمر في جلده وهو ميت لا تقام عليه الحدود ! ومن اعتدل من المبالغين لم يذكر الموت واتمام العقوبة وذكر لنا أن الولد مات بعد ذلك بشهر من مرض الضرب الذي ثقل عليه ، وعجز عن احتماله ..

نعنى بما تقدم قصة عبد الرحمن بن عمر في مصر ، وهى كما رواها عمرو بن العاص والى مصر يومئذ، حيث يقول : « ... دخلا - عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة - وهما منكسران ، فقالا : أقم علينا حد الله ، فانا قد أصبنا البارحة شرابا فسكرنا ، فزبرتهما^(١) وطردتهما ، فقال عبد الرحمن : ان لم تفعل أخبرت أبى اذا قدمت عليه .. فحضرنى رأى وعلمت انى ان لم أقم عليهما الحد غضب على عمر في ذلك وعزئنى وخالفه ما صنعت ، فنحن على ما نحن عليه اذ دخل عبدالله بن عمر ، فقمتم اليه فرحبت به وأردت أن أجلسه فى صدرى، مجلى فأبى على وقال : أبى نهانى أن أدخل عليك الا أن لا أجد من ذلك بدا^(٢) . ان أخى لا يحلق على رؤوس الناس ، فأما الضرب فاصنع ما بدا لك »

قال عمرو بن العاص : وكانوا يحلقون مع الحد فأخرجتهما الى صحن الدار فزبرتهما الحد ، ودخل ابن عمر بأخيه الى بيت من الدار فحلق رأسه ورأس أبى سروعة ، فوالله ما كتبت الى عمر بشيء مما كان، حتى اذا تحينت^(٣) كتابه اذا هو نظم فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العاصى ابن العاص :

« ... عجبت لك يا ابن العاص ولجأتك علىّ وخلاف عهدى ... فما أرانى الا عازلك فمسيء عزلك . تضرب عبد الرحمن فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك : وقد عرفت أن هذا يخالفنى ؟.. انما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين . ولكن قلت هو ولد أمير

(١) الزبر : الزجر والانتهاز . (٢) أي مفرا . (٣) المراد : جاء كتابه

في حينه أي وقته . (٤) التأليف ، والمراد : كتب فيه .

المؤمنين ، وقد عرفت ألا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه ، فإذا جاءك كتابي هذا فابحث به في عبادة على قتب^(١) حتى يعرف سوء ما صنع ..

قال : « فبعثت به كما قال أبوه ، وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه ، وكتبت الى عمر كتابا اعتذر فيه ، وأخبره أنني ضربته في صحن دارى ، وبالله الذى لا يحلف بأعظم منه انى لأقيم الحدود في صحن دارى على الذمى والمسلم ، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر »

قال أسلم : « فقدم عبد الرحمن على أبيه فدخل عليه وعليه عبادة ولا يستطيع المشى من مركبه . فقال : يا عبد الرحمن فعلت كذا ؟ .. فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال : يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرة فلم يلتفت الى هذا عمر وزبيرة^(٢) ، فجعل عبد الرحمن يصيح : أنا مريض وأنت قاتلى ! .. فضربه وجسه ، ثم مرض فمات رحمه الله »

فهذه قصة تتوافق أخبارها ومن رويت عنهم ، فلا نستغربها في جميع تفصيلاتها الى حين تطرأ عليها المبالغة التى تتسرب الى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة ، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التى لا يوجبها الدين ، ولا تقبلها الفطرة الانسانية ، فيقيم عليه الحد وهو ميت ، أو يعرضه للموت من أجل حد أقيم

هذا هو الغريب الذى استوقفنا فأنكرناه ، ومضينا في تمحيصه فطابق التحييص ما قدرناه ، أما سائر القصة فلا غرابة فيه من كل نواحيه ، بل هو من القصص التى يستبعد فيها التلفيق والاختراع^(٣) .. الا أن يكون الملفت من حذاق الرواة ومهرة الوضاع

ولو كان المصدر واحدا معروفا بالحدق فى القصص لحسبناها من وضعه وتلفيقه . ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به ، فهى أقرب الى الواقع فيما يشبهه ويجرى مجراه

فبعد الرحمن بن عمر يذهب الى الوالى لأنه شرب شيئا ظنه غير مسكر فإذا هو قد سكر منه ، ولا مناص^(٤) من اقامة الحد عليه والا رفع

(١) اللين . (٢) الاكاف الصغير على قدر سنام البعير . (٣) زجره ونهره . (٤) أي اختباره والوقوف على حقيقته . (٥) الكذب والاختلاق . (٦) بمعنى المهرة . (٧) لا مفر ولا مهرب منه .

الأمر الى أبيه .. هى شنشنة عمرية لا لبس^(١) فيها ، وهو ابن عمر لا وراء والوالى .. ومن والى^(٢) ؟ عمرو بن العاص الذى لا خفاء بدهائه ولا يبعد حسابه ، فهو يترث^(٣) بادية الأمر ويحاول أن يصرف الفتى اذا طالب له الانصراف دون أن يقيم الحد عليه .. وهى أيضا شنشنة لا غرابة فيها . فمن يدري ؟.. ألا يجوز أن يصبح هذا الفتى أخا للخليفة أو مدبرا للسلطان معه فى يوم غير بعيد ؟..

والخليفة يدري بالأمر فيهموله ، ويستكبر أن يخفيه عنه واليه فلا يصل اليه نبأه من قبله ، وهو ما هو فى تحرجه من تبعة^(٤) يحملها غافلا عنها ، لحرص الولاة على تحرى^(٥) هواه ، وابتغاء رضاه ، فيشفق أن يقع ابنه فى معصية ثم ينجو من الحد الذى شرعه الدين ، وهو مسئول عن الولاة والحدود ، ومسئول عن ذويه الأقربين قبل سائر المسلمين كل أولئك كما قلنا سائق^(٦) لا غرابة فيه

أما الغريب من عمر حقا فى معدلته وعلمه بالدين ، وكرهته رياء الناس فهو أن يتم على ابنه الحد وهو ميت ، أو يشتد فى اقامة الحد على ابنه حتى يتلف ، أو يصاب بما يتلقه بعد أيام فلا موجب لذلك من حكم دين ولا اتقاء تبعة

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر فى اقامة الحدود خاصة ، وفى مثل هذه العقوبة بعينها

فقد جرى له يوما بشارب سكران ، وأراد أن يشتد عليه ، فقال له : لأبعثك الى رجل لا تأخذه فيك هواة .. فبعث به الى مطيع بن الأسود العبدى ، ليقوم عليه الحد فى غده ، ثم حضره وهو يضربه ضربا شديدا ، فصاح به : قتلت الرجل .. كم ضربته ؟ .. قال : ستين ، قال : أقص عنه بعشرين . أى ارفع عنه عشرين ضربة من أجل شدتك عليه فيما تقدم من الضربات ..

وقد كان من دأبه^(٧) أن يترث فى اقامة الحدود ، حتى ليؤثر — كما قال — تعطيلها فى الشبهات على أن يقيمها فى الشبهات

-
- (١) الخلق والطبيعة • (٢) أى اختلاط وشبهة • (٣) يتأنى ويتمهل • (٤) يفزعه • (٥) أى مسئولية • (٦) يتحرى كذا : يتوخاه ويعصده • (٧) أى جائز ومقبول • (٨) أى من عادته وطريقته •

ومرء يقوم يتبعون رجلا قد أخذ في ريبة فقال : لا مرحبا بهذه الوجوه
التي لا ترى الا في الشر

وربما غضب على الوالى من كبار الولاة لغلوه^(١) في تقاضى الحدود على
المعاصي، كما فعل في انذاره الشديد لأبى موسى الأشعرى حين جلد شاربا،
وحلق شعره وسود وجهه، ونادى في الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه .
فأعطى الشاكى مائتى درهم، وكتب الى أبى موسى « لئن عدت لأسودن
وجهك، ولأطوفن بك في الناس » ، وأمره أن يدعو المسلمين الى مجالسته
ومؤاكلته، وأن يمهله ليتوب ، ويقبل شهادته ان تاب ..

وتفقد رجلا يعرفه فليل له، انه يتابع الشراب ، فكتب اليه : « انى
أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد
العقاب ، ذو الطول ، لا اله الا هو ، اليه المصير » فلم يزل الرجل يرددها
ويبكي، حتى صحت توبته، وأحسن النزع، وبلغت توبته عمر ، فقال لمن
حضره مجلسه : « هكذا فاصنعوا .. اذا رأيتم أخا لكم زلّ زكّة فسددوه
ووقفوه، وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه »
وقد تكرر منه اعفاء الزانيات من الحد لشبهة القهر والعجز عن المقاومة ،
وتكرر منه الاعفاء لمثل هذا العذر في غير ذلك من الحدود

فلم يكن عمر بالسريع المتعطش الى اقامة الحد ، ولم يعرف عنه قط
انه أقام حدا وله مندوحة عنه^(٢) ..

وفي قصة ولده منادح شتى ترضيه على شدة تحرجه وتحريره . ثم لا
حاجة بمثله الى رياء العدل فيجور على ابنه ويسرف في القسوة عليه ،
ليقال، انه سوئ بينه وبين غيره

وأصح من ذلك ، أن نأخذ برواية عبد الله بن عمر، وهو أحق الناس
بالمبالغة في عدل أبيه لو كانت المبالغة مما يجبل بمثله ، فقد روى هذه
القصة فقال ما خلاصته : ان أخاه عبد الرحمن وأبا سروعة عقبة بن الحارث
سكرا ، فلما أصبحا انطلقا الى عمرو بن العاص وهو أمير مصر فقالا :
طهرنا فانا قد سكرونا من شراب شربناه .. ولم أشعر أنهما أتيا عمرو بن

(١) الريبة : التهمة والشك ، والمراد : التهمة . (٢) أي مغالاته .

(٣) سعة .

العاص ، فقلت : والله لا يخلق اليوم على رؤوس الاشهاد^(١) . ادخل أحلقك ، وكانوا اذ ذاك يخلقون مع الحد ، فدخل معي الدار ، فحلقني أخي يدي ، ثم جلدهما عمرو بن العاص فسمع عمر بن الخطاب فكتب الى عمرو : أن ابعث اليّ بعبد الرحمن بن عمر على قتب .. ففعل ذلك عمرو .. فلما قدم عبد الرحمن على عمر ، جلده وعاقبه من أجل مكانه منه ، ثم أرسله ، فلبث شهرا صحيحا ، ثم أصابه قدره فتحسب^(٢) عامة الناس انه مات من الجلد ولم يمت منه

هذه رواية عبد الله عن أبيه وأخيه ، ولو كان الأمر مبالغة في عدل عمر لكان الابن أحق الناس بهذه المبالغة ، أو كان الأمر رحمة بعبد الرحمن لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة . ولكنه أمر صدق لا نقص فيه ولا زيادة ..

فالذي يجوز لنا أن قبله من هذه القصة هو الجانب الذي يستقيم مع خلائق^(٣) عمر ولا يناقضها . وهو العدل الصحيح في محاسبة ولده على ذنبه ولا زيادة ، ولا سيما الزيادة التي لا تستقيم مع عدله ورحمته^(٤) . السواء . وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصلية فيه

نعم كانت الرحمة من صفاته التي وازنت فيه العدل أحسن موازنة .. فما عهد فيه أنه أحب العدل لغضه^(٥) من الأقوياء المعتدين ، كما كان يحبه لنجدته الضعيف المعتدى عليه

ولا يمتنع ذلك انه كان خشن الملمس صعب الشكيمة جافيا في القول^(٦) اذا استغضب واستثير . فليست الخشونة تقيضا للرحمة ، وليست النعومة تقيضا للقسوة . وليس الذين يستثارون ولا يستغضبون بأرحم الناس . فقد يكون الرجل ناعما وهو منطو على العنف والبغضاء ، ويكون الرجل خشنا وهو أعطف خلق الله على الضعفاء ، بل كثيرا ما تكون الخشونة الظاهرة تقابا يستتر به الرجل القوى فرارا من مظنة الضعف الذي يساوره من قبل الرحمة . فلا تكون مداراة الرقة الا علامة على وجودها وحذرا من ظهورها ..

(١) أي امام جمع من الناس . (٢) أي ظن . (٣) جمع خليفة ، والخليفة : الطيبة والفطرة . (٤) غض منه : أي وضع ونقص من قدره . (٥) شكمه : حزاه . (٦) أي شديدا غليظا .

ومن المألوف في الطبائع ان الرجل الذي يقسو وهو معتصم بالواجب قلما ينطبع على القسوة ، ولا سيما اذا كان الواجب عنده شيئا عظيما يزيل كل عقبة، ويبطل كل حجة، ويقطع كل ذريعة^(١)، فهو انما يعتصم^(٢) بالواجب في هذه الحالة كما يعتصم الانسان بالحصن المنيع كلما خشى أن تقتحم عليه طريقه ، ولولا خوف الرحمة أن تغلبه لما كانت به حاجة الى ذلك الحصن المنيع^(٣)، ولا سيما حين يكون حصنا بالغاً في المنعة كما كان الواجب عند عمر بن الخطاب

أرأيت هذا الرجل الصارم^(٤) الحازم قاسيا قط الا باسم واجب أو في سبيل واجب ؟.. كلا .. وما نذكر اننا سمعنا رواية واحدة من روايات شدته الا لمحنا الواجب قائما الى جانبها يزكيها ويسوغها . ومن كانت القسوة طبعاً فيه فما هو بحاجة الى واجب يغريه بالقسوة ، بل هو في حاجة الى واجبات عدة تنهأ عنها وتغريه باجتنابها

وليس قصاره في هذا الخلق انه غير قاس ، أو ان الرحمة كانت تنهض اني قلبه كلما طرقتة واتخذت سبيلها اليه ، فان نصيبه من الرحمة قد كان أوفى جداً من ذلك ، وكانت هذه الفضيلة من فضائله الأصيلة فيه لا تكاد تفارقه في عامة حياته ، حتى ليصح أن تضرب الأمثال برحمته كما كانت تضرب الأمثال بعدله .. وأن يقرن معه لقب العادل بلقب الرحيم وفي صدد الكلام عن الخليفة الاسلامي الكبير قد يهمننا خلق الرحمة فيه خاصة ، لأن شأنها في التقريب بينه وبين الاسلام غير قليل

فمن المحقق ان رفته للمسلمين وللدين الذي يدينون به كانت مقرونة في أول الأمر برحمته لامرأتين ضعيفتين رآهما في حالة من النكوى تلين القلب وتكف الغر^(٥) ونمسح جفوة العناد والبغضاء

قالت أم عبدالله بنت حنتمة : لما كنا نرتحل مهاجرين الى الحبشة أقبل عمر حتى وقف على ، وكنا نلقى منه البلاء والأذى والغلظة علينا ، فقال لي : انه الانطلاق يا أم عبدالله ! قلت : نعم .. والله لنخرجن في أرض الله .. آذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجا . فقال : صحبكم الله ،

(١) تذرع بذريعة : توسل بوسيلة . (٢) تقوى وامتنع . (٣) القوي الخالي من الشرقات التي يستغلها الاعداء . (٤) جلد شجاع . (٥) غايته وآخر امره . (٦) بمعنى الحدة .

ورأيت منه رقة لم أرها قط

وحديثه مع أخته فاطمة في سبب اسلامه مشهور متواتر في أوثق الروايات .. فانه ضربها حين علم باسلامها فأدمى وجهها ، فأدركتها الثورة الخطائية التي فيها منها بعض ما فيه ، وقالت وهى غضبي : يا عدو الله ، أتضربني على أن أوحده الله ؟ .. قال غير مترث^(١) : نعم !.. فقالت : ما كنت فاعلا فافعل . أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . لقد أسلمنا على رغم أنفك ..

ويذكر رواة القصة التي اتفقت عليها روايات كثيرة انه ندم وخلق^(٢) عن زوجها — بعد أن صرعه وقعد على صدره — ثم اتحنى ناحية من المنزل وطلب الصحيفة التي كتبت فيها آيات القرآن ، وخرج من ثمة الى حيث لقي النبي ، فأعلن شهادة الاسلام على يديه ..

وغير عسير علينا أن نرقب طوية عمر ونرى كيف كانت تتمشى فيها الخوارج والخطرات وهو يتحدث الى المرأتين : بنت حنتمة وبنت الخطاب فهذا بطل مناضل يشجذه^(٣) النضال اذا لقي أنداده من الأبطال ، وأقرانه من الرجال : الاساءة تتبعها الاساءة والتحدى يعقبه التحدى^(٤) ، وكلما قوبل البطش بمثله تضرمت^(٥) سورة الغضب وثار نحيمة القتال ، ومضى العداء شططا لا اعتدال فيه ولا نكوص^(٦) عنه ، حتى ينكسر عدو من العدوين . فلا موضع هنا لرحمة ولا سبيل لها الى ظهور . وتتمادى الشره على ذلك شهورا وسنين ، وكان الرحمة لم تخلق في النفس ، ولم يسمع لها في حنايا الصدور صوت

أما المرأة الشاكية ، أو المرأة الدامية ، اذا واجهت ذلك البطل القوي فما حاجته الى قوته ونضاله ؟ .. وما أخرى تلك القوة أن تهدأ في مكانها كأنها هي الخليفة الخفية التي لم تخلق ، وليس لها صوت مسموع ، وما أقربها اذن الى أن تخجل من ايذاءها وتندم على قسوتها وتثوب الى التوبة والخشوع ، وهما من لباب الدين

ان العرب يشفقون الرخصة من الرحم أو القرابة ، وهو اشتقاق عميق

(١) أي متسرع . (٢) أي تركه لسبيله . (٣) شجذ السكين : أحدها .

(٤) أي اشتعلت . (٥) طبيعة . (٦) مجاوزة القدر في كل شيء . (٧) أي

الرجوع .

المغزى يهدينا الى نشأة هذه الفضيلة الانسانية العالية ، ومودة عمر بن الخطاب لرحمه وذوى قرباه لا تنحصر دلائلها في رحمته لأخته الشاكية الثائرة . فان المرأة قد ترحم لضعفها في موقف شكواها ويأسها ولو كانت بعيدة الآصره^(١) منقطعة النسب . انما يدل على مودته لذوى قرباه ذلك الحب الذى كان يضره لأبيه بعد موته ، مع شدته عليه وغلظته في زجره وتأديبه .. فكان يطيل الحديث عنه ، وينقل أخباره ، ويقسم باسمه . وظل يقسم باسمه وهو كهل الى أن نهى المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية ..

وندر بين الناس من أحب اخوته كما كان عمر يحب أخاه زيدا في حياته وبعد مماته ، فما شاء أحد أن يكيه الا ذكره له ففاضت شروونه ، وجعل بعد قتله يتأسى بمن أصيب مثل مصابه ولا يرى أحدا فقد أخاه الا التمس الأسوة عنده

حكى أحمد بن عمران العبدى عن أبيه عن جده قال : « صليت مع عمر بن الخطاب الصبح .. فلما انقضى^(٢) من صلاته ، اذا هو برجل قصير أعور متنكبا قوسه، ويده هراوة فسأل : من هذا ؟.. فقيل : متمم بن نويرة . فاستنشد رثاءه لأخيه، فأنشده حتى بلغ الى قوله :

وكننا كندمانى جذيمة حقبسة^(٣)
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا^(٤)

فلما تفرقنا كآنى ومالكا

لطول افتراق لم نبت ليلة معا

فقال عمر : هذا والله التأين : يرحم الله زيد بن الخطاب !.. انى لأحسب أنى لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيتك كما بكيت أخاك . ثم سأله : ما أشد ما لقيت على أخيك من الحزن ؟.. فقال : كانت عيني هذه قد ذهبت، فبكيت بالصحيحة، فأكثرت البكاء، حتى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع . فقال عمر : ان هذا حزن شديد . ما يحزن هكذا أحد على هالك . قال متمم : لو قتل أخى يوم اليمامة كما قتل

(١) الاواصر : الروابط والعلائق . (٢) اي انصرف . (٣) العصا

الضخمة . (٤) مدة لا وقت لها ، وقيل سنة . (٥) يتفرقا .

أخوك ما بكيت أبدا . فصبر عمر ، وتعزى عن أخيه وقال : ما عزانى
أحد عنه بأحسن مما عزيتنى .. »
هذا هو عمر من وراء النقاب

فما كان أحوجه رضى الله عنه الى ذلك النقاب ، وما أقل الغرابة في
ذلك النقاب من الشدة والهيبة حين ينفذ الناظر الى ما وراءه فيرى مكان
الحاجة اليه .

وقد يرحم الرجل أهل الرحم والقربة، ويجفو غيرهم من الناس ، ولكن
الرحمة الأصلية في الطباع تسوى في المودة ولا تفرق ، وتخلق هي سبب
الرحمة ولا تنتظر حتى تفرضها عليها القربة بأسبابها ، فكان عمر كما
روى « الحسن » يذكر الصديق من أصدقائه بالليل فيقول : يا طولها من
ليلة ! . فإذا صلى الغداة غدا اليه . فإذا لقيه التزمه أو اعتنقه

وكان بكاء طفل يزعجه ويقطع عليه صلاته وينقص عليه ليلة
قدمت رفقة من التجار، فنزلوا المصلى فاقترح على عبد الرحمن
عوف أن يذهب ليحرساهم من السرقة ، ثم باتا يحرسان ويصليان . فسمع
بكاء صبي ، فتوجه نحوه وقال لأمه : اتقى الله، وأحسنى الى صبيك ..
ثم عاد الى مكانه فسمع بكاءه فرجع الى أمه كربة أخرى ، ثم سمع بكاءه .
آخر الليل، فقال لأمه : ويحك !.. انى لأراك أم سوء .. مالى أرى ابنك
لا يقر منى الليلة ؟.. قالت : يا عبد الله ! قد أبرمنى منى الليلة الى أربعة
عن الفطام فسألها : ولم ؟.. فقالت : لأن عمر لا يفرض الا للفطيم !..
فسألها وكم له ؟. فلما علم انها فطمته دون سن الفطام أمر مناديا
فنادى ألا تعجلوا صبيانكم عن الرضاع فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام
وقصته مع الصبية الجياع مشهورة ، ولكنها تعاد لأنها أحق قصة بأن
تعاد

قال اسلم : خرجنا مع عمر رضى الله عنه الى حرة واقم حتى اذا كنا
بصرار^(٨) اذا نار توثرت^(٩) فقال : يا اسلم انى أرى هاهنا ركباناً قصر بهم

(١) أي أصبح . (٢) يكدر . (٣) أي جماعة . (٤) أي مرة . (٥) أي لا
يهدأ ولا يسكن . (٦) أي أملني واضجرني . (٧) منطقة من نواحي المدينة .
(٨) مكان على مقربة من المدينة . (٩) ايقاد النار .

الليل والبرد .. انطلق بنا ! ..

« فخرجنا نهول^(١) حتى دنونا منهم ، فاذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة^(٢) على نار ، وصبياتها يتضاغون^(٣) . فقال عمر : السلام عليكم يا أهل الضوء . وكره أن يقول : يا أصحاب النار . فأجابته امرأة : وعليكم السلام !.. فقال : أأدنو^(٤)؟ .. فقلت : ادن بخير أو دع^(٥) .. فدنا منها فقال : ما بالكم ؟ .. قالت : قصر بنا الليل والبرد .. قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ .. قالت : الجوع !.. قال : وآى شيء فى هذه القدر ؟ .. قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا .. والله بيننا وبين عمر !.. فقال : أى رحمك الله ، وما يدري عمر بكم ؟ .. فقلت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟ .. فأقبل على فقال : انطلق بنا^(٦)

« فخرجنا نهول حتى أتينا دار الرقيق . فأخرج عدلا من دقيق وكبة من شحم !.. وقال : أحمله على !.. قلت : أنا أحمله عنك .. قال : انت تحمل وزرى يوم القيامة لا أم لك ! ..

«فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه اليها نهول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا فجعل يقول لها : ذرى على وأنا أحر لك^(٧) »
« وجعل ينفخ تحت القدر ، وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم ، ثم أنزلها، وأفرغ الحريرة فى صحفة^(٨) وهو يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم — أى أبرده !.. ولم يزل حتى شبعوا وهى تقول له : جزاك الله خيرا ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين » ..

وأمثال هذه القصة فى سيرة عمر كثير ، لا يقال، انها هى ومثيلاتها من الشعور بالتبعة وليست من الرحمة ، لأن العهد بالشعور بالتبعة أن يأتى من الرحمة ، وليس العهد بالرحمة أن تأتى من الشعور بالتبعة !..

كذلك لا يقال، انه قد كان يطيع أمرا سماويا تحركت له نفسه أو لم تتحرك ؛ فان النفس التى تتحرك للأمر السماوى هى النفس التى فيها

(١) نمشي بسرعة . (٢) أي موضوعة . (٣) يضجون من الجوع .

(٤) اقترب ؟ (٥) أي ابتعد واترك . (٦) أي كيسا . (٧) وهى الحساء من الدقيق المطبوخ باللبن أو الدسم . (٨) الصحفة كالقصعة .

الخير ولها رغبة فيه ، وقلما تشفق من عقاب السماء الا أن تشعر بالظلم
الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب

على ان عمر كان يرحم في أمور يحول فيها النفور الديني دون الرحمة
عند كثيرين ..

فمن ذلك انه رأى شيخا ضريرا يسأل على باب ، فلما علم انه يهودي
قال له : ما ألبأك الى ما أرى ؟.. قال : أسأل الجزية والحاجة والسن !
فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله . فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل
الى خازن بيت المال يقول : انظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفناه ان أكلنا
شبيبته^(١) ثم نخذله عند الهرم^(٢) . انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء
هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب.. ووضع^(٣) عنه الجزية
وعن ضربائه ..

فهنا علمته الرحمة كيف يطيع الدين ، ولن يطيع الدين هكذا الا رحيم

وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال ، كما فرض
لكل مولود من زوجين ، وهي رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته
في نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون

بل كان يرحم كل مخلوق حتى البهيمة الذي لا يبين^(٤) بشكايه ،
فروى المسيب بن دارم انه رآه يضرب رجلا ويلاحقه بالزجر لأنه يحمل
جمله ما لا يطيق ..

وكان يدخل يده في عقرة البعير^(٥) ليدأويه وهو يقول : اني
لخائف أن أسأل عما بك . ومن كلامه في هذا المعنى : لو مات جدى^(٦)
بطف الفرات لخشيت أن يحاسب به الله عمر

وانه لشعور بالتبعة عظيم

لكنه كما أسلفنا لن ينبت في قلب كل أمير عليه تبعة ، الا أن يكون
به منبت للرحمة عظيم

فنحن اذن بازاء صفة كبيرة الى جانب صفة كبيرة : الرحمة الى جانب

(١) أي كفيف البصر . (٢) أشباهه وأمثاله . (٣) وقت شبابه .

(٤) شيخوخته وعجزه . (٥) أي أعفاه . (٦) لا يفصح . (٧) الجرح ، وأثر

كالحز في قوائم الفرس والابل . (٨) المجروح . (٩) الذكر من اولاد المعز .

العدل ، وكناتهما من البروز^(١) والوثاقة وعمق القرار بمثابة العنوان الذي يدل على صاحبه ، أو بمثابة العنصر الأصيل الذي يلازمه ويلبسه ولا يفارقه في جملة أعماله

ومن خصائص عمر أنه كان على هذا الشأن في جميع صفاته المشهورة ، خلافا للمعهود في الصفات الغالبة بين الناس من المحامد كانت أو العيوب . اذ قلما يوسم انسان بأكثر من صفة غالبية بهذه المثابة من التأصل والبروز . فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن أو وثيق الايمان ، ثم تغطي^(٢) احدى هذه الصفات على سائرهما فلا تعطيهما الى جانبها مكانة رسوخ واستقرار وعلى غير هذا العهد ، كان عمر في جميع صفاته الكبيرة التي ذكرناها ، فكانت كل صفة منها في قوتها ورسوخها تكفي للغلبة على شخصية تنسجم بها ولا تذكر بغيرها ، وأنه ليتصف بها فتأخذ من سماته ومعامله ما يخصصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة في أبناء جلدته جميعا ، فيخيل اليك انها سمة مميزة له لم توجد في غيره

فأحرار العرب كلهم غيور . ولكنك اذا قلت : « العربي الغيور » فكأنما سميت عمر بن الخطاب ، لأنه طبع هذه الصفة القومية بطابعه الذي لا يشبهه فيه غيره ، فكان الغيور بين الغيورين قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام : « ان الله غيور يحب الغيور . وان عمر غيور »

وتحدث الى صحبه يوما وعمر فيهم فقال : « بينا أنا نائم رأيتني في الجنة ، فاذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر . فقلت : لمن هذا القصر ؟ .. فقالوا : لعمر .. فذكرت غيرته فوليت مدبرا » فبكى عمر ، وقال كالمعتذر : « أعليك^(٣) أغار يا رسول الله ؟ .. »

وكانت هذه الغيرة معروفة مخشية بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطباعه ، والنساء من باب أولى يعرفنها ويعهدنها ويتقينها كما لم يتقينها قط من غيره ..

استأذن على النبي يوما وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه

(١) أي الظهور . (٢) رسوخ : أي نبات .

عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يتدرن الحجاب^(١)
فدخل والنبي يضحك ..

قال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ... كأنه يسأله عن
سبب ضحكك . فقال عليه السلام : عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي
لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب

قال عمر : فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يتهنن .. ثم التفت اليهن
يقول : أى عدوات أنفسهن .. أتهنننى ولا تهن رسول الله صلى الله
عليه وسلم ؟ ..

قلن — ولا يخذل المرأة لسانها فى هذا المقام : نعم أنت أغلظ وأفظ
من رسول الله !

وحسبك من غيرته انه هو الذى أشار على النبي صلى الله عليه وسلم
بحجاب أمهات المسلمين ، وكان يرى احداهن فى الظلام ذاهبة لبعض
شأنها فيقول لها : عرفتك يا فلانة !.. ليبرها انها فى حاجة الى مزيد من
التحجب .. وقد ضجرت احداهن منه لهذا فقالت له : وانك علينا يا ابن
الخطاب والوحي ينزل فى بيوتنا ؟

على أن الغيرة فى ابن الخطاب لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفى ،
بل غيخته على المرأة لم تكن الا شطرا من غيخته على كل حرم وحوزة^(٢) .
فمن هذه الغيرة العامة سياسته العربية التى كانت تصد الغرباء عن جزيرة
العرب كأنها الحرم الموصد^(٣) ، ومنها غيخته على الزى العربى والشمال
العربية ، ومنها غيخته على العقيدة وحدود الشريعة ، وغيخته على كل حق
يحميه غيور ..

والأحاديث عنه فى هذه الخصلة تتعدّد فى معارض شتى ، كما تعددت
أحاديث عدله ورحمته وكل صفة بارزة فيه ، فشأن هذه الصفات أن
يظهرون أبدا حيث ظهر له قول أو عمل ، لأنهن أصيالات مطبوعات يختلطن
بكل ما عمل وقال .

الا أنك تقرأها جميعا فتخرج منها بأثر واحد لا اختلاف فيه

(١) أى أسرع الى وضع الحجاب . (٢) أى اغتاطت . (٣) الحرم
والحوزة : كل ما تجب حمايته . (٤) المعلق .

ذلك أن عمر كان يفار على حق ، ولا يفار من أحد ، ولا ينفس^(١) على ذى نعمة ..

فاذا قيل لك : ان عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل : ممن كانت غيرته ؟ .. وانما يخطر لك أن تسأل في كل مرة : علام غار ؟ .. ولأى شىء كان يفار ؟

فهو يفار على حق ، أو يفار على عرض ، أو يفار على دين أو يفار على صديق أو صاحب حرمة ، ولا يفار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها هذا أو ذاك ..

انما كان يفار على شىء يحميه ، ويعلم من نفسه القدرة على حمايته ، فهي غيرة من يريد الحماية لغيره ، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه ، أو غلبة انسان على حظه ..

رجل قوى ، جياش الطبع ، شديد الشكيمة ، مؤمن بالحق وحرماته ، قادر على تهويم من يحيد عنها ، ويجترى عليها .. فان لم يكن هذا غيورا ، فمن يكون الغيور ؟ ..^(٢)

وقل في ذكائه وفطنته وألمعية ذهنه : ما تقول فيما اشتهر به من صفات العدل والرحمة والغيرة ، وان كانت هذه الصفة أحوج منهن الى الشرح والتحليل ..

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه ، قد عرضوا الأمر تفكيره ، فوصفوه بأنه محدود التفكير ، أو انه يأخذ الأمور بقياس واحد ..

ونحن لا نقول ان عمر رضى الله عنه خلق بذهن عالم بحائنه متقطع^(٣) للكشف والتنقيب ، ولا انه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر في مناحى الظنون والفروض ، ولا انه خلق بذهن منطيق^(٤) يدور بين الاقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين ، فالواقع انه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه ، وأنه كان معنيا بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير ، ولكن الفرق بعيد بين هذا وبين الفكر المحدود ، والنظر الذى يقيس الأمور بقياس واحد

(١) أي يحسد ويحقد . (٢) يميل ويعدل . (٣) المتوقد الذكاء .

(٤) صيغة مبالغة في البحث . (٥) البليغ ، والمقصود هنا : البليغ في علم المنطق .

فعمر كانت له فطنة الرجل العليم بنقائص الأخلاق وخبايا النفوس ، ولم يحكم عليها قط كأنه ينظر إليها من جانب واحد أو يطبعها في تفكيره بطابع واحد ، بل علم الدنيا وعلم كيف يتقلب الانسان ، وراح في علمه هذا يراقب الناس مراقبة الحذور ، وقيم عليهم الارصاد^(١) اقامة الرجل الذي لا يفوته أن ينتظر منهم ما ينتظر من خير وشر، وقوة وضعف وصلاح وفساد ..

وكفى من كلماته الدالة عليه، أن تذكر أنه كان يجب أن يعرف الشر كما يعرف الخير ، لأن « الذي لا يعرف الشر أخرى أن يقع فيه » وأنه كان يجب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب حيث يقول : « أعقل الناس أعذرهم للناس » وأنه هو القائل : « احترسوا من الناس بسوء الظن » وهو القائل مع ذلك : « أظهروا لنا حسن أخلاقكم ، والله أعلم بالسرائر » ... يوفق في هذين القولين بين سحر الحاكم الذي لا ينبغي أن تخفى عليه خافية، وبين عدل القاضي الذي لا ينبغي أن يحكم بغير بيثة ظاهرة ..

بل لو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر الى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد ، وأن للأمور وجوها لا تنحصر في الوجه الذي يراه ، وكثيرا ما قال : « أخوف ما أخاف عليكم اعجاب المرء برأيه » ، وليس استطلاع الآراء ولا الخوف من الاعجاب بالرأى شيمة رجل محصور^(٢) التفكير ضيق المنافذ الى الحقيقة

وقد عاشره أناس من الدهاة فخبروه وحذروه !.. قال المغيرة بن شعبة لعمر بن العاص : « أنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئا فيلقنه^(٣) عنك ؟.. والله ما رأيت عمر مستخليا بأحد الا رحمة كائنا من كان ذلك الرجل . كان عمر والله أعقل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع^(٤) .. »
انما كان عمر كما وصف نفسه : « ليس بالخب^(٥) ولكن الخب لا يخدعه » وهذا هو الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود

(١) كالفهم . (٢) الذين يراقبون حركاتهم . (٣) الخلق . (٤) أي محدود . (٥) أي يفهمه . (٦) ختله وأراد به المكروه . (٧) الرجل الخداع .

والدهاء المذموم ، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح ، فهناك فطنة تسيء الظن لأنها تعرف الشرور التي في طبائع الناس ، وفطنة تسيء للظن لأنها تشعر شعور السوء ، والفرق بينهما عظيم كالفرق بين الخير والشر والمحمدة والمذمة . فالفطنة الأولى معرفة حسنة والفطنة الثانية خلق رديء ، وانما كان عمر بالفطنة الأولى معصوماً من أن يخدع أو ينخدع لغيره ، وهذا هو الحد القوام الذي لا نقص فيه من جانبه

وكانت له في استحياء الخفايا قدرة تقرب من مكاشفة الغيب لولا أنها تستند الى التقدير الصحيح والظن المدعوم^(١) بالخبرة ، وحكاية واحدة من هذا القبيل تغني عن حكايات ، وهي حكايته مع المغيرة الذي استكثر على عمرو بن العاص أن يوحى الى عمر بمراده ويتداهى عليه

فقد همَّ عمر رضى الله عنه بأن يعزل المغيرة عن العراق ، ويولى جبير ابن مطعم مكانه ، وأوصى جبيراً أن يكتنم ذلك ويتجهز للسفر . فأحس المغيرة وسأل جليسا له أن يدس امرأته وهي مشهورة بلقط الأخبار حتى سميت « لقطة الحصا » لتستطلع النبا من بيت جبير . وذهبت الى بيته فاذا امرأته تصلح أمره ، فسألتها : الى أين يخرج زوجك ؟.. قالت : الى العرة !.. قالت لقطة الحصا : بل كنمك^(٢) ، ولو كانت لك عنده منزلة لأطلعك على أمره !.. فجلست امرأة جبير متغضبة، ودخل عليها وهي كذلك ، فلم تزل حتى أخبرها، وأخبرت لقطة الحصا ، وذهب المغيرة الى عمر ففاته بما علم وهو يقول له : بارك الله لأمر المؤمنين في رأيته وتوليته جبيراً !.. فلم يوجب عمر من وقوفه على السر، بل قال : كأنى بك يا مغيرة قد فعلت كيت وكيت — كأنما سمع ورأى — وأنشدك الله^(٣) هل كان كذلك ؟.. قال المغيرة : اللهم نعم . ثم صعد عمر الى المنبر ونادى في الناس : أيها الناس !.. من يدلنى على المخلط^(٤) المزيل^(٥) النسيج^(٦) وحده ؟.. فقام المغيرة فقال : ما يعرف ذلك في أمتك أحد غيرك !.. فأبقاه على ولايته، ولم يزل واليه على العراق حتى مات

وانما كانت مجاراته للدهاية من هذا القبيل، أعجاباً بحصافته^(٧)، لا انخداعاً

(١) أي المستند الى الخبرة . (٢) أي يجعلها تتجسس لجمع الاخبار

(٣) أي أخفى عنك أمره . (٤) أي أسألك بالله . (٥) من يخالط الامور

(٦) الرجل الكيس اللطيف . (٧) أي لا نظير له في العلم وغيره .

بمكره . وقد يتعابى ويعمل ما يريده المتساهى عليه، لأنه أدرك مرمى كلامه، وفهم ما فيه من صواب ، كما صنع مع عمرو بن العاص في خطبة أم كلثوم بنت على رضى الله عنهما ... وسيأتى الكلام عنها في فصل تال على ان القدرة الذهنية التى امتاز بها عمر، في غنى عن الاستدلال عليها بما قال ، وما قيل فيه ، وما دار بينه وبين بعض القوم من المساجلات^(١) والمحاورات . انه عمل ما لم يعمله الا القليل من أقدر الحكام في تاريخ بنى الانسان ، وكفى بذلك دليلا على قدرته الذهنية لا حاجة بعده الى دليل : ساس شعوبا بينها من الاختلاف مثل ما بين العرب والفرس وبين الفرس والقبط والسوريين ، ونصب^(٢) ولاية، وانتدب قوادا، وسيّر بعونا وأشرف على ميادين قتال، وأقام نظما في الحكومة، وراقب رعاة ورعية فيما يعلنون وما يبتنون ، ونجح في كل ما عمل نجاحا منقطع النظير، غير مردود الى المصادفة ولا الى ارتجال المغامرين ، وليس هذا كله مما يضطلع به رجل محدود الفكر، ضيق الأفق، قليل الخبرة بالجماعات والأفراد . فاذا استوفى هذا الحظ الوافى من القدرة الذهنية ، فذلك حسن به منها ، وحسن كل من تصدى لمثل عمله، ونهض بمثل وقفه^(٣) . ولا عليه بعد ذلك أنه لم يفكر على نمط الفلاسفة وأقطاب العلم وأساطين المنطق والرياضة ، فان الدنيا لم تخرج لنا عمر لتزيدنا أفلاطون، آخر أو اقليدس ثانيا أو «فاراداي» سابقا في الزمن القديم ، بل أخرجه للناس ليكون مؤسس عهد، ومحول تاريخ ، فاذا تأدى به عقله الى تلك الغاية فهو العقل الصائب يفكر على النحو الذى خلق له ويبلغ القصد الذى رمى اليه ، وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيره وأن نسلكه بين قرناؤه وأنداده ..

انما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين، الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدة ، وهى ناحية العدل الذى لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ، والقضاء الذى يكيل الجزاء دقة بدقة، ولا يبالى بالتناقض والمفارقات ..

(١) أي هدفه . (٢) هما يتساجلان : أي يتباريان . (٣) أي أقام . (٤) أي يقوم . (٥) الوقر : الحمل . (٦) أي نسق وطريقة .

ونظروا الى جملة آرائه في المسائل الجلى^(١) فاذا هي من الآراء التي يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق الى غرض مائل لا تنحرف عنه قيد شعرة^(٢).. كأنه قد جهل ما في الدنيا من قنائض وخفايا ومن عوج وتعرج ، أو كأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه الى هدفه المحدود، ولا يلتفت الى شيء في تقاذه أو يعوقه عائق^(٣) دونه

فخطر لهم أن فطنته انما كانت فطنة فراسة فطرية كالغريزة التي تهتدى على استقامة واحدة ، ولكنها لا تنحرف ولا تتصرف ولا تخالف ما جبلت^(٤) عليه .. وانها فطنة العقل المحدود ، والبصر الموكل بجانب واحد ، ينفذ فيه، ولا يحيط به، أو يتشعب في نواحيه

والفكر المحدود هنا هو فكر أولئك المستشرقين، لا فكر عمر بن الخطاب ..

فالرجل الذي يستقيم على وجه واحد لا يحيد عنه ، هو واحد من رجلين :

فأما رجل يستقيم على هذا الوجه؛ لأنه لا يرى غيره ، ولا يحيط بما حوله ..

وأما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه قادر على اختراق العقبات عالم انها تنثنى^(٥) اليه حيث كان دون أن ينثنى اليها حيث كانت واستقامة عمر بن الخطاب على وجهه من هذا القبيل وليست من ذلك القبيل :

هي استقامة قدرة وليست باستقامة عجز ، وهي استقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجور^(٦) مقيد ، يأبى أن يدور، لأنه قد أعياه أن يدور ..

هي استقامة حياة غلبة ، وليست باستقامة أداة كالموازين، تسوى بين التبر^(٧) والتراب، لأنها لا تميز بين التبر والتراب

فالرجل الذي يجتنب التصرف في العدل ، عجزا عن الفهم، والتزاما للحرف المكتوب ، ونزولا الى مرتبة الموازين التي لا تمى^(٨) ولا تغضب

(١) العظمى . (٢) أي قائم وواضح . (٣) أي قدر شعرة . (٤) مانع . (٥) طبع . (٦) أي تميل . (٧) حجر القاضي عليه : منعه من التصرف . (٨) الذهب . (٩) أي لا تفهم ولا تعقل .

ولا تفار، انما هو آلة فقيرة في مادة الحياة .

أما الذى يجتنب التصرف فى العدل، غيرة على الضيف، وقدرة على القوى ، وعلمًا بالتبعة واضطلاعا بجرائرها^(١)، فذلك حتى غنى بالحياة يعدل لفرط السليقة الانسانية والقدرة الحيوية ، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذى لاحس فيه ..

وشتان بين هذا وذلك .. انهما لتقيضان، وان كانا فى ظاهر الأمر شبيهين متقاربين ..

والاعتماد على الأمثلة الخاصة أولى بنا فى هذا المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقارير النظرية

فهذه أمثلة ثلاثة من أمثلة العدل، الذى يبدو لأول وهلة كأنه عدل الموازين الآلية حين تسوى بين الأوزان، وان اختلفت القيم والأقدار ، وتفصل فى الانصاء بغير نظر الى فوارق الدنيا، ومقتضيات السياسة وتبدل الأحوال .. ونختارها من أجهر^(٢) الأمثلة، وأدناها الى تأييد شبهات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود ؛ لنرى على قدر ضخامة هذه الأمثلة ضخامة الخطأ فى استخراج ما تدل عليه

كان عمرو بن العاص واليا لمصر، وكان ابنه يجرى الخيل فى ميدان السباق ، فنازعه بعض المصريين السبق، واختلفا بينهما لمن يكون الفرس السابق ؟ وغضب ابن الوالى فضرب المصرى وهو يقول : أنا ابن الاكرمين ، فاستدعى عمر الوالى وابنه حين رفع اليه المصرى أمره ، ونادى بالمصرى فى جمع من الناس أن يضرب خصمه قائلا له : اضرب ابن الاكرمين ! .. ثم أمره أن يضرب الوالى لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس الا بسلطانه ، وصاح بالوالى مغضبا : بم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ .. فما نجا من يده الا برضى من صاحب الشكوى واعتذار مقبول

وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الاسلام فى زمانه ، فأحصى عليه عمر بعض المآخذ ومنها اتفاقه من بيت المال فى غير ما يرضاه . فأمر به أن

(١) الجريرة : الذنب والجناية ، والمراد هنا : الاعباء . (٢) ارتفاع

الصوت ، والمراد هنا : الوضوح .

يحاكم في مجلس عام، كما يحاكم أصغر الجند ، وعزله بعد مقاسته فيما يملك من نقد ومتاع ..

وكان جبلة بن الأيهم أميراً نصرانياً فأسلم وأسلمت معه طائفة من قومه . ثم وطئ اعرابي أزاره فلطمه جبلة على ملا^(١) من حجاج بيت الله . فقضى عمر للأعرابي أن يلطم الأمير على ذلك الملا ، لأن الاسلام لا يفرق بين سوقه^(٢) وأمير ..

هذه أمثلة العدل الذي لا يتصرف، ولا يلتفت الى الدنيا وما فيها من فوارق وتمريجات تتأبى على القصاص المستقيم ، وهى من أقوى الشبهات على النظر المحدود في تقدير الجزاء بالحرف المكتوب ، دون التفات الى الأحوال والمقتضيات ..

فهل هى في الواقع كذلك ؟ .. وهل كان على عمر أن « يتصرف » في هذه الاقضية بلباقة الساسة الدهاة في جميع الأزمان، اذ يحتالون على حرف^(٣) الشريعة، ويدورون حول حدود القانون ؟ ..

نعم كان عليه ذلك لو عجز عن سنّة المساواة واحتاج الى الحيلة .. فانما يعاب على الوالى عدل الموازين ويحمد منه التصرف والدوران لأن المساواة تميمه ، أو لأن المساواة تمرضه لعاقبة شر وأظلم من الاجحاف ، فاذا نظر الى عاقبة المساواة في المعاملة، فرآها شراً وأظلم من عاقبة التفرقة والتمييز فقد وجب عليه اذن أن يدور حول الحقيقة وألا يواجهها نصاً بغير انحراف ..

ولكن أين هذا من عمر، وأين عمر من هذا ؟ .. انه كان قويا قادرا على العواقب ، وكان شديد الألم من ظلم الظالم، شديد الخجل من خذلان^(٤) المظلوم ، وكان وثيق الايمان بنصر الله في الحق وفي النجدة . فلماذا ينحرف ؟ .. ولماذا يتصرف ؟ .. ولماذا يدور ؟ ..

كان قويا بطبعه قويا بايمانه ، فلماذا يهاب قويا جار على ضعيف ؟ .. ولماذا يروغ من صرامة القاضي الى دهاء السياسى الذى يدور حول الحقوق والحدود ؟ ..

(١) أي جمع . (٢) عامة الناس . (٣) نصوص الشريعة . (٤) ترك

عونه ونصرته .

للمستشرقين المتحدثين بالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكبار
الولاة ويشتوا به كل ما قالوه عن ذلك التفكير المحدود، الذي ينسى
الفوارق، ولا يحتال على المحظورات ، ولكن بشرط واحد :

ذلك الشرط هو أن يتوقعوا ، ولو من بعيد ، أن يشور ابن العاص
ونظراؤه على هذا القصاص ، فيختل حكم الدولة، وينتشر الأمر على
الخليفة، ويقع من المحظور أضعاف ما كان واقعا لو بطلت المساواة بين
السوقة والولاة ..

اما أن يكون ابن العاص ونظراؤه لا يشورون ، ويعلمون من هو عمر،
وما هي عقابهم^(١) اذا ثاروا عليه

واما أن يكون عمر لا يخشى تلك الثورة ولا يعي بها اذا هي فاجأته
أو جاءته على انتظار

واما أن يكون الأمر في ضميره وفي ضمائرهم يجرى على البديهة التي
لا خفاء بها ولا شك فيها ، فكيف يقال اذن أن تفكير عمر في قصاص
الولاة كبارا وصغارا تفكير محدود ؟ .. وأين هو في هذه الحالة موضع
التفكير المحدود ؟ ..

انه في موضع واحد ، وهو كما أسلفنا موضع الناقد الذي يصف عمر
بغير وصفه ، لأنه هو محدود الفكر في قياس الرجال بمقياس واحد ، أو
في اعتقاده ان الخطوب^(٢) تبقى كما هي ولا تتغير كلما تغيرت عليها أيدي
الرجال ..

لقد كان عمرو بن العاص خطرا على الخليفة الذي يفض منه لو كان
غير عمر ، ولكنه هو والذين كانوا أجراً منه على الفتك وأسرع منه الى
الغضب ، لم يكن لهم من خطر اذا كان عمر هو الذي أمر بالعزل وهو
الذي قضى بالقصاص

فأجراً منه ولا ريب كان خالد بن الوليد ، وأشهر منه بين سيوف
الاسلام لو عمد الى السيف ، ومع هذا قتم^(٣) خالد عزله، فخطب الناس
ومضى يقول : « ان أمير المؤمنين استملني على الشام، حتى اذا كانت

(١) أي مآلهم ومصيرهم . (٢) الامور . (٣) غرض منه : وضع ونقص من

قدره . (٤) قتم الامر : كرهه .

بشيء - أى حنطة - وعسلا عزلنى وأثر بها غيرى » ، فما أتمها حتى نهض^(١) له رجل من السامعين فقال له : صبرا أيها الأمير فانها الفتنة ، فما تردد خالد أن قال : أما وابن الخطاب حى فلا ..

نعم لا فتنة وابن الخطاب حى ولو كان الغاضب خالدا الغضوب ، ومن هنا حق له أن يشكو ولا جناح^(٢) عليه

وأطرف من هذا فى هبة عمر بين ولاته وقواده أنه كتب الى أبى عبيدة يأمره أن يقاسم خالدا ماله نصفين . فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : ان هذا لا يصلح الا بهذا ... فأبى خالد أن يخالف أمر عمر وأعطاه احدهما وأخذ الاخرى

لقد نظرنا الى عمر مستقيما ولم ننظر الى الخطوب ، ولو نظرنا اليها رأينا أنها اثنت لتتقاد له وتتقى مصادمته وتستقيم على منهاجه . فعلمنا لم استقام دون أن يقدح^(٣) ذلك فى صدق نظره الى الدنيا وصدق فراسته فى خلائق الناس ..

وندع قضايا الولاة، وننظر فى قضية الأمير، الذى ارتد عن الاسلام هو وقومه لأن عمر أجبره على قصاص المساواة بينه وبين رجل من السوق فماذا كان ينبغى أن يفعل عمر غير ما فعل من المساواة الصادقة بين الأمير الضارب وخصمه المضروب ؟ ..

لعل داهية من دهاه السياسة، الذين يصفون أنفسهم بالنظر البعيد كان يؤثر ارضاء الأمير واستبقاء أتباعه فى الاسلام، والاحتيال على الشاكى بما يواسيه ويفنيه عن أن يسوى بين الخصمين ، ويمكن لضعيف من ضرب أمير اعتدى عليه

فهل معنى ذلك : أن عمر كان يعوزه^(٤) دهاء أولئك الساسة، وما عندهم من بعد نظر مزعوم ؟ ..

كلا .. بل معناه أن أولئك الساسة يعوزهم السخط على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والايمان بمناعة الاسلام أن يصيبه غضب أمير صابى^(٥) بما يضيره ، ولو كثر أتباعه والصائبون فى ركابه ..

(١) أى قام . (٢) اثم . (٣) أى يطعن . (٤) أى عظماء . (٥) أى يفتقر ويحتاج . (٦) هو من ترك دينه الى دين آخر .

معناه: انهم احتاجوا الى التصرف وعمر لم يحتج اليه

وها هي ذى السنون قد مضت وتلتها الاحقاب والقرون فبدا لنا اليوم ان النظر البعيد والعدل الشديد في هذه القضية يلتقيان ، وان عمر كان أحسن المتصرفين فيها لأنه اجتنب التصرف الذى يهواه الدهاة ، فقد أفاد الاسلام ما لم يفد بقاء جبلة وأتباعه على دينه ، ووقاه ضرا أضخم وأوخم^(١) من نكوص^(٢) أولئك الصابئين عنه : أفاده ثقة أهله بأقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء الى كنفه^(٣) ورهبة الأقوياء من بأسه ، وسمعته في الدنيا برعاية الحق وانجاز الوعد وتصديق معنى الدين ، ولا معنى له ان كان أضعف بأسا من أمير وجب العقاب عليه .

ويجوز أن الفاروق لم ينظر الى عواقب القرون كما تنظر اليها الآن ، بعد أن برزت من حيز الفرض الى حيز العيان .. غير أن الأمر الذى لا يجوز فى اعتقادنا أنه عدل فى قضية جبلة ونظائرها عدل آلة أو عدل ميزان . ان الميزان لأقل من مخلوق له حياة ، أما الفاروق فى هذه القضية فقد كان أكبر من الحياة الثانية ، كان بطلا يؤمن ويعمل بإيمانه ، وهكذا يعلو الانسان ببطولة الايمان .

والعبرة التى نخرج بها من هذا أن النظرة الأولى فى أخلاق عمر بن الخطاب حسنة ولكن النظرة الثانية هى على الأغلب الأعم أحسن من الأولى ..

فالنقادون الأوروبيون الذين فسروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق، والفكر المحدود، لم يفهموه ولم ينصفوه ، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادة فى القدرة، وليس بنقص فى الفطنة ، أو انه زيادة فى قوة الثقة وقوة الايمان وليس بنقص فى العلم والبداهة ، ولم يكن عسيرا عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وترثوا فى حكمهم ، لأن قوة الثقة وقوة الايمان لا تخفيان فى خلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله ، ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل اقدام، وبكل احجام . فكان يقدم على أعظم الخطوب، ويحجم عن أهون الهينات، تخرجاً منها

(١) أي سيء العاقبة . (٢) نكوصهم : ارتدادهم ورجوعهم عن الاسلام .

(٣) أي جانبه .

وتزها عنها ، اذا اقتضى ذلك وازع من قوة الايمان فلم يكن يمضى قدما لأنه يغفل عما حوله من النواتي^(١) والمنرجات والسدود ، بل كان يمضى بينها قدما لأنه لا يباليها، ويؤمن أصمدق الايمان أنها تنشى له اذا مضى فيها ، فلا حاجة به أن ينشى اليها انه ليعلم العوج ولكنه يعلم أنه أقدر منه ، لأنه يؤمن بحقه ايمان التقوى الوثيق ، فله من قوته ومن ايمانه قدرتان

انه ليرفع العباء الى كاهله وهو قائم لا يطأطأ للنهوض به ، فليس الفارق بينه وبين غيره أنه يجهل العباء الذى يعرفونه ، أو ينسى العواقب التى يذكرونها ، أو يتحلل من المصاعب التى يتخرجون منها .. كلا !! .. انما الفرق بينه وبينهم أنهم ينشئون للخطوب ، وان الخطوب هى التى تنشى اليه ..

هذه القوة فى ايمانه كانت هى المسيطر الأكبر على كل خلق من أخلاقه ، وكل رأى من آرائه ، بل كانت هى المسيطر الأكبر على ما هو أصعب مقادا من الأخلاق والآراء ، وأشد عراما من العقائد والشبهات ، وهى دوافع الطبع وسورات الغريزة ، وقلما خلا منها طبع قوى عزوف^(٢) غيور ..

فالأفكار والأخلاق جانبان من جوانب النفس الانسانية قابلان للضوابط والقيود ، ولكن ما القول فى الدوافع والسورات ؟ .. مثل الفكر كمثل السفينة الطافية على وجه النهر ، لها شراع ولها سكان ، وعليهما معا رقيب من النواتية^(٣) والربان^(٤)

ومثل الخلق كمثل النهر المتدفق تحسه الشواطىء والقناطر ويفيض فى موعد ويعرف له مجرى : ويحسب له مقدار ولكن ما القول فى السيل العرم ؟ ..

ما القول فى السورة الجامعة التى ليست بفكر يسوس وپساس : ولا بخلق متميز بسماته وخصائصه ومراميه ؟ .. هنا تبدو لنا قوة الضوابط والقيود ..

(١) المرتفعات . (٢) عرام الجيش : حدتهم وشدتهم وكثرتهم ، والقرم : السيل الذى لا يطاق . (٣) عزفت نفسه عن الشيء : زهدت فيه ، وانصرفت عنه . (٤) الملاحون فى البحر . (٥) قائد السفينة .

وهنا أيضا كانت ضوابط الايمان القوى في نفس عمر كأقوى ما تكون ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به في الجاهلية أو الاسلام سورة أكبر من سورته يوم نعى النبي الى المسلمين ، فأنكر أن ينعى، وأبى أن يسمع صوتا بين المسلمين يزعم أن محمدا قد مات ، وصاح والناس في رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيم يومئذ على الرؤوس : « والله انى لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات » ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه ، فنزل فتمشى ويدا صامتا لا يكلم أحدا ، وتيمم^(١) النبي وهو مغشى^(٢) بالثوب ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبّله ، وبكى

ثم أحسّ صولة عمر وهو يكلم الناس ، فخرج إليهم فقال : اجلس يا عمر !.. وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء : « أما بعد ، فمن كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت ... وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن يسب على عقبه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين »

فأهوى عمر الى الأرض وأتاب

وكأنه والمسلمين معه ما علموا أن أنزلت هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة

يا لروعة الشلال الزاخر ! ..

ويا لروعة السابح القاهر الذي لوى به ليًا كأنما قبض منه على عرف ، وأخذ له بعنان ! ..

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لا يرينا صراعا عاتيا هو أولى بالروعة من نفس عمر وهي متراوحة بين شعوره الزاخر وإيمانه الوثيق لحظة هائلة من أهول^(٣) ما تحس النفوس ، ثم انهزام كأسرع ما يكون الانهزام ، وانتصار كأسرع ما يكون الانتصار ، وغاشية تتجلى^(٤) عن صاحب تلك النفس وهو مالك لزمانه ، ماض بشعوره الى حيث يمضي

(١) أي متأنيا متمهلا . (٢) قصده أو تقصده . (٣) أي مغشى .

(٤) أي مجاوزا للحد . (٥) أي أشد . (٦) أي تنكشف .

به ايمانه ، فهما قوتان غالبتان ، وليستا بعد بالعسكريين المتغالين
لقد كانت تلك سورته الكبرى ، ولكنها لم تكن أولى سوراته ولا
آخرها ..

فقد عهدت^(١) هذه السورات في طبعه حتى عرف من عهدوها كيف
يسوسونها ويتقونها ، وأوشكت أن تحسب في عداد الأنهار المحكومة
لا في عداد السيول الجارفة انطلقت من عقالها^(٢)

ذهب اليه بلال مستأذنا فقال له الخادم انه نائم ، فسأله : كيف تجدون
عمر ؟ .. قال خير الناس الا انه اذا غضب فهو أمر عظيم . قال بلال :
لو كنت عنده اذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه .. !
فهو الايمان ضابط كل شيء في تلك النفس حتى السورات التي ليس
لها ضابط في النفوس

أرقل انها هي النفس القوية في دفعاتها وفي ضوابطها على السواء
ورب نفس من ضعف الدفعة بحيث يطمعها أهون ضابط يسيطر عليها ،
فأما الدفعة التي لا يقف في طريقها الا ضابط أقوى منها فتلك هي الطبيعة
الحوية المضاعفة ، وليست هي الضعف الذي يتراجع لأهون مراجعة
نذكر هذا وينبغي أن نذكره ولا ننساه ، لأن الفرق بين الايمان الذي
يكبح الهزيل المنزوف^(٣) الحياة وبين الايمان الذي يكبح القوى الجياش
فرق عظيم ..

ولم يكن عمر معرضا عن زخارف الحياة لهزال كان في دواعي الحياة
فيه ، وانما كان معرضا عنها ؛ لأنه كان قادرا على الإعراض ، غير ممتحن
به في ارادة ولا عزيمة

وكان معرضا عنها لأنه صاحب حيوية غير الحيوية الجسدية الموكلة
بالسرور والمتاع

فمن الواجب اذا ذكرنا الحيوية وضعفها وقوتها أن نذكر أبدا أنها
حيويات متعددة وليست بحيوية واحدة

حيوية الروح ، وحيوية الخلق ، وحيوية الذوق ، وحيوية العقل ،

(١) أي عرفت . (٢) أي قيدها . (٣) يقهرها . (٤) نزع ماء البئر :
نزعها .

وحياة الجسد ، وغير ذلك كثير مما يتداخل بين هذه الحيويات
فليس من الضروري اذا رايت رجلا قليل الاشتهاء لمتعة الأجساد أن
تحكم عليه بضعف الحيوية ، فربما كانت له حيوية أخرى تملأ ألؤفا من
النفوس لا تجد متاعها في أكلة أو شهوة وتجد المتاع خير المتاع في احقاق
الحق ، وزجر الطغيان ، واقامة العدل والشرعة بين الناس ..

وهكذا كانت حيوية عمر فيما يريده وفيما يزهده فيه
لم تكن قلة الرغبة في زخارف الدنيا هى مقياس حيويته العظمى وانما
كان مقياس تلك الحيوية عظم الرغبة في الاصلاح والتقويم ، وفي اجراء
ما ينبغي أن يجرى . غير مبال ما يكلفه ذلك من جهد تتضاءل دونه جهود
الألوف من الموكلين بمتاع الأجساد ..

تلك صورة مجملية للصفات الخلقية الكبيرة التى كانت غالبية على نفس
عمر بن الخطاب ، وهى العدل ، والرحمة ، والغيرة ، والفطنة ، والايمان
وأول ما يلاحظ عليها تعدد الصفات الغالبة فى نفس واحدة ، وصفة
واحدة منها قد تغلب على النفس - وليست بصغيرة - فتنتعها بنعتها
ونستأثر بتمييزها والدلالة عليها

ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه
وتصطبغ بصبغته^(١) ، حتى كأنها لم تعهد فى غيره على شيوعها وكثرة
الموسوفين بسماحتها ..

الا أن هذا وذاك ليس بأعجب الملاحظات ولا أندرها فى هذا السياق ،
وانما العجب العاجب حقا هذا التركيب الذى ندر مثيله جدا بين خصائص
النفوس كائنا ما كان نصيب صاحبها من العظمة والامتياز

وأحرى بنا أن نقول « هذه التركيبية » ولا نقول هذا التركيب ، لأن
صفاته الكبيرة تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذى ينفع لغرض واحد
مفهوم ، والذى ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض
والاختلاط ..

(١) الصبغة : أى اللون .

إذا نظرت الى تلك الصفات أجزاء متفرقات فهي سهلة بسيطة ليس فيها شيء عويص^(١) أو مكتنف بغموض

ولكنك تنظر اليها مركبة متناسقة فيبدو لك منها جانب الدهشة والاعجاز ، أو جانب الندرة التي يعزّ تكررهما في طبائع النفوس ، لأنها تتركب لاستيفاء الغرض منها جميعاً واستيفاء الغرض في كل منها على حدة ، وهذا هو النادر جد الندرة في تركيب الأخلاق

ما العدل مثلاً بغير الرحمة التي تمزجه بالاحسان ؟.. وما العدل والرحمة معا بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظي التي تجعل كراهة المرء الظلم كأنها كراهة الضرر الذي يصيبه في نفسه وآله ، وتجعل حبّه للعدل كأنه حب هواه وقبله مناد ؟.. وما العدل والرحمة والغيرة جميعاً بغير فطنة تضع الأمور في مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يستحق ويفعل عن يستحق وهو حسن القصد غير متهم الضمير ؟.. وما العدل والرحمة والغيرة والفتنة بغير الايمان الذي هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع ، والمرجع الذي لا مرجع بعده لطالب الانصاف ؟..

كل صفة تمة لجميع الصفات ..

وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق. وخذلان الباطل وكل خليفة فهي جزء لا ينفصل من هذه « التركيبية » التي اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق ، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليفة منها على أتم قدرتها في بلوغ كمالها وتحقيق غايتها

فلا نقص في العدل كالنقص في كل عدل يعنى عن الطبيعة البشرية وبذهل عن ضعف الانسان

ولا نقص في الرحمة كالنقص في كل رحمة تجور مع الهوى ، ولا تدين بالمساواة ..

ولا نقص في الغيرة كالنقص في كل غيرة ظالمة قاسية كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح

(١) العويص من الشعر : ما يصعب استخراجاه .

ولا نقص في أولئك كله ، كالتقص في جميع الصفات بغير الفطنة التي تخرج بها من ظلام الى نور ، وبغير الايمان الذي يقف منها موقف الحارس الساهر والرقيب الأمين .

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدد في مرآها ، ولا تزال في صورة البساطة بعيدة عن التركيب ، فيخطيء النظر القصير في التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشيء البسيط المحدود ، وانه خطأ شائع ينساق اليه كثيرون ممن يستسهلون ساطة عمر ، وهى أولى بالروعة من تركيب يختلط من كل مزيج ، ثم يزيد في الألوان ولا يزيد في الاتمام والتوحيد والاتقان

ولو أن مخترعا من أهل القصص حاول أن يخترع سيرة عمر بن الخطاب لأعياء أن يخترع ذلك الشئ المتفرق من الأخبار والأحداث والنوادر ليقراه القارئ بعد ذلك ، فيقبل منه ما يقبل ، ويسقط منه ما يسقط ، ثم يبقى منه ما يدل أصدق الدلالة على كل صفة من تلك الصفات فلا اختراع في جملة أخبار عمر وان جاز الشك في بعضها أو جاز اسقاط الكثير منها ، ومن شاء فليشك في هذا الخبر أو ذاك ما بدا له الشك وليسقط منها ما بدا له الاسقاط ، فسيبقى بعد ذلك جميعه خبر يدل على عدله ولا سبيل الى نقضه ، وخبر يدل على رحمته ولا سبيل الى نقضه ، وخبر يدل على غيرته ولا سبيل الى نقضه ، وخبر يدل على فطنته ولا سبيل الى نقضه ، وخبر يدل على ايمانه ولا سبيل الى نقضه ، ويبقى ذلك التركيب المعجيب الذى هو موضع الاعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل في مصادر الأخبار

هذه هى المعضلة التى عيناها حين قلنا فى صدر هذا الفصل: ان سهولة عمر وخلو طبائعه من التعقيد والغموض هى سهولة أصعب من الصعوبة ، لأنها تنتهى بك الى صعوبة التركيبية التى هى أندر من التعقيد والغموض ، وتترك عناصر شتى قد تتناقض فى غير هذا التركيب ولكنها هنا لا تتناقض فى شيء ذى بال ، لأن التناقض: أن يذهب كل عنصر فى وجهة

معارضة لسائر الجهات ، فأما أن تكون كلها ذاهبة في وجهة واحدة
فذلك عنصر واحد متعدد الأجزاء والألوان

ولهذا كانت دراسة عمر غنية لكل علم يتصل بالحياة الانسانية كعلم
الأخلاق ، وعلم الاجتماع ، وعلم السياسة .. ولم تقتصر مزايا هذه
الدراسة على علم النفس وكفى

لأن كل نفس صغرت أو كبرت فهي انسان يضيف العلم به الى علم
النفس بعض الاضافة

ولكن ليست كل النفوس بالنفس التي تصحح أوهام الواهمين في
فضائل الأخلاق وفضائل الاجتماع ، وفي القدرة المثلى التي يقتدى بها
طلاب الرفعة والسيادة

ونحن في عصر شاعت فيه فلسفات مسهية تنكر الرحمة والعدل على
الأقوياء الفيورين ، وتحسبهما حيلة من حيل الطبع في خلائق الضعفاء
لاستدامة البقاء .. كأن رحمة الضعيف تنفعه اذا رحم ، وكأن عدل
الضعيف ينفعه اذا عدل ، أو كأن القوى يخلق نفسه لنفسه ولا يخلق
قوبا لتفيد قوته فائدتها في خدمة المحتاجين اليها^(١)

فعمز ذو البأس والعدل ، وعمر ذو الرحمة والغيرة : أصدق تفهيد
لذلك الوهم الأخرق البليد . اذ كانت رحمته وعدله لا يناقضان البأس
والغيرة فيه ، بل كان بأسه معوانا لرحمته وكانت غيrote معوانا لعدله .
وكان هو قويا لينتفع الناس بقوته ، ولم يكن قويا ليطغى بقوته على
الضعفاء .

ولم يكون لزاما أن يقسو ذو البأس ولا يرحم ؟ ..

ألا يقسو الضعيف ؟ .. فلم العجب اذن من رحمة القوى ؟ كل ما هنالك
أن رحمة الضعفاء غير رحمة الأقوياء . فأما العقل الذي يرى الرحمة
غريبة في الأقوياء ، ويرى القسوة غريبة في الضعفاء فهو يرى غير الواقع
من هؤلاء وهؤلاء . اذ الواقع في الدنيا أن القسوة لا تدل على القوة ،
وأن الرحمة لا تدل على الضعف ، وأن ليس في الدنيا أقسى من الأطفال

(١) أسهب : أي أكثر الكلام .

وهم أضعف من فيها من الضعفاء
وبغير امعان طويل في دقائق النفس الانسانية ، استطاعت امرأة محزونة
أن تفرّق بين الخصلتين وتجمع بينهما معا في عمر بن الخطاب ، ونعنى بها
عائكة بنت زيد حين قالت في رثائه :

رؤوف على الأدنى غليظ على العدى

أخى ثقة في النائبات منيب

وهي تفرقة سهلة ولكنها صادقة جامعة ، فغير عجيب أن يكون انسان
كذلك ، وانما هو أوفق شيء لطبائع الأشياء .

مفتاح شخصيته

مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التي تفتح لنا أبوابها وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشابه والأغراض ، فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب ، فإذا عاجلته بها فلا حصن ولا اغلاق !..

وليس مفتاح البيت وصفا له ولا تمثيلا لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها ، ولكنه أداة تنفذ بك الى دوائلها ، ولا تزيد

ولكل شخصية انسانية مفتاح صادق يسهل الوصول اليه أو يصعب على حسب اختلاف الشخصيات .. وهنا أيضا مقارنة في الشكل والغرض من مفاتيح البيوت .. فرب بيت شامخ^(١) عليه باب مكين^(٢) يعالجه مفتاح صغير ، ورب بيت ضئيل عليه باب مزعزع^(٣) يحار فيه كل مفتاح

فليست السهولة والصعوبة هنا معلقتين بالكبر والصغر ، ولا بالحسن والدمامة^(٤) ، ولا بالفضيلة والنقيصة .. فرب شخصية عظيمة سهلة المفتاح ، ورب شخصية هزيلة ومفتاحها خفي أو عسير ..

وقد يحيرنا الرجل الذي قيل في وصفه مثل ما قيل في ابن عباد :

لا تمدحني ابن عباد وان هطلت

يداه بالجود حتى شابهه الديما

فانها خطرات من وساوسه

يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

فاننا لا نستطيع أن تنفذ منه الى مواضع اللوم أو مواضع الثناء ،

-
- (١) أي مرتفع عال . (٢) أي قوي ثابت . (٣) أي غير مكين .
(٤) القبح . (٥) الديم : جمع ديمة ، وهي المطر الذي لا يصاحبه رعد ولا برق .

ولا ندري حقا عمله من الكرم أم من البخل، ومن الرفعة أم من الخسة ، ومن الشجاعة المحموده أم من الجبن المذموم ؟.. وغاية ما تنتهى اليه أن نفض^(١) المشكلة بكلمة واحدة هي الوسواس ، وهي حيلة تلجأ اليها قلة الطيلة ، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا في تقدير صاحبها وتقدير أعماله وأخلاقه ، ولكنه تفسير له معنى واحد في النهاية : وهو ترك التفسير ..

قد تحيرنا هذه الشخصية المنقوصة، ولا تحيرنا الشخصية الكاملة التي تروعا بفضائلها ومزاياها ، ثم لا نستغرب منها فضيلة أو مزية بالقياس الى انتظام عملها، واتصال أثرها، كالشمس الطالعة تروعا^(٢) بأشراقها في أوقاتها وبروجها ، ثم لا تحيرنا لمحة عين كما تحيرنا الذبالة الضئيلة تومض^(٣) لحظة وتختفى من بعيد

وفي اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحا لمن يبحث عنه ، فليس فيها باب معضل^(٤) الفتح وان اشتملت على أبواب سخام ..

وقد ذكرنا في الفصل السابق ان ايمان عمر هو الضابط الذى يسيطر على أخلاقه وأفكاره كما يسيطر على دوافعه وسوراته ، ولكن الذى نريده بمفتاح الشخصية شيء آخر غير معرفة الضابط الذى يسيطر عليها : نريد به السمة^(٥) التى تميزه بين العظماء حتى فى الايمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسورات ، فان الايمان ليقوى فى نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهد باختلاف تلك النفوس ، وهنا نبحت عن « مفتاح الشخصية » لنعرف به انفارق بين الايمان فى طبيعة عمر وبين الايمان فى طبائع غيره من الأقوياء

والذى نراد أن « طبيعة الجندي » فى صفتها المثلى هي أصدق مفتاح « للشخصية العمرية » فى جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم فأهم الخصائص التى تتجمع « لطبيعة الجندي » فى صفتها المثلى الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف والنجدة

(١) أي نهيتها ونزيلها . (٢) الفتيلة . (٣) ومض البرق : لمع لمعاخفيا .

(٤) أي صعب . (٥) العلامة .

والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والايمان بالحق وحب الانجاز
في حدود التبعات أو المسئوليات

هذه الخصائص قد تجمعت بعد ألوف المنين من تجارب الأمم في
تعبئة الجيوش حتى عرف الناس أخيرا أنها لازمة للجندى في أمثل حالانه .
فما من خاصة منها يستغنى عنها الجندى الكامل الذى تحلى بأجمل
صفاته وألزمها لتحقيق وجوده ..

فانظر الى هذه الخصائص جميعها ، هل تجدك محتاجا الى تعمل أو
استقصاء لجميع أشتاتها والاهتداء الى شواهدا ومواقعها ؟ ..

كل هذه الخصائص عمرية لا شك فيها . فهو الشجاع ، الحازم ،
الصريح ، الخشن ، المطيع ، الفيور على الشرف ، السريع النجدة ، المحب
للنظام ، المؤمن بالواجب والحق ، الموكل بالانجاز ، العارف بالتبعات
والمسئوليات ..

هذه الخصائص واضحة كلها في عمر ، وعمر وحده واضح بين أمثاله
في جميع هذه الخصائص ، حتى ليخيل لنا لو أن أحدا مولما بتأليف
الألغاز سأل عن عظيم في الاسلام والعروبة متصف بجميع هذه الخصائص
على أصدق وأبرز حالاتها لكان الجواب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن
الخطاب ..

وقد يكون العجب من توافر هذه الخصائص في تفرعاتها الثانوية
وأشكالها العارضة أبلغ وأدل على العمق والتأصل من توافر الخصائص
الجليلة التى هى بمثابة الأصول الجامعة في طبائع الجنود

فالنظام مثلا ليس بالخلق الأصيل في الجندى الباسل ، فقد ينساق انيه
بطبعه وقد يحتاج الى تَعُوْدِه وأدما^(١)نه حتى يكسبه بطول المراتة

لكن النظام كان خلقا أصيلا في طبيعة عمر حتى فيما يتفرع عليه
ويدخل منه في عداد الأشكال والنوافل^(٢)

أرايته وهو يصلى بالناس فلا يكبر حتى سوى الصفوف ويوكل

(١) يد من كذا : أي يديه . (٢) ما يؤديه الانسان تطوعا .

رجلا بذلك؟.. رأيته وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد في شهر رمضان أوزاعا متفرقين حول كل قارىء فيأمرهم أن يجتمعوا الى قارىء واحد؟ رأيته وهو يحمل الدرة لينبه المخالفين في الطريق ويذكرهم هيبة القانون؟ رأيته وهو يركب في السوق فيكسر ما برز^(٢) من الدكاكين ويخفق التجار بالدرة اذ تكوفوا^(٣) على الطعام وقطعوا طريق السابلة^(٤)؟.. رأيته وهو لا يزال يأمر بالمثائب^(٥) والكنف أن تقطع عن طريق المسلمين؟.. رأيته وهو ينهى الولاة عن الاتكاء في مجالس الحكم ، ويكتب الى عمرو بن العاص « وقع اليك أنك تتكئ في مجلسك ، فاذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكئ » :

بل رأيته وهو يرعى المراتب فينزل درجة من سلاله المنبر بعد أبي بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم ..

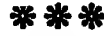
ذلك هو السميت العسكري بالفطرة التي فطر عليها ، وليس هو انسمت العسكري بالأسوة والتعليم

وبالفطرة التي فطر عليها ، كان يجب ما يحسن بالجندى في بدنه وطعامه ، ويكره ما ليس بالمستحسن فيه ، فكان يقول : « اياكم والسنة فانها عقله^(٦) » وكان يقول : « اياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية الى السقم ، وعليكم بالقصد في قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة » وكان يأمر بالجد ويحذر من المهازل لأن « من كثر ضحكك قلت هيئته ومن كثر سقطه قل ورعه ، وكان يمشى شديد الوطء على الأرض جهورى الصوت » كما يمشى الجنود وكما يتكلمون ، وكان يأمر بتعلم الرماية والسباحة والفروسية والمصارعة وكل رياضة يتدرب عليها الجندى وتتهذب بها الأبدان والأخلاق

واذا ارتقينا من هذا الى النظام الأشمل ، والتقسيم الأعم الأكمل ، فهناك عمر بن الخطاب الذي دون الدواوين وأحصى كل نفس في الدولة الاسلامية كأدق احصاء وعاه الموكلون بالتجنيد في العالم الحديث .. فما

(١) أي منقسمين . (٢) التي يضرب بها . (٣) أي خرج . (٤) أي يضرب . (٥) استداروا . (٦) السلوك ، والقوم المختلفة عليها . (٧) سبيل الماء . (٨) أي أنها تقيد الانسان في عمله وفكره .

من رجل أو امرأة أو طفل الا عرف اسمه وعرف مكانه وعرفت حصته من بيت مال المسلمين ، وما من مجاهد الا عرفت له رتبته من السبق والتقديم على حسب المراتب التي يمتاز بها الجنود .. فالحاضرون في وقعة « بدر » هم المقدمون بين المجاهدين ، والحاضرون في « الحديبية » يأتون بعدهم في التقديم ، والذين اشتركوا في حرب الردة يأتون بعد هؤلاء وهؤلاء ، والذين حاربوا في معارك الروم والفرس ومعهم أبناء الغزاة في « بدر » يلحقون بمراتب هؤلاء المتقدمين ، وقس على ذلك ما يليه من سائر المراتب في حقوق التقديم والتقسيم
ثم هناك عمر بن الخطاب الذي عثر الجنود ، أى جعلهم عشرات عشرات ، ثم قسمهم الى كتائب وبنود



وهناك عمر بن الخطاب الذي لم يدبر قط تدييرا كبيرا أو صغيرا في شؤون الدولة الا بنظام لا يختل أو على أساس لا يحد
وقد كانت له طريقة الجند في التصريف السريع الذي ينفذ الى الغرض من أقرب طريق ، فلما تشاور المسلمون ماذا يصنعون بسهيل بن عمرو خطيب المشركين يومئذ ، وأقدر الخائضين^(١) منهم في الاسلام .. قال عمر بن الخطاب : « يا رسول الله !.. انزع ثنيتيه السفليين فلا يقوم عليك خطيبا أبدا » وكان سهيل أعلم — أى مشقوق الشفة السفلى — فاذا نزعت ثنيتاه فقد عجز عن الخطابة من غير ما حاجة الى عهد أو تحذير أو شغل شاغل باسكاته والرد عليه

والقضاء لم يكن من لوازم « الطبيعة الجنديه » وان تولاه القادة والجنود في أيام الفتن والأيام التي تقام فيها الدول الناشئة والنظم الجديدة ولكن كم من قضية لعمر بن الخطاب تذكرنا بالقضاء العسكري الذي يمنع الضرر من أقرب الطرق ويحمي الأكثرين بالحد من حقوق الأقلين ؟ هتفت امرأة باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه فأرسل اليه « فاذا هو أحسن الناس شعرا وأصبحهم وجها . فأمره أن

(١) الذين يتحدنون في الاسلام بالباطل -

يعم شعره فظهر جبينه ووجنتاه فازداد حسنا » ثم أمره أن يعتم فراذته^(١) العمامة زينة وغواية ، فقال : لا يسكن معي رجل تهتف به العواتق^(٢) في خدورها^(٣) ، وزوده بمال وأرسله الى البصرة ليعمل في تجارة تشغله عن النساء ، وتشغل النساء عنه ..

وفي القضية جور على نصر بن حجاج لا جدال فيه ، ولكن في سبيل مصلحة أكبر وأبقى ، أو في سبيل مصلحة يرعاها « الحكم العسكري » في أزمنة كزمان عمر ويقضى فيها بما هو أعجب من اقضاء نصر بن حجاج : يرعاها أحيانا بمنع الإقامة بمكان ، ومنع المرور من طريق ، وتحريم تجارة لا حرام فيها ، ومراقبة انسان يخشى أن يقود الى جريمة ، وتقيد السهر بعد موعد من الليل

ولسنا نقول ان هذا الحكم في قضية نصر بن حجاج كان حكما لازما لا محيص عنه ولا مأخذ عليه ، ولكننا نقول انه حكم فيه تلك الصبغة العمرية التي سميها « مفتاح شخصيته » وهي المقصودة بما نكتبه الآن وقد كان له في قضائه ذلك الحزم الذي يقطع اللجاجة وينهض بالحجة على كل ذي خلاف كلما اشتجر الخلاف : كتب اليه أبو عبيدة من دمشق أن عمرو بن معد يكرب وأبا جندل وضرارا وجماعة من علية القوم والوجوه شربوا الخمر، وسئلوا فأجابوا : « اننا خيّرنا فاخترنا » . قال : « هل أتمم منتهون ؟ » ، ولم يعزم .. وكان أبا عبيدة تخرج من عقاب هؤلاء العلية فرفع أمرهم الى الخليفة يستفتيه . فلم يلبث البريد أن بلغ المدينة حتى عاد اليه يأمره أن يدعوهم على رؤوس الاشهاد ويسألتهم سوألا لا يزيد سبه ولا ينقص منه : « أحلال الخمر أم حرام ؟ » فان قالوا حرام فليجلدهم ، وان قالوا حلال فليضرب أعناقهم . فقالوا : بل حرام ، فجلدوا وتابوا

وربما تجمع للرجل كل ما في « طبيعة الجندي » من الخصائص وبقيت محبوسة فيه لا يدرى بها الناس الا أن يأتي بعمل ينم عليها . فيدين

(١) أي يحلق شعره . (٢) أي يلبس العمامة . (٣) العاتق : التي لم

يفض ختامها أحد . (٤) الخدر : الستر . (٥) المبالغة في الخصومة .

نفسه بطبيعته تلك ولا يدين غيره ، ويكون مطبوعا على أن يطيع ولا يكون مطبوعا على أن يطاع ، وإذا جاءت طاعة المطيعين له فانما تجبته من سلطة النظام وحكم الشرع وغلبة العادات ، لأن الشجاعة مثلا لا تلازم الهيبة في كل حال . فقد يكون الشجاع مهيبا ويكون غير مهيب ، بل يكون أحيانا ممن تقتحمهم^(١) الأنظار ويجترء عليهم المستخفون^(٢) .

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له « طبيعة الجندي » ظاهرة باطنة ، تبادر القلوب كما تبادر الأنظار ، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه . فما يجترء عليه مجترء إلا أن يطمعه هو ، ويسهو عن نفسه لحظة ليفريه بالاجتراء ..

وهي في موقف الأمر تخيف من لا يخاف ويجفل^(٣) منها من يختمى بجاء و كبرياء . شكّا اليه رجل من بني مخزوم أبا سفيان لظلمه إياه في حد كان بينهما . فدعا بأبي سفيان والمخزومي وذهبوا الى المكان الذي تنازعا . ونظر عمر فعرف صدق الشكوى ونادى بأبي سفيان : خذ يا أبا سفيان هذا الحجر من هنا فضعه هنا .. فأبى^(٤) وتردد ، فعلاه بالدرة وهو يقول : خذه فضعه ها هنا فانك ما علمت قديم الظلم . فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعته حيث قال : ولو غير عمر أمره هذا الأمر لاستكبر أن يطيع أو شنّها عليه شعواء لا تؤمن جريرتها^(٥) .

كان يوما في مجلس عمر ورياد بن سمية يتكلم وهو يومئذ شاب . فأحسن كعاداته في مجال الخطابة والمشورة . فأعجب به عمر وهتف به :
فهذا الغلام !.. لو كان قرشيا لساق العرب بمصاه

وكان على بن أبي طالب الى جانب أبي سفيان ، فقال اليه هذا وهمس في أذنه كلاما فحواه أنه يعرف من أبو ذلك الغلام من قریش . قال على : فمن ؟ قال : أنا ... قال : فما يمنعك من استلحاقه ؟ .. فهمس له :
أحاف هذا الجالس أن يخرق على اهأبى !

وخليق بمثل هذا الرجل ألا يكون له شعار غير شعار الجند حيث كانوا : الأمر هو الأمر والطاعة هي الطاعة

(١) أي يدل . (٢) تحتقرهم . (٣) استخف به : أي احتقره وله يقم له وزنا . (٤) واقع الامر وحقيقته . (٥) الجافل : المنزعج . (٦) رفض . (٧) أي جناتها أو عاقبتها .

وخلق بالناس أن يفهموا ذلك عنه بغير بيان ، لا سيما اذا فهموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة كان هو أول من يطيع ذلك هو الجندي المطبوع ..

جندي من جنود الله في معترك الحق والايمان ، واذا استوفينا المثل انى أقصاه ، فالقانون المطاع هو القرآن ، والقائد الأعلى هو النبي الذي يوحى اليه ، وليس أحد بعد ذلك أكبر من أن يطيع يأمر الله فالطاعة واجب لا هوادة فيه

ويأمر القائد الأعلى فقد يراجع من دونه ويرتفعان معا الى القانون لأن الطاعة لا تمنع المراجعة والمشاورة ، ولكنها تمنع التمرد على القائد الأعلى وانكار سلطانه حيثما استقر على قرار ، فاذا رجع القائد عن أمره فحسن والمراجعة اذن خير لا ضرر فيه ، واذا مضى في أمره فلا خلاف اذن فيما يجب ، والذي يجب اذن أمر واحد : وهو أن يطاع

كذلك راجع عمر النبي في مسائل شتى ، فأخذ النبي برأيه في بعض هذه المسائل وخالفه في بعضها ، فلم تكن طاعته فيما خولف فيه أقل ولا أضعف مما ووفق عنه

وكذلك راجع الخليفة أبا بكر في كبريات المسائل وصغارها . فكان أبو بكر يثوب الى رأيه كثيرا ، ويصر على ما بدا له اذا رأى الحسنى في الاصرار .. فيطيع عمر أمره بعد ذلك ، كأن لم يكن خلاف ..

واذا امتنعت المراجعة فليس الرجل عند ذلك بواهن عن احتمال التبعة وتصريف الرأي والاضطلاع^(١) بأعباء الموقف كيف كان

اشتد المرض بالنبي عليه السلام فقال : ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده .. قال عمر : ان النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسننا^(٢) ..

عندنا القانون الأعلى ..

أما القائد الأعلى فهو في مرضه يحال لا تستحب معها المراجعة ، وهو

-
- (١) أي أن الجندية طابعه من الاساس . (٢) موضع الحرب أو ميدانه .
(٣) أي يرجع . (٤) الضعف . (٥) أي القيام . (٦) أي يكفيننا .

مع ذلك لم يصر على أمره ولم يعاود طلب النورق للكتابة . وانما قال حين كثر اللفظ^(١) بين الصحابة : قوموا عنى ، ولا ينبغي عندى التنازع ثم عاش عليه السلام أياما ولم يذكر الكتاب

فالرجل كان يطيع اذا استقام الأمر واستقرت التبعة

وكان يراجع اذا اتسع مجال المراجعة

فان لم يكن هذا ولا ذاك فهو ضليع^(٢) بالتبعة التى يوجها على نفسه ، وفمين^(٣) أن يذهب اليها ولا ينكل^(٤) عنها

وتلك ستة جرى عليها عمر عن علم وقصد ، ولم يجر عليها عن بداهة والهام وكفى ، وأتار اليها فى كلامه غير مرة فقال فى خطبة من خطبه ما فحواه : « ... كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه^(٥) . وكان كما قال الله تعالى : بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وكنت بين يديه كالسيف المسلول ، الا أن يعسدنى أو ينهانى عن أمر فأكف عنه ، والا أقدمت على الناس لمكان أمره ... »

فهو جلواز النبى . وسيفه المسلول ، كما وصف نفسه ..

وهو على أقوم مثال للجندى الفاضل العليم بموقع الطاعة ، وموقع المراجعة ، وموقع المشاوره . وهو مع التبعة حيث لا مهرب منها ، وتلك هى الجندية فى صورنها المثلى

وما نحسبه كان يراجع ويشاور الا لغرض واحد . وهو الوصول الى الأمر الذى يحمل التبعة فيه

فاذا أعفى نفسه من التبعة بمراجعة رؤسائه ، وأعفى نفسه من التبعة بمشاورة رؤوسيه ، فقد عرف كيف ينبغي أن يطيع وعرف كيف ينبغي أن يطاع . وعرف ما يتوق^(٦) كل جندى أن يعرفه حين يؤمر وحين يأمر ، وهو توضيح ما يطلب منه وما يطلب من غيره ، وتقرير مكان التبعات حين تقسم التبعات ..

ولقد كانت له مخالفات ليست من قبيل المراجعة ولا المشاورة التى

(١) الصوت والجلبة . (٢) أي قوي وقادر . (٣) خليق وجدير .
(٤) يقال : نكل عن العدو : أي جبن . (٥) الجلواز بكسر الجيم : الشرطي .
(٦) تافت نفسه الى الشيء : اشتاقت اليه .

تعمل فيها الروية عملها ، أو تختلف مذاهب الآراء فيها
كانت هذه أيضا من مخالفات « الجندى » التى يندفع اليها كلما غلبته
الحماسة ، وثارت به الحمية ^(١) ..

فلما كان يوم أحد جاء أبو سفيان ينادى على مسمع من المسلمين :
أفيكم محمد ؟ .. فقال رسول الله : لا تجيبوه !..

فعاد ينادى مرتين : أفيكم محمد ؟ .. فلم يجيبوه !..

فسأل ثلاثا : أفيكم ابن أبى قحافة ؟ .. فسكتوا

ثم سأل : أفيكم ابن الخطاب ؟ .. وكررها ثلاثا .. فلما لم يسمع جوابا
قال لقومه : أما هؤلاء فقد كفيتموهم !

كثير على عمر أن يحتوى صبره فى هذا الموقف أكثر مما احتواه ، فما
قالها أبو سفيان حتى صاح به من مكانه : « كفرت يا عدو الله ، ها هو
ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وأنا أحياء !.. ولك منا
يوم سوء ! » ..

هذه مخالفة لا مراجعة فيها ولا مشاورة ..

لكنها من مخالفات الجند ، ولهم ولا شك مخالفات كما لهم طاعات

نعم كانت له مخالفاتهم وطاعاتهم ، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم
التي هى أخص بهم من سائر الفكاهات والأهواء

فكانت تعجبه الفكاهة التى توحى اليه معنى مضحكا فيه صراحة
وخشونة : ومنها الفكاهة التى نسميها اليوم « بالنكات العملية »

فرغ رسول الله يوما من بيعه الرجال وأخذ فى بيعه النساء ، فاجتمع
إليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة متنقبة متكررة لما كان من
صنيعها بحمزة رضى الله عنه . فهى تخاف أن يأخذها رسول الله بصنيعها .
فلما دَنَوْنَ منه لباعته ، قال عليه السلام : تباعنى على ألا تشركن
بالله شيئا ؟ ..

(١) الحمية : العار والافتة . (٢) متنقبة : أي تلبس النقاب .

قالت هند : والله انك لتأخذ علينا أمرا ما تأخذه على الرجال ،
وسنؤتيكه^(١) ..

قال : ولا تسرقن ..

قالت : والله ان كنت لأصيب^(٢) من مال أبي سفيان الهنة والهنة وما
أدري أكان ذلك حلالا لى أم لا ؟ ..

قال أبو سفيان وكان شاهدا : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى
حل ..

فقال رسول الله : وانك لهند بنت عتبة ؟

قالت : أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف ، عفا الله عنك

فمضى رسول الله فى أخذ البيعة ، وعاد يقول : ولا تزنين !

قالت : يا رسول الله هل تزنى الحرة ؟

قال : ولا تقتلن أولادكن !

قالت : قد ربئناهم صفارا وقتلتهم يوم «بدر» كبارا ، فأنت وهم
أعلم ..

فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب^(٣) ، وكان قليل الاغراب فى
الضحك ، فان استغرب ضاحكا بين حين وحين فانما يضحكه مثل هذه
الفكاهة ..

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمه أسلم وابنه عاصم : دخل عليهما
وهما يغنيان غناء يشبه الحداء^(٤) فوقف يستمع ويستعيد . وشجعهما
اصغأؤه واستعادته ، فسألاه : أيثا أحسن صنعة ؟ .. قال : مثلكما

كمثل حمارى العبادى . سئل : أيثما شر ؟ .. فقال : هذا ثم هذا^(٥)

ومن فكاهته القوية ، تلك المزحة المربعة التى أطار بها لب^(٦) الحطيئة
ليكت عن هجاء النلس : فدعا بكرسى وجلس عليه ودعا بالحطيئة فأجلسه
بين يديه ، ودعا بأشفى — أى مثقب — وشفرة يوهمه أنه سيقطع لسانه ،
فضج^(٧) الحطيئة وتشفع الحاضرون فيه ، ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهدا
لا بهجون^(٨) أحدا بعد ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم.

(١) أى سننفذه لك . (٢) أى أخذ . (٣) الشيء اليسير . (٤) من

بين معاني « الاغراب » : المبالغة فى الضحك . (٥) الغناء للابل . (٦) العقل .

(٧) صاح وأحدث جلبة .

فما هجا أحدا بعدها وعمر بقبد الحياة
تلك أمثلة من فكاكته الخسنة التي تعهد في طبيعة الجند ، وهي
فكاهة لا يطمع منه في غيرها

وشاءت الجاهلية أن تورطه في بعض أهوائها ، فكان هواه منها معاقرة^(١)
الخمير يحبها ويكثر منها ، وقد نرى أنه هوى قريب من مزاج الجند غير
نادر فيهم ، إذ الخمر توافق ما فيهم من سورة طبع وتشغلهم عن الخطر
أو تعينهم عليه ، وتصاحبها في كثير من الأحيان ضجة يألّفونها
وقد أحب ضجة الدفوف وهي في سياق هذا الهوى ، وظل يحبها بعد
إسلامه وخلافته وإن كرهها في غير الاعراس .. فسمع ضوضاء في دار
فسأل : ما هذا ؟.. قيل له : عرس !.. فقال : هلا حركوا غرايلهم ؟..
أي الدفوف !..

على أنه كان يجب الغناء جملة ، ويطيل الاصغاء اليه ، ما لم يشغله عن
مهم من أمر دينه أو سياسته . فسمع صوت حاد وهم منطلقون الى مكة
في جوف الليل ، فما زال يوضع راحلته حتى دخل بين القوم يسمع الى
مطلع الفجر ، ثم قال للقوم : ايه !.. قد طلع الفجر .. اذكروا الله
فطبيعة الجندي في الفاروق تامة متكاملة بأصولها وفروعها .. ويندر
أن تتم طبيعة شاملة في رجل واحد ، إلا أن يكون كمتنثر في أصالة الطبع
وصراحته وخلوصه واتساقه^(٢) ، فلا يخذل منه جزء جزءاً ، ولا تقبل منه
وجهة حيث تدبر أخرى ، وحينئذ لا عجب أن تتم له طبيعة واحدة بالغة
ما بلغت من تعدد العناصر والالوان والشيآت ، كما أنه لا عجب أن يشبه
الولد أباه لأنه أصيل صريح النسب ، بالغاً ما بلغ التعدد في مشابهة
الاخلاق والجوارح والأعمال

ولهذه الطبيعة أثرها في أمور لا تمت إليها على ظاهرها ، كثورها في
تحرير رق العربي وفي إخلاء الجزيرة من غير العرب ، فهي شنشنة الفيور^(٣)
على الحوزة ، الموكل بحماية الذمار^(٤)

ولها أثرها في سياسته مع الأمم ، حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف

(١) أي توقعه . (٢) الادمان في شربها . (٣) أي حدة . (٤) الذين
يغنون للابل كي تجد في سيرها . (٥) وضع البعير وغيره : أسرع في سيره .
(٦) الانتظام . (٧) الخلق والطبيعة . (٨) ما يلزم حفظه وحمايته .

والبر بالوعد ولو كان إشارة باليد أو نبأ^(١) من صوت . فقد أوجب على قادته وجنوده اذا نزلوا بلاد الاعاجم فبدت منهم إشارة أو نبأ يحسبونها عهدا ، أن ينجزوا هذا العهد ولا ينكصوا فيه .. ولو أتيح لهم أن يتعلموا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات

أو أنك على الجملة لا تعرض عملا من أعمال الفاروق العامة والخاصة على هذه الطبيعة الا وجدت له قرارا فيها ووجدت عليه صبغة منها فهي بلا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة ، وبها تتميز خصائصه التي لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها وان كانوا عظماء أقوياء ..

وقد أسلفنا الإشارة الى الايمان القوى ، وقلنا انه ضابط لأخلاقه وسوراته وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها ، لأن الايمان القوى نفسه يحتاج في فهمه وتمييزه الى المفتاح الذى يفرق بين ضروب الايمان عند الأقوياء ، وليست القوة كلها كما لا يخفى معدنا واحدا في البواعث والمظاهر والآثار ..

وهكذا كان ايمان عشر في سلوك دنياه وسلوك دينه : كان ايمان الطبيعة الجندية في حالتها المثلى
ففى سلوك دنياه كان يعيش أبدا عيشة المجاهد في الميدان .. فأثر الشطف^(٢) وقنع منها بأقل ما يكفيه ولا غنى عنه

وفى سلوك دينه كان موقفه بين يدي الله أبدا كموقف الجندي الذى يعلم انه لا يلقي مولاه الا ليؤدى الحساب على الكثير والقليل ... فان تجتهد المسامحة ، جاءت عفوا لا ينسيه تحضير الحساب ..

وكان معتمدا على الغيب موصولا بالقدر يركن اليه كأنه يراه بعينه . ومن دأب^(٣) كل طبيعة تستحضر الموت أن تنظر الى الغيب ، وتستطلع طلعه وتنتظر منه الحماية والهداية

فاشتهر عن كثير من كبار القادة أنهم يؤمنون لهم نجم سعد يلحظهم ، أو بغاية أجل لا يعجلون عنها ، أو بالهام يهديهم الى النجاة ويرون أماراته

(١) الصوت الخفي • (٢) أي يتراجعوا وينقضوه • (٣) يبس العيس

وشدته • (٤) العادة والشأن •

وعلاماته في الرؤى والهواتف وكلمات الفأل والبشارة
وكان عمر يتفاهل بالاسماء وينظر في الرؤى والمنامات ، ويروى عنه
في روايات متواترة أنه أنبىء بموته في منام ، وأنه رأى كأن ديكا ينفقه
نقرتين ، وفسروا له الديك برجل من العجم يطعنه طعنتين
وروى محارب بن دثار عنه أنه سأل رجلا : من أنت ؟.. فقال : قاضي
دمشق .. قال : كيف تقضى ؟.. قال : أقضى بكتاب الله .. فسأله : وإذا
جاءك ما ليس في كتاب الله ؟.. فأجابه : أقضى اذا بسنة رسول الله ،
فسأله ثانية : وإذا جاءك ما ليس في سنة رسول الله ؟.. قال : أجتهد
برأى وأوامر^(١) جلسائى .. فاستحسن قوله وأوصاه اذا جلس للحكم أن
يدعو الله قائلا : « انى أسألك أن أفتى بعلم وأن أقضى بحلم ، وأسألك
العدل في الغضب والرضا »

ثم رجع القاضي بعد فترة فسأله عمر : ما أرجعك ؟.. قال : رأيت
الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب ..
فسأله : مع أيهما كنت ؟.. فقال : مع القمر !..
فتأمل قليلا ثم ذكر قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين
فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة^(٢) » . ثم قال : لا تلى لى عملا
هذه رواية من روايات كثيرة عن المنامات ونظيره فيها ، لا ندرى مبلغها
من الصحة في تفصيلاتها ، ولكنها كلها تدل على الغرض الذى قصدنا
اليه وهو استهداء الغيب من طريق الرؤى والعلامات ، الى جانب الايمان
القوى الذى لا يسهو عن عالم الغيب طرفة عين

ومن الحق أن نضيف هنا ان الايمان القوى ليس بمستغرب في الطبيعة
الجنسية . بل ربما كانت طبيعة الجهاد أقرب شىء الى طبيعة الايمان
وأن نضيف هنا استدراكا آخر لعله أدعى الى البحث من القول في
الجهاد والايمان ، وذلك أن العدل لا يناقض طبيعة الجند عامة ، وأن
طبيعة الجند لا تستلزم العدوان في كل محارب ، ولا سيما المحارب نضحا^(٣)
عن دين ووفقا لشريعة

(١) أي اشاور . (٢) الآية : ١٢ من سورة الاسراء . (٣) نضح عنه :

فالعادل يفتر الى شجاعة وشرف وهما خصلتان مطلوبتان في الجندى المطبوع ، فأما الشجاعة في الرجل العادل فتحميه أن يحابي^(١) الأقوياء وهو جبن ، وأما الشرف فيحميه أن يجور على الضعيف وهو خسة ، ولا تناقض بين هذه الخصال ..

انما المحارب المعتدى هو الذى « يحارب لحسابه » كما يقولون ، أو يحارب لنفسه مرضاة لطمعه وذهابا مع نزواته ، ومن هذا الطراز : الاسكندر ، وتيمور ، ونابليون

أما المحارب الذى تقيده ارادة غير ارادته ، ويحكمه قانون غير هواه ، فالجرب من مثله واجب يلام على تركه وليست بجريمة فلا بلام على اقترافها ..

وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى قبل جهاد انخصوم والاقران ، كما رأى عمر بن الخطاب

ومصادق ذلك ظاهر في كل قائد تدعوه الى الحرب ارادة اله أو ارادة أمة ، أو ارادة ضمير له قانون .. فطبيعة الجندى في هؤلاء لا تناقض العدل ، الا كما تناقضه طبيعة الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف في شؤون المعاش ، ولا تناقض بينه وبين واحد منها ، أو هي جميعا في هذه الخصلة سواء ..

هؤلاء لا يحاربون الا مكرهين ، واذا حاربوا لم يحاربوا لبغى ولا لتكيد ولو كانوا في ميدان القتال ، وسنتهم هي سنة عمر حين حذر المجاهدين أن يعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين .. ثم قال : « لا تَجْبَسُوا عند اللقاء ولا تمثلوا^(٢) عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما^(٣) ولا امرأة ولا وليدا ، ونزّهوا الجهاد عن عرض الدنيا ، وأبشروا بالأرباح في البيع الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم »

وذلك هو الجندى في حالته المثلى ..

وذلك هو المفتاح الصادق الذى لا نعلم مفتاحا أصدق منه لخلائق

هذا الجندى العادل الكريم .

(١) حابى فلانا : أعطاه بلا جزاء . (٢) المثلة : هي قطع الاطراف

والتشويه . (٣) أي شيخا .

إسلامه

يجوز أن نبحث عن سبب واحد للعمل الذي يعمل به الرجل اليوم وينسأه غدا ، أو يكرره كل يوم ولا يلتفت الى عقباه ، أو يلتفت الى عقباه ولا يتوقع له أثرا يغير في مجرى حياته . فسبب واحد لعمل من هذه الاعمال كاف ولا حاجة بعده الى استقصاء

لكن العمل الذي تتحول به حياة الانسان تحولا حاسما لن يرجع الى سبب واحد ، ولن نستغنى في تفسيره عن عدة أسباب ، بعضها حديث وبعضها قديم ، ومنها الظاهر الطيع والخفى المستعصى ، وقد يجهل صاحبها بعض هذه الاسباب وينسى المهم منها ويتعلق بالهين القريب .

فالرجل الذي يغير موطنه ، أو معيشته ، أو زيته ، لا يفعل ذلك عفوا الساعة ، ولا تلبية لاقتراح يوحى اليه في مجلس فراغ . وقد يتوهم هو أنه سمع الاقتراح فلبّاه ، وأنه لم يكن ليلبّيه لولا ما سمع في تلك اللحظة العارضة . فهاجر أهله وترك موطنه وغير صناعته من أجل كلمة .. وأنتك سائله ساعتئذ : « انك قد هجرت أهلك وتركت موطنك وغيّرت معيشتك لأنك لبّيت اقتراحا ، فهل تعلم لم لبّيت الاقتراح ؟ » . فإذا سأله ذلك السؤال ، رددته الى نفسه فعلم ان الأسباب الصحيحة وراء ذلك .. وانه لم يتحول لأنه سمع الاقتراح المزعوم ، بل سمع الاقتراح ولبّاه^(١) لأنه كان قبل ذلك مستعدا للتحول ماضيا في طريقه ، ولو سمعه مائة معه لم يكونوا مستعدين مثله ، لما عملوا به ولا التفقوا اليه ..

وأيّن تغيير المعيشة والموطن والزي من تغير العقيدة الدينية ؟ .. اننا اذا استصغرنا السبب الواحد في تفسير تلك التغيرات فهو لا وراء أصغر من ذلك جدا في تفسير التحول الحاسم الى دين جديد

لأن الانسان اذا غيّر معيشتة فانما يغير صناعة ، واذا غير موطنه فانما يغير بلدا ، واذا غير زيه فانما يغير سمتا^(١) يقوم على كساء ، ولكنه اذا غير عقيدته الدينية فقد غير كونه واستبدل به كونا آخر ، وقد غير ماضيه وماضى أهله ، وغير حاضره وحاضر أهله ، وغير مصيره في الدنيا وبصيره بعد الموت ، وغير آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس ، ومنها مآلف^(٢) وأواصر^(٣) ومحاب^(٤) ومكاره متوشحات^(٥) الأصول الى ما وراء الآباء والأجداد ..

فسبب واحد لا يغير هذا كله دفعة واحدة

ولا بد لتمام هذا التغيير من أسباب سابقة ، وأسباب مهيئة ، وأسباب موقوتة هي أظهر تلك الاسباب ، وقد تكون أضعفها وأقلها تفسيراً لذلك الحدث العظيم في العالم ، وهل يتغير الانسان هكذا الا وقد أحاط بالعالم في نظره حدث عظيم ؟ ..

ونحن قد أشرنا فيما تقدم الى ندم عمر لشكايه المراتين اللتين عارضهما في الاسلام ، والى ما كان لندمه من كسر حدته واستلال ضعفه^(٦) وترويض عناده والتقريب بينه وبين الخشوع الديني والهداية الاسلامية . فهل تقف عند هذا الندم وكفى ؟ .. وهل اتتهينا به الى حيث يستقر الوقوف ؟ ..

انه لسبب من الاسباب ..

ومما لاشك فيه أن عمر كان مقرباً من الاسلام يوم رثى لأُم عبد الله بنت حشمة ، وتركها تنطلق الى ألّهجرة وهو يدعو لها بالسلامة ، وكانت هي على صواب حين طمعت في اسلامه ورجالها يابسون منه ، فقد سأله عامر بن ربيعة مستغرباً مستبعداً : كأنك قد طمعت في اسلام عمر ؟ قالت : نعم .. قال : انه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب !

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة ، اذ ليس أسرع من المرأة أن تلمح جانب الرقة وجانب الغضب من قلب الرجل في خطفة عين . أليست حياتها كلها من قديم الزمن منوطة بذلك الغضب كيف تتلطف في تحويله

(١) أي هيئة . (٢) من الالفة . (٣) أي علاقات وروابط . (٤) من المحبة . (٥) توشحت : أي لبست الوشاح . (٦) أي حقه .

وبتلك الرقة كيف تلتطف في ابتعائها من مكنها ؟.. وهل تحجبها عنها القوة، وهي ما نفذت الى نفس الرجل قط الا من وراء القوة ؟..

فعمر كان مقتربا من الاسلام يوم رثى للمرأة المهاجرة ودعا لها بصحبة الله ، وكان على تمام الاسلام يوم رأى الدم على وجه أخته ورأى زوجها منطرحا تحته لا يقوى على دفاع

ولكنه كما قلنا : سبب من أسباب ، أو أنه هو السبب العارض الذى يومئ^(١) الى السبب العميق : سبب عارض هو الإسف^(٢) لشكاية الضعيف ، وسبب عميق هو الرحمة التى تجمل بذى نخوة كريم . وليس الانسان كله ندما ورحمة وان طال ندمه وطالت رحمته . فابس كل ما احوى رحمته بمحتويه الى زمن طويل

وقد تعددت الروايات في اسلام عمر واختلف بعض هذه الروايات في اللفظ واتفق في المغزى^(٣) ، وجعل أناس ينظرون فيها، كأنما الصحيح منها لا يكون الا رواية واحدة وسائرهما باطل لا يشمل على حقيقة ، فلم لا تكون صحاحا كلها ؟.. ولم لا تكون أسبابا متعددة في أوقات مختلفات ؟.. فمن المستطاع المعقول أن نسقط منها قليلا من الحشو هنا وهناك ثم نخلص منها الى جملة أسباب لا تعارض بينها في الجوهر ، وقد يميز بعضها بعضا في نسق السيرة، وفي لباب النتيجة

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « كنت للاسلام مابعدا ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبا وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش .. فخرجت أريد جلسائى أولئك فلم أجد منهم أحدا . فقلت : لو أننى جئت فلانا الخمار !.. وخرجت فجثته فلم أجد له .. قلت : لو أننى جئت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين !.. فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، وكان اذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام واتخذ مكانه بين الركبتين : الركن الاسود والركن اليماني ، فقلت حين رأيته : والله لو انى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ، وقام بنفسى أننى لو

(١) أي يشير . (٢) الكبرياء والعظمة . (٣) أي المقصد

دفنوت أسمع منه لاروعته^(١) ، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها ما بيني وبينه الا ثياب الكعبة ، فلما سمعت انترآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الاسلام ..

وروى ابن اسحق في سبب اسلامه كما قلنا عنه في كتابنا « عبقرية محمد » : « أن عمر خرج يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا^(٢) من أصحابه .. قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلى بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضى الله عنهم ... فلقبه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ .. فقال : أريد محمدا هذا الصابي^(٣) الذي فرق أمر قريش ، وسفقه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلها ، فأقتله . فقال نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ! .. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ .. أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ .. قال : وأى أهل بيتي ؟ .. قال : اختك^(٤) وابن عمك سعيد ابن زيد بن عمرو ، واختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه .. فعليك بهما ..

قال ... فرجع عمر عامدا الى أخته وختنه ، وعندهما خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذا ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهينة التي سمعت ؟ .. قال له : ما سمعت شيئا ! .. قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت اليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها^(٥) .. فلما فعل ذلك قالت له أخته : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتمكم تقرأون آتفا ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد .. وقرأ سورة طه ، فلما قرأ

(١) أي لافزعنه وأخيفنه . (٢) ما دون العشرة من الرجال . (٣) الذي ترك دينه الى دين آخر . (٤) الصهر ، أو كل ما كان من قبل المرأة كالأب والاخت . (٥) أي قاصدا . (٦) الصوت الخفي . (٧) أي جرحها .

(١) منها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج اليه فقال له : يا عمر ، والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم ابن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر !.. فقال له عند ذلك عمر : دلنى يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا معه فيه نقر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب ، وقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل^(٢) الباب قرآه متوشحا بالسيف ، فرجع الى رسول الله وهو فزع ، فقال : يا رسول الله !.. هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب : تأذن له ، فان كان يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه !.. فقال رسول الله : ائذن له .. ونهض اليه حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته^(٣) أو بمجمع رداءه ثم جبهه^(٤) جبذة شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة فقال عمر : يا رسول الله !.. جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ! .. »

هاتان الروايتان هما أجمع الروايات للأسباب « المباشرة » التى قرّبت بين عمر والاسلام . وتتفرع منهما روايات متنوعة يزيد بعضها تارة أن عمر قد أوفد^(٥) لقتل النبی من قبل قريش ، ويزيد بعضها تارة أخرى آيات من القرآن الكريم قرأها عمر فى بيت أخته غير الآيات التى تقدمت الإشارة اليها فى سورة طه .. وأشبهها بالتصديق أنه لما اطلع على الصحيفة قرأ فيها اسم « الرحمن الرحيم » فذعر وألقاها . ثم رجع الى نفسه فتناولها وجعل كلما مر باسم من أسماء الله ذعر .. فلما بلغ « .. ومالك لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين » ... قال : أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله وهذه على اختلافها روايات منقاربة يبدو لنا أنها قصة واحدة شطرت^(٦)

(١) أي الآيات الاولى منها . (٢) أي لبسه . (٣) أي قصده . (٤) الفرجة

بين الشيثيين . (٥) معقد الازار . (٦) أي جذبه . (٧) الداهية . (٨) أي

أرسل . (٩) نصفه

شطين وزيدت عليها الحواشي والاطراف ، فاختلفت في ألفاظها ومواعيدها واتفقت في جوهرها ومدلولها ، لأنها تسمى نفس عمر من الناحية التي هي أشبه أن تهديه الى طريق جديد .

وهي — كما أسلفنا — تجمع لنا الاسباب « المباشرة » التي اقترنت باسلام عمر ، ولا تغنيانا عن الاسباب الاخرى التي هي أساس هذه الاسباب ومرجعها ، ولأجلها كان خليقا أن تأخذه بلاغة القرآن ، وأن تميل به الرحمة الى الايمان

فقد كان مهياً للاسلام لا محالة ، وكانت مجافاته للاسلام خليقة أن تنتهى بعد قليل ، وألا تطول الا ريثما تمن^(١) المناسبة للشهادة باللسان بعد التهيؤ بالفطرة والضمير

فلم يكن بين عمر والاسلام في بداءة الأمر الا باب واحد للعداء وكل ما عدا ذلك من الأبواب فقد كان مفتوحا بنه وبين هذا الدين الجديد ، ما هو الا أن يراه بالعين حتى يندفع فيه

كان باب العداء بينه وبين الاسلام انه رجل قوى غيور عزيز في قومه ، فاذا رجل يخرج عليهم فيفرق — كما قال — أمر قریش ويسفه أحلامها ويعيب دينها ، ويسب آلهتها .. فلا جرم^(٢) أن يثور ويفض ويقيم^(٣) ، ولا عجب أن يذود عن ذماره ويرحض^(٤) المعابة عن شرف آبائه ، ويرى أنه غير عاد ولا باغ ، وأن البغى والعدوان انما يجيئان من قبل ذلك الرجل الخارج على قومه ، حتى يتبين له بالحق الذي يصدع^(٥) به أن الذي هو فيه هو البغى والعدوان .

ذلك باب العداء الوحيد الذي كان بين عمر والاسلام ، وهو باب لا يطول مدخله في نفس طبعت على العدل والانصاف

فما من سبب يصل بين الجاهلى الشريف وهذا الدين الجديد الا كان موصولا بنفس عمر أوثق صلة ، وما علمنا من سبب للاسلام الا كانت له عقدة في نفس عمر وثيقة القرار ..

فربما أسلم أناس لأنهم أخذوا ببلاغة القرآن ، وأسلم أناس لأنهم

(١) أي تعرض أو تأنى . (٢) أي فلا بد ، أو فلا محالة . (٣) أي يكره .

(٤) يغسل . (٥) صدع بالحق : تكلم به جهارا .

كرهوا المنكر الذى كان يشيع فى الجاهلية ، أو لأنهم ورثوا النزعة الدينية والخلاق المستقيمة ، أو لأنهم جُبلوا على روحانية تصل بينهم وبين عالم الغيب وحظيرة الأسرار ، أو لأنهم قد عرضت لهم عارضة موقوتة حركت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب ..

وكل أولئك كان عمر على استعداد له عظيم
وكل أولئك لم يكن عمر فيه بالوسط المكرر : بل كان فيه العلم المرتفع المضىء بين الأعلام

كان عمر بليغا حسن النقد للبلاغة ، هواء منها الصدق والطبع وجمال التفصيل . فكان يطرب لقول زهير :

فان الحق مقطعه ثلاث يمين أو نثار أو جلاء^(١)

ويقول كلما أنشده معجبا : ما أحسن ما قسم ! .. وسماه شاعر الشعراء لأنه لا يعاظم^(٢) بين القوافى ولا يتبع حوشى الكلام^(٣)

وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرق الفجر فيقول لجليسه :
« الآن اقرأ يا عبده الله »

وجاءه يوما بعض آل هرم بن سنان ممدوح زهير فقال عمر : أما وان زهيراً كان يقول فيكم فيحسن ، فقليل له : كذلك كنا نعطه فنجزل^(٤) ، فعاد عمر يقول : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم

وجاءه وفد من غطفان فسألهم : من الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك رية وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : نابغة بنى ذبيان . فسألهم : ومن الذى يقول :

أتيتك عاريا خلقا^(٥) ثيابى على وجل نظن بى الظنون

فألفت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : هو النابغة . فقال : هو أشعر شعرائكم

وطالما أعجب بقول عبدة بن الطبيب :

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح واشفاق وتأميل

وينشده فيقول : على هذا بنيت الدنيا ! ..

(١) أي طبعوا . (٢) من النفور ، ونفار الشيء من الشيء : تجافيه عنه

وتباعده . (٣) الظهور والوضوح . (٤) ضمن . (٥) أي خيشيه وغريبة .

(٦) أي نفد العطاء . (٧) الثوب الخليق : القديم البالي .

وندر بين أئمة الدين من غاص في أدب قومه غوصه ، ووعى من أشعارهم وطرفهم مثل ما وعاه . قال الاصمعي : ما قطع عمر أمرا الا تمثل فيه بيت من الشعر . ونحن نرجع الى الشعر الذي تمثل به فنراه في أحسن موقع وأصدق شاهد ، ونلمح من قليل أخباره في خلوته أن الأدب كان جانبا من جوانبه التي ترق فيها حاشيته ويأنس فيها الى قلبه ويرجع فيها انى فطرته . جاء عبد الرحمن بن عوف الى بابه فوجده مسنقيا على مزحفة له ، واحدى رجله على الأخرى ، وهو ينشد بصوت عال :
وكيف ثوائي^(١) بالمدينة بعدما قضى وطرا^(٢) منها جميل بن معمر
فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال له : يا أبا محمد ، انا اذا خلونا قلنا
كما يقول الناس ..

ولم يقصر اعجابه بالشعراء ، على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية ، بل نظر في فنهم وفاضل بينهم في بلاغتهم ، ففضل امرا اتقيس لآفته « سابقهم خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر^(٣) » ونوادره مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة وحفظه لأجمل ما يحفظ بين أهل عصره ، كما تدل على ذلك خطبه ورسائله وشواهد وأمثاله

وقد يصح أنه نظم الشعر أو لا يصح ، فقد نسبت اليه أبيات وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول : لو نظمت الشعر لقلته في رثاء أخى . ولكن الصحيح أنه كان يحب الشعر البليغ ويرويه ويوصى بروايته ، وأنه نشأ في قوم يحبون مثل ما أحب ، ويمجبون بمثل ما أعجبه ، ومنهم أبوه الذي نظم الشعر في أكثر من مناسبة وروى عنه أنه قال لما توعده أبو عمرو ابن أمية :

أيوعدنى أبو عمرو ودونى رجال لا ينههما التوعيد^(٤)

.....

ربيع المعدمين وكل جار اذا نزلت بهم سنة كؤود^(٥)
هم الرأس المقدم من قریش وعند بيوتهم تلقى الوفود

(١) أطال الإقامة به ، أو نزل به . (٢) الحاجة . (٣) معنى العبارة :

أي استنبط عين الشعر ، وشق طريق المعاني ، وأتى بالشوارد الحسان .

(٤) نهضه عن الشيء : أي كفه وزجره . (٥) أي شاقة .

فكيف أخاف أو أخشى عدوا ونصرهم اذا أدعو عتيد^(١)
فلست بعادل عنهم سواهم طوال الدهر ما اختلف الجديد
الى آخر ما نسب اليه ..

فأقرب شيء الى الواقع - والى المتوقع - أن يؤخذ ببلاغة القرآن
رجل نشأ هذه النشأة ، وأحب الكلام البليغ هذا الحب ، وأن يخشع
لآياته ويعجب لتفصيله ، فيفتح من قلبه مسالك الاصغاء

وكان عمر مستقيم الطبع مفطورا على الانصاف ، فلم يكن رجل مثله
ليستريح الى فساد الجاهلية ، أو ينكر فسادها ، اذا نبه اليه وهدى
الى ما هو خير منه

وكانت النزعة الدينية ورائة في أسرته ، على ما يظهر من مبادرة أخته
فاطمة وابن عمه سعيد بن زيد الى الاسلام ، وكان له قبل الاسلام رجل
من عمومته يقدح في الوثنية ويبحث عن الحق في النصرانية واليهودية ،
ويتلى أهله بالخلاف ويتلونه بالايذاء والحبس والارهاق ، ونعنى به
زيد بن عمرو بن نفيل

وعمر نفسه ألم يقل لنا انه يئس ليلة من السمر ومن الخمر فذهب
يطوف بالبيت كأن طواف البيت شهوة من شهوات قلبه تتوب عنه مناب
المحسوب من الشهوات ؟ .. ألم يكن في الجاهلية ينذر أن يعتكف ليلة من
كل أسبوع ؟ .. بل لعل صلابة الخطاب أبيه لم تكن في صميمها شيئا
مناقضا لعنصر الدين والايمان . فان هؤلاء الصلاب الشداد في المحافظة
على العرف هم أولئك المؤمنون المتزمتون الذين لا يطيقون المساس
بعقائدهم اذا آمنوا بدين

وزاد عمر على الوراثة الدينية أنه كان صاحب فراسة وزكاته وكان^(٢)
يستطلع الرؤى والمنامات ويتصل بالغيب ويصر على البعد كما سلف
في حديث سارية حين ناداه : يا سارية الجبل !.. يا سارية الجبل ، وبينهما
مسيرة أيام ..

٦ - بحرية صر

(١) حاضر مهيا . (٢) ظن بمنزلة اليقين .

وكانت العوارض تمر به فتعطفه الى الاسلام تارة من طريق الرحمة وتارة من طريق العدل والنخوة ، فيخشع ويندم ويراجع عناده وكبرياه . اذ ليس أبغض الى الرجل الأبى المنصف من أن يحارب أناسا لا يحاربونه ويلج^(١) في ايداء قوم لا يقدرّون على أذاه ..

فاذا تفتحت هذه الأبواب جميعا بين عمر والاسلام ، فباب واحد موصل^(٢) لن يحجبه طويلا عن هذا الدين ، ولن يحجب هذا الدين طويلا عنه وقد تفتحت في يوم من الأيام

تفتحت كلها فدخلها دخول العاصفة من جميع الأبواب ، وأسلم الجاهلى الشريف كما كان ينبغى أن يسلم ، وكما كان يقينا سيسلم في مناسبة من المناسبات

فاذا العالم الانسانى قد تفتحت فيه صفحة جديدة

صفحة يقرأ فيها القارئ قبل كل شئ ماذا يصنع الاسلام بالنفوس ، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منبثة من لدن^(٣) المقادير التى تسيطر على هذا الوجود : كان قدرة تلبس الضعيف فيقوى ، وتلبس^(٤) القوى فتسمى قوته وتجرى به في وجهته ، وكان يدا خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة في التيه^(٥) فاذا هى صرح^(٦) له أساس وأركان ، وفيه مأوى للضائير والأذهان

جاهلى كسبه الاسلام فكسبه العالم الانسانى كله الى آخر الزمان .. ونفس ضائعة ردت الى صاحبها فغرق منها ما كان ينكر واطلع منها على ما كان يجهل ، ونفع بها أمته وأما لا تحصي ، وصنع بها الاسلام أعظم وأفخم ما تصنعه قدرة بناء وانشاء ، حيثما كانت قدرة بناء وانشاء . ونظرت الأمم فرأت كيف تعلو النفس الانسانية حتى يحارقيها الانسان وهو ريشة في مهب النوازع والاشجان

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة ، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروى ظمأه الا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يصحو ولا ينام الا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يتنفس الهواء

(١) أي يبالغ . (٢) مغلوق . (٣) أي عند . (٤) الماهر . (٥) المفازة ، والضلال . (٦) القصر وكل بناء عال .

الا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول^(١) دولة الباطل بين الناس ، وكأنا العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم^(٢) ، وهو وحده أقوى في المطالبة بهما من ألف غريم ..

لقد كان هذا الرجل المجيد يبغي^(٣) أن يظلم غيره أشد من بغضه أن يظلمه غيره^(٤) : وهذه منزلة في الاتفة لا تطاولها المنازل ، لأنها منزلة الإبطال الذين يسمون على أنفسهم ، ولهم أنفس أسى من عامة الإبطال وانا لنعلم كم حز في قلبه الكريم أن بضرب بريئا على دين الحق كلما رجعنا الى أيامه الأولى بعد الاسلام ، وهى أيام لا ننسى في تاريخ البطولة والإبطال ..

فما شغله أمر بعد اعلان الدين الا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناسا في سبيل ذلك الدين

ثار الى الناس يضربونه ويضربهم ، فقام خاله يسأل : ما هذه الجماعة ؟ .. قيل له ان ابن الخطاب قد صبا^(٥) ... فقام على الحجر فنادى : ألا اننى قد أجرت ابن أختى : فأنكشف الناس عنه : فكان لا يزال يرى مسلما يضرب ولا يضربه أحد ، وثقل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين ، فذهب الى خاله وقد اجتمع الناس في الحجر وناداه : اسمع !.. جوارك مردود عليك . قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدرى : لا تفعل يا ابن أختى . فأصر على ود جواره ، وطاب له بعد ذلك أنه اقتص من نفسه للأبرياء الذين ضربهم وهو يجهل دينهم ، فلا تمضى تلك الضربات بغير قصاص ، وان كفر عنها بالتوبة واعزاز الدين الذى إيذاهم من أجله

وأبى من اللحظة الأولى الا أن يواجه الخطر الأكبر في سبيل دينه . والا أن يقبض على الثور من قرنيه كما يقول الغريون في أمثالهم ، وأن يتحدى قريشا بحقه مذ آمن بأنهم على باطل ، فسأل أناسا : أى أهل مكة أقلل للحديث ؟ .. قيل له : جميل بن معمر الجمحي . فذهب اليه فصرح له باسلامه !.. ولم يكذب الرجل الظن به ، فما هو الا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه الى أندية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته

(١) أي تغلب وتنهزم • (٢) المراد هنا : الاول • (٣) الكريم الاصل

(٤) أي استنكف • (٥) يعلون ويترفعون • (٦) أي ترك دينه الى دين آخر •

على باب المسجد : يامعشر قريش !.. ألا ان عمر بن الخطاب قد صبا ، وعمر يقول من خلفه : كذب !.. ولكنى أسلمت، وشهدت أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله . ثم تنشب المعركة بين هذا الرجل المفرد وبينهم فيشب على أذنهم منه وأجرأهم عليه — عتبة بن ربيعة — فيصرعه ويبرك عليه يضربه ، ويدخل اصبعيه في عينيه ، لأنها عمياوان عن الحق لا تبصران النور !.. ويتكاثرون عليه فلا يدنو منهم أحد « الا أخذ شريف من دنا منه » حتى أحجموا^(١) عنه وركدت^(٢) الشمس وفتر^(٣) من طول الصراع ، فجلس وهم قائمون على رأسه يثلبسونه وهو يقول لهم : « افعلوا ما بدا لكم ، فوالله لو كنا ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم » ..

افعلوا ما بدا لكم !.. وهذا ما أراد .. فما يستريح وجدانه الحي أن يضرب مسلما لاسلامه، ولم يضرب كافرا لكفره ، وما يشعر أنه وفي الله دينه ، وقد ضرب ولم يضرب ، وآذى أناسا ولم يؤذ أحد ، وما تهدأ حاسة العدل فيه — وقد كانت كأنها من حواس بدنه — الا أن يحس القصاص في نفسه كما أحس المضروبون بالأمس عدوانه في أنفسهم « وراح يسأل النبي : يا رسول الله !.. ألسنا على الحق ان متنا أو حيينا ؟.. فقال عليه السلام : بلى والذي نفسى بيده انكم على الحق ان متم وان حييتم . قال : ففيم الاختفاء ؟.. والذي بعثك بالحق لتخرجن ! » فما لبث النبي أن خرج في صفين ، أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة . ولهما كديد^(٤) كأنه كديد الطحين ، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة^(٥) فلا يجرؤ سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان .. وسماء النبي يومئذ بالفاروق

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا ، الا عمر بن الخطاب ، فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب^(٦) قوسه وانتضى في يده أسهما واختصر عزته^(٧) ومضى قبل

(١) أي كفوا • (٢) استوت • (٣) الانكسار والضعف • (٤) صرح بالعيب فيه وتنقصه • (٥) التراب الناعم • (٦) سوء الحال والانكسار من الحزن • (٧) أي وضعه على منكبيه • (٨) أطول من العصا ، وأقصر من الرمح •

الكعبة والملا من قريش بفنائها .. فطاف في البيت سبعا متمكنا ، ثم أتى
المقام فصلّى ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم : ^(١)شاهت
الوجوه !.. لا يرغم الله ^(٢)الا هذه المعاطس !.. من أراد أن يتكل أمه أو
يوتّم ولده أو يرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي ... »

لقد كان له في تحديه هذا لفريش عدتان : شجاعته وعدله .. فما كانت
شجاعته في هذا النحدى بأظهر من عدله ولا كان عدله فيه بأظهر من
شجاعته . اذ الشجاع الحق مطبوع على الافة من الظلم لأنه شديد
الاحساس بذله . ومن كان شديد الاحساس بذلّ الظلم فهو شديد
الاحساس بعزه العدل من طريق واحد . وقلما أغضب العادل الشجاع
شيء كاستطالة الظالم وظنه أن المظلوم لا يستطيع عليه : فذلك هو
التحدى الذي يثير الشجاعة ويثير النعمة على الظلم أو بتير حب العدل
في وقت واحد . وان الموت لأهون من الصبر على هذا النحدى المرذول
وهذا الصلف ^(٣)التبجح ، وما الشجاعة ان لم تكن هي الجرأة على الموت
كلما وجب الاجترأ عليه ؟.. وأى امرئ أولى بالجرأة من الشجاع الذي
يعلم أن الحق بين يديه ؟.. ألسنا على الحق ان حيننا وان منا ؟.. فعلى
الحق اذن فلنمب ، ولا نعيشن على الباطل .. فالباطل كرهه والجبن كرهه
وذانك ملتقى العدل والشجاعة في قلب العادل الشجاع

ونهج عسر طريقه في الاسلام كما نهج طريقه الى الاسلام : كلاهما
طريق « عمرى » هو أشبه به وهو أفدر عليه ، وكلاهما طريق صراحة
وقوة لا يطبق اللف والتتطع ^(٤)ولا يحفل بغير الجد الذي لا عبت فيه ...
فلا وهن ولا رياء ولا حذقة ولا ادعاء . وما شئت بعد ذلك من اسلام
صريح قويّم فهو اسلام عمر بن الخطاب

قال في بعض عظاته : « لا تنظروا الى صيام أحد ولا الى صلاته ،
ولكن انظروا من اذا حدث صدق ، واذا ائتمن أدى . واذا أشفى - أى
هم بالمعصية - ورع »

- (١) قبحت • (٢) أرغم الله أنفه : ألصقه بالرغام وهو التراب .
- (٣) وهو الانف • (٤) الشكل : ففدان المرأة ولدها • (٥) : مجاوزة الحد .
- (٦) المغلاة .

وقال في هذا المعنى : « لا يمجبنكم من الرجل طنطنته ^(١) ، ولكن .. من أدى الأمانة الى من ائتمنه ، وسلم الناس من يده ولسانه »
وقال في عمل الدنيا والآخرة : « ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا ، أو عمل للدنيا وترك الآخرة ، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه . وانما الحرج في الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية ... »

ولم يكن أبغض اليه ممن يتوانى ^(٢) ليقال : انه متوكل على الله . أو يتراءى ^(٣) بالضعف ؛ ليقال : انه ناسك ، أو يفرط في العبادة ؛ ليقال : انه زاهد في الدنيا ..

فكان يقول : « ان المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتكل على الله » ... و « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني .. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وان الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض » ..

وكان يضرب من يتماوت ويستكين ^(٤) ليظهر التخشع في الدين ، فنظر الى رجل مظهر للنسك ^(٥) متماوت فخففه ^(٦) بالدرة وقال : « لا تمت علينا ديننا أماتك الله » وأشاروا له الى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له : كل يا دهر ! .. كل يا دهر ! .. ينهاه عن الصوم الذي يعوقه عن معاشه ولا يوجهه عليه الدين

وكان كلما رأى شاباً منكساً رأسه ، صاح به : « ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما في القلب ، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فانما أظهر للناس نفاقاً الى نفاق »

وانما كان يعجبه الشاب الناسك ^(٧) نظيف الثوب طيب الرائحة ، ويرى المسلمين بخير ما علموا أبناءهم الرمي والعموم والفروسية ، فأنتم بخير كما قال : « ما نزوتهم ^(٨) على ظهور الخيل »

دين الرجل القوى الشجاع الذي ينتصر بدينه في ميدان الحياة ، وليس بدين الواهن المهزوم الذي تركته الدنيا فأوهم نفسه انه هو

(١) حكاية صوت الطنبور وشبهه . (٢) أيقصر . (٣) يتظاهر .

(٤) يخضع وينذل . (٥) العبادة . (٦) أي ضربه . (٧) أي العابر . (٨) أي وثبتهم .

تاركها ليقبل على الآخرة

وكانت شجاعته في دينه أندر الشجاعات في النفوس الآدمية ... لأنها الشجاعة التي يواجه بها تهمة الجبن وهو أرذل من الموت عند الرجل الشجاع . فإن كثيرا من الناس ليعدلون عن الصواب الذي يظهرهم بمظهر الخوف ليقبل انهم شجعان ، وانهم في عدولهم عنه لمن الجبناء المستعبدین للثناء ، ولم يكن عمر يعدل عن صواب فهمه ولو قيل في شجاعته ما قيل ، وتلك أشجع الشجاعات

فشا طاعون عمواس ، وعمر في طريقه الى الشام ، فلقه أبو عبيدة وأصحابه عند تبوك وأخبروه خبر الطاعون ، فاستشار المهاجرين والأنصار ، فاختلفوا بين ناصح بالمضي وناصح بالقفول^(١) : ناصح بالمضي في طريقه يقول انه خرج لأمر ولا يرى له أن يرجع عنه ، وناصح بالقفول يقول انه اصطحب « بقية الناس وأصحاب رسول الله ولا يرى أن يقدمهم على وباء » ... ثم دعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم يختلف عليه رجلان وأشاروا جميعا بالرجوع . فقال أبو عبيدة : أفرارا من قدر الله ؟ قال عمر : نعم ، نفر من قدر الله الى قدر الله .. أرأيت لو كان لك ابل هبطت واديا له عدوتان^(٢) ، احدهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس ان رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ .. وما رام مكانه حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف لحسم الخلاف برأى النبي في الخروج من أرض الطاعون والقدوم اليها حيث قال عليه السلام : « اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وأتمم بها فلا تخرجوا منها » ..

فكان ايمانه بصيرا لا يهجم به على عياء ولا يستسلم فيه استسلام المعزة وهو قادر على الحيطة والأخذ بالاسباب ، وكانت نصيحته العامة للمسلمين في أمر الطاعون كراهيه الخاص في أمر نفسه وصحبه ، فأمرهم بالاستنقاذ ما وجدوا له سبيلا وكتب الى أبي عبيدة : « انك قد أنزلت

(١) بالرجوع . (٢) العدو : جانب الوادي وحافته . (٣) أي لبث فيه ولم يغادره .

الناس أرضا غنقة — أى وخيمة — فارفهم الى أرض مرتفعة نزهة « ، وهو أحوط ما يحتاط به أمير عالم فى هذه الايام كذلك لم يكن يؤمن بشئ ينفع أو يضر غير ما عرفت اسباب نفعه وضرره ، فكان ينظر الى الحجر الأسود فيقول كلما استلمه : انى لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبّلتك ..

وسمع أن الناس يأتون الشجرة التى بايع رسول الله تحتها بيعه الرضوان ، فيصلثون عندها ويتبركون بها ، فأوعدهم وأمر بها أن تقطع ، مخافة أن تسرى الى الاسلام من هذه المناسك وأشباهاها لوثة من الوثنية والتوكل على الجماد

وربما التبس الأمر من نوادر عمر فى التقشف واجتناب المتع والمناعم فحسبت فرائض يوجبها ويجرى على طريقة أولئك النسالك المتخشعين الذين كان ينهاهم أن يمتوا الدين ويهزأ بهم كلما تنطعوا فيه وأوجبوا ما لا يجب على المؤمنين

فلا يلتبس الأمر هذا الملتبس ، فهو واضح بين التفرقة من سيرته ومن الأحاديث التى صحبت تلك النوادر ، ففسرتها ودلت على الغرض منها فعمر كان مسلما وكان خليفة للمسلمين . وفرق بين محاسبة المسلم نفسه وهو مسئول عنها دون غيرها ، وبين محاسبة الخليفة نفسه حتى يقع الشك فى عمله ، وينزّه يده وأيدى أهله عما ليس لهم بحق من سلطان الحكم أو بيت المال ، ثم يفى لذكرى صاحبه الذى خلقه على المسلمين ، فلا يعيش فى مكانه خيرا من عيشته ولا يمنح نفسه وذويه ما لم يمنحه النبى لآله وذويه .

وعمر الذى كان يقنع بالخشن الغليظ من المأكّل والملبس ويأبى أن يذوق فى المجاعة مطعما لا يسع جميع المسلمين انما هو الخليفة الذى يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية ، وقد وجد منهم من لاهه لأنه طرح^(٢)

(١) الحمق ، ومس الجنون . (٢) تنطعوا هنا : بمعنى تغالوا .

(٣) : رماه .

كسائه وفيه فضل ملبس . فائق هذا الحساب وما وراءه من حساب الله هو الذى توحاه^(١) خليفة النبى فى معيشته ومعيشة أهله ، مما يشبه تقشف النساءك ..

وعلى هذا كان أعلم الناس أن الطيبات حلال وأن النهى عن الحلال تنطع^(٢) فى الدين يأباه الاسلام

كتب اليه أبو عبيدة أنه لا يريد الإقامة بأنطاكية لطيب هوائها ووفرة^(٣) خيراتها ، مخافة أن يخلد الجند الى الراحة فلا ينتفع بهم بعدها فى قتال . فأنكر عليه ذلك وأجابه : (ان الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات ، فقال تعالى فى كتابه العزيز : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم^(٤) » وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون فى مطعمهم ويريحون الأبدان^(٥) النصبة فى قتال من كفر بالله) ..

وحدث حذيفة بن اليمان أنه أقبل على الناس وبين أيديهم القصاع فدعاه عمر الى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت ! فقال حذيفة : « أمنعتنى أن آكل الخبز واللحم ودعوتنى على هذا ؟ .. قال : انما دعوتك على طعامي . فأما ذاك فطعام المسلمين »

فلمسلمين حل ما شاءوا من الطعام أما الرجل الذى ينفق من بيت المال فله ما يكفيه . والخرج كل الحرج عليه — وهو فى عدل عمر وحزمه وجلده — أن يأخذ منه ما لا حاجة به اليه ، وانه ليزداد حرجا على ما فيه من قناعة أن يكون من أصحاب رسول الله ويعلم كيف كان رسول الله يأكل فى بيته وماذا كان يجد من الملبس له ولأهله ، ثم يصيب من هذا أو ذاك خيرا مما أصاب الرسول

وللولاة عنده مثل ما للمسلمين عامة من حق المتعة السائغة والنعمة التى^(٦) ترضاها الرجولة ، لا يأخذهم بمحركاته لأنهم يتولون الأمر كما تولاه . بل ربما لامهم على التقدير كما كان يلومهم على الاسراف^(٧) أنكر على عامله فى اليمن حلالا مشهورة^(٨) ودهونا معطرة فعاد اليه فى العام

(١) أي قصده . (٢) أي تغال . (٣) أي كثرة . (٤) : يركن (٥) الآية : ٥١ من سورة « المؤمنون » . (٦) التبعة . (٧) أي الجائزة . (٨) برود اليمن . (٩) تلبس للخيلاء .

الذى يليه أشعث^(١) مغبرا عليه اطلاس^(٢)، فقال : لا . ولا كل هذا .. ان عاملنا ليس بالشعث ولا العافى .. كلوا واشربوا وادهنوا انكم ستعلمون الذى أكره من أمركم

ومن تمام العلم باسلام عمر؛ أن نعلم فضل اسلامه مع من لم يكن من أهل الاسلام ، فان الحق الذى يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود، يدخل فى باب السياسة القومية؛ أكثر من دخوله فى باب الفضيلة الانسانية . وانما يصبح جديرا باسم الحق، حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه

وعمر كان ولا ريب أشد المسلمين فى اسلامه

فلو كان الاسلام ظالما بطبيعته لِمَن لم يدخلوا فيه ؛ لكان عمر أشد المسلمين ظلما لهم وقسوة عليهم . لكنه كان فى الواقع أشد المسلمين رعاية لعهدهم مذ كان أشد المسلمين غيرة على دينه وعملا بأدبه

فكان شأنه مع من حاربوه شأن المحارب الشريف ، ولن ينتظر محارب من محارب الى آخر الزمان معاملة أقوم ولا أصدق من معاملة عمر لمحاربيه وكان شأنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يفى بعهدهم ويخلص فى الوفاء به اخلاص من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه ، ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه ..

كتب للنصارى فى بيت المقدس أمانا على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن ، وحان وقت الصلاة وهو جالس فى صحن كنيسة القيامة فخرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بفرده . وقال للبطررك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا : هنا صلى عمر ! .. ثم كتب كتابا يوصى به المسلمين ألا يصلى أحد منهم على الدرجة الا واحدا واحدا غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها .

وكذلك كان يفعل فى كل موضع صلى فيه من الكنائس التى عاهد النصارى على تركها وتحريم هدمها وسكنها

(١) : المغبر الرأس • (٢) : ثياب خلقة بالية •

أما عهده لهم فقد كان مثالا من السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت

فكتب لهم العهد الذى قال فيه : « ... هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها : انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .. وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وأن يخرجوا منها الروم واللصوت ، فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ... ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم^(١) وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ... »

وليس لذي عهد من ظافر^(٢) أن يطمع في أمان أكرم من هذا الامان وانه لقد كان يعطهم عليه وعلى قومه هذه العهد ثم لا يقنع بها حتى ينفعها بالوصاية للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة ، وأن يوفى لهم بعهدهم وينضح عنهم^(٣) ولا يكلفوا فوق طاقتهم : كتب بذلك الى أبى عبيدة كما كتب الى غيره من الولاة وأوصى به في وصيته قبل أن يموت ..

وما شكك اليه مظلوم من أهل الذمة واليا كبير أو صغر الا أنصفه منه . بعث زياد بن حدير الاسدى على عشور^(٤) العراق والشام . فمر عليه تغلبى نصرانى معه فرس قوموها بعشرين ألفا . فخيره أن ينزل عن الفرس ويأخذ تسعة عشر ألفا أو يمسكها ويعطى الألف ضريبة . فأعطاه التغلبى ألفا وأمسك فرسه ، ثم مر عليه راجعا في سنته فطالبه بضريبة أخرى . فأبى وشكاه الى عمر وقص عليه قصته فما زاد على أن قال له : كفيت !.. ثم رجع التغلبى الى زياد وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى ، فوجد

(١) : اللصوص • (٢) : البنييع : الكنائس • (٣) : اي منتصر • (٤) : اي

يزب ويرفع • (٥) : جمع عشر • (٦) : أى هيا •

عمر قد كتب اليه : من مر عليه فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً الى مثل ذلك اليوم من قابل !

وسمع أن بنى تغلب لا يزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينازعهم ، وأنهم أوغروا^(١) صدره ، فقال فيهم يتوعدهم :

إذا ما عصبت الرأس منى بمشوذ^(٢) فنيك منى تغلب ابنة وائل فخشي أن يضيق بهم صبره فيسطو عليهم ، فعزله وأمر غيره ..

ولعل حاكما من الحكام لا يرام منه أن يبلغ في البر بمخالفه في الدين مبلغاً أكرم وأرفق من اجراء الصدقة على فقرائهم ، ولا سيما الحاكم الذي يدعو الى دين جديد

وقد تقدم أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر . وقال : ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ..

وقد جعل ذلك سنة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوزين^(٣) ...
فمر في أرض دمشق بقوم مجذمين^(٤) من النصارى . فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت

وإذا أحصيت له في سيرته الطويلة أوامر وخططا تحرم الذميين بعض الحريات أو بعض الحقوق فكن على يقين أنه قد صدر في ذلك جميعه عن حكمة توجيها سياسة الدولة ، ويطرها العقل والعرف ، كما يقرها الدين والكتاب ، ولم يصدر فيه قط عن حيف^(٥) مقصود أو عن رغبة في حرمان الذميين حرية يستحقونها أو حقاً هم أحرار فيه

ولعل الذى يحصى له من هذه الأوامر والخطط لا يعدو النهى عن استخدام بعض الذميين ، ومنعهم أن يتشبهوا في الأزياء والمظاهر بالمسلمين ، واجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية في ابان الفتوح والحذر من الكيد والتجسس والاتقاض

فأما نهيه عن استخدام بعض الذميين فارجع الى ما قاله في ذلك ، تعلم انه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكراهة الظلم والمحاباة فقال :
« انى نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فانهم يستحلون الرشى^(٦) »

(١) توقد من الفيظ . (٢) بعمامة . (٣) أي المحتاجين . (٤) أي أصابهم الجذام . (٥) : الجور والظلم . (٦) أي وقت . (٧) أي الرشوة .

وطلب يوما من أبى موسى رجلا ينظر في حساب الحكومة، فأثام
بنصرانى ، فقال : انى سألتك رجلا أشركه فى امانتى، فأثيت بمن يخالف
دينه دينى ، وقلمنا نهى عن استعمال اليهود والنصارى الا ذكر
بمدها : أنهم أهل رشى ، ولا تحل فى دين الله الرشى !

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق . فعرض عليه أن يسلم
حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين . فأبى ، وأعتقه وأطلقه وقال
له : اذهب حيث شئت ! ..

فلم يكن نهيه عن استخدام أهل الكتاب فى مهام الدولة الا اثارا
للعدل وكراهة للرشوة والزيغ^(١) فى الحكومة ، وما نظن أحدا ينكر أن
استخدام الغرباء عن الدولة خليك أن يحاط بمثل هذا الحذر وأن تجتنب
فيه مثل هذه الآفة . اذ يكتر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول
وهم غرباء عنها كارهون لمجدها وسلطانها أن ينظروا الى منفعتهم قبل أن
ينظروا الى منفعتها . وأن يساوموا على نفوذهم قبل أن يستحضروا
الغيرة على سمعتها ، والرغبة فى خيرها وخير أهلها . ولا سيما فى زمن
كانت الدولة تميز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان

وما من أمة فى عهدنا هذا تبيح الوظائف العامة الا بقيود وفروق متفق
عليها : أولها تحريمها على الاجانب ما لم تكن فى استخدامهم منفعة عامة
وهذه هى سياسة عمر فى مسألة الوظائف القومية ، بغير اعنات^(٢)
للدولة ولا اعنات للرعية ، وكفى باتقاء الاعنات أن العبد المملوك يخير
فى الوظيفة والاسلام فيأبى ، فلا يصيبه من ذلك ضيم^(٣) . ويطلق له زمامه
يفعل ما يشاء ..

أما نهيه عن تشبه الذميين بالمسلمين وكراهته أن يدلوا أزياءهم التى
ولدوا عليها ، فلا يلام عليه حتى نعلم لِم كان أناس من الذميين يودون
التشبه بالمسلمين فى الزى والشارة ؟ .. أكانوا يتشبهون بهم حبا لدينهم
فهم اذن مسلمون لا يمنعهم مانع أن يجهروا بالاسلام .. أم يتشبهون بهم
كيدا لهم ورغبة فى التسلل بينهم والافلات من عهودهم والتزاماتهم وما

(١) : الميل . (٢) من معاني العنت : الوقوع فى أمر شاق . (٣) : الظلم .

توجيه الدولة عليهم في تلك العهود والالتزامات ؟ ..
ان كانوا يفعلونه لهذا فلا لوم على عمر أن يأباه . وبخاصة في الزمن
الذي كان المسلمون فيه جميعا في حكم الجنود ، وما من دولة ترضى أن
تبيع أزياء جنودها لمن يشاء
وأما اخراج بعض الذميين من الجزيرة ، فما خرج منهم أحد الا وقد غدر
بذمته وكرر الغدر مرة بعد مرة ، كما صنع أهل خيبر
ومنهم من أجلى عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلا عن تقضه العهد ،
كما فعل أهل نجران

فقد صانحهم النبي على أن يبقوا في مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا
يتعاملوا به ، وجاء أبو بكر فجدد الصلح على ذلك ، ثم استخلف عمر
فرجعوا الى الربا وأفرطوا فيه ، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا
بينهم وأتوا عمر يسألونه اجلاءهم فاستحب هذا الجلاء
على انه لم يكن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة ويؤدوا
العشور . فلما كتب اليه المشركون من أهل منبج أن « دعنا ندخل أرضك
تجارا وتعثرنا » شاور أصحاب النبي فأشاروا عليه بقبولهم ، فدعاهم اليه

ولا يفوتنا في هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الاجلاء التي لجأ اليها
عمر ، وأيقن بصوابها وضرورتها .. فأول الأمرين ان الجزيرة حرم الاسلام
الذي كان يحيط به أعداؤه ويتربصون به الدوائر ويشيرون الفتنة على
أطرافه ، كما صنع الفرس بالعراق ، والروم بالشام ، ولا أمان على حرم
يسكنه أناس فيهم من يغدر بأهله ، بل فيهم من هؤلاء كثيرون ..
وثاني الأمرين أن عمر قد سوّى بين الاسلام والنصرانية في هذه
الخطة ، فحفظ حرم النصرانية ببيت المقدس للمسيحيين لا يسكنه معهم
من لا يقبلونه ، كما حفظ حرم الاسلام بالجزيرة العربية للمسلمين
لا يسكنه معهم من يحذرون غدره ..

وقد أجمل العوض حين ألجأته ضرورة الدولة الى اتخاذ هذه الخطة
فاشترى بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأقطعهم^(١) النجرانية عند الكوفة ،

(١) أي جعلها لهم .

وكتب لهم وصاة قال فيها : « ... هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران . من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين ... ومن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الارض ، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله ... ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم ، فانهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرا بعد أن يقدموا ، ولا يكلفوا الا من صنعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم »

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذي يختار بعده بالذمين كافة « أن يوفى بمعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم » ... ودون هذا بالمراحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات في كل ما اتخذت من حيطة حرية، أو حماية فومية، أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية ، وإن عذرها لدون عذر عمر في خطئه وإن أسبابها لدون أسبابه في الاقتناع ..

كان مسلما شديدا في اسلامه ، فلم تكن شدته في اسلامه خطرا على الناس ، بل كانت ضمانا لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمي ولا مشرك في غير حدود الكتاب والسنة .

وكان جاهليا فأسلم . فأصبح اسلامه طورا من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الاسلام قدرة بانية منشئة في التاريخ الانساني لما كان اسلام رجل طورا من أطواره الكبار .

وكان هذا الرجل يحب ويكره كما يحب الناس ويكرهون ، ولكن لا يتفعل عنده أن يحبك ولا يضيرك عنده أن يكرهك اذا وجب الحق ووضح القضاء . قال يوما لأبى مريم السلولى قاتل أخيه : والله لا أجبك حتى تحب الارض الدم المسفوح !.. فقال له أبو مريم : أتمنعنى لذلك حقا ؟.. قال : لا .. قال : لا ضير^(١) !.. انما يأسى على الحب النساء

وحسبك من اسلام يحمى الرجل من خليفة يبغيه وهو قادر عليه ، فذلك المسلم الشديد في دينه ، والذي يشتد فيأمنه العدو والصديق

عمر والدولة الإسلامية

تأسست الدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر رضى الله عنه لأنه وطد العقيدة وسير البعوث . فشرع السنة الصالحة في توطيد^(١) العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الردة ، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح . فكان له السبق على خلفاء الاسلام في هذين العملين الجليلين .

الا اتنا نسمى عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة . لأننا « أولاً » لا نجد مكاناً في التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام

ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في اقامة دولة كالدولة الإسلامية . اذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الانحاء مؤسساً لدولة الاسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم ، فجهر بدعوة الاسلام وأذانه ، وأعزها بهيمته وعنفوانه .

وكان مؤسساً لها يوم بسط يده الى أبي بكر، فبايعه بالخلافة، وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها ، وكان مؤسساً لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم ، وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم ، ولم يزل يراجع أبا بكر في ذلك، حتى استدعى زيد بن ثابت كاتب الوحي، فأمره أن يتبّع آى القرآن ليجمعها من الرقاع والاكتاف والعصب^(٢) وصدور الرجال ، فكان ذلك أول الشروع في جمع الكتاب ..

هذا الى أن أبا بكر رضى الله عنه أسس، ولم يتسع له الاجل حتى

(١) : أي تمكين وتقوية . (٢) أي عصب النخل .

يفرغ من عمله ، وجاء عمر بعده فأنتم عمله وأقام الأساس ثم أقام عليه البناء .. وكانت قدرته على التأسيس هي آية الآيات فيه ، وفي ذلك العصر من البداوة البادية^(١) ، لأنه التفت الى مواضع الخليفة^(٢) بالاهتمام والتقدير كأنه راجع تاريخ عشرين دولة مستفيضة الملك راسخة العمران . وهي قدرة تروّعنا وتدهشنا لو شهدناها من ملك تربى على الملك ، وسلفه على عرشه سمط^(٣) من الملوك ، وأولى أن تروّعنا وتدهشنا من رجل البادية الذي يقدم على أمر جديد ، لم تعنه فيه السوابق ، ولم يهتد فيه الا بما اختار هو أن يهتدى اليه ..

فبعد جمع القرآن لا نعرف عملا يفرن به ويلزمه ويعد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد وكلاهما عمل لا يفتن اليه الا من طبع على سايقة التأسيس وأخذ بها من أصولها . وكلاهما فطن اليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة . فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آي القرآن ، وكان أثره في تدعيم الدولة الأدبية كأثره في تدعيم دولة الغزوات والفتوح ..

وندر في الدولة الاسلامية من نظام لم تكن له أولية فيه .. فافتتح تاريخا ، واستهل حضارة ، وأنشأ حكومة ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصول القضاء والادارة ، واتخذ لها بيت مال ووصل بين أجزائها بالبريد ، وحمى ثغورها بالمرابطين ، وصنع كل شيء في الوقت الذي ينبغي أن يصنع فيه ، وعلى الوجه الذي يحسن به الابتداء . فأوجز ما يقال فيه انه وضع دستوراً لكل شيء وتركه قائماً على أساس لمن شاء أن يبنى عليه ..

وملاك^(٤) النظم الحكومية كلها نظام الشورى الذي أقامه عمر على أحسن ما يقام عليه في زمانه ، فجمع عنده نخبة الصحابة للمشاورة والاستفتاء ، وضمن بهم على العمالة في أطراف الدولة ، تنزيها لأقدارهم وارتفاعاً برأيهم واعتزازاً بتأييدهم له ومعاونتهم إياه فيما تولاه من ثواب أو عقاب

(١) : الظاهرة . (٢) أي الجديرة . (٣) من معاني السمط : خيط فيه

(٤) ملاك الامر : أي قوامه .

وجعل موسم الحج موسما عاما للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء في أقطار الدولة من أقصاها الى أقصاها : يفد فيه الولاة والعمال لغرض حسابهم وأخبار ولايتهم ، ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يشكيهم ، ويفد فيه الرقباء الذين كان يشهم في أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال ... فهي « جمعية عمومية » كأوفى ما تكون الجمعيات العمومية في عصر من العصور

وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم ، ويستمع لهم ويسمعهم ، ويتوخى في جميع ذلك تمحيص الرأي وإبراء الذمة والخلوص الى التبعة السليمة من العقابيل^(١).

وان أضعف الناس رأيا لمن يستضعف فضل الأمير في عمل تولاه ، لأنه عمله بمشاورة غيره

فان باب المشاورة مفتوح لكل انسان ، وليس كل انسان مع ذلك بالذى يريد أن يستشير ، أو بالذى يعرف كيف يستشير اذا أراد ، أو بالذى يحسن الموازنة بين الآراء ان عرف من يستشيرهم ومن يقبل مشورتهم في حالة ويرفضها في حالة أخرى ان المشاورة لفن عسير ..

وان الذى ينتفع بمشورة غيره لا قدر ممن يشير عليه وقد كان عمر عبقرى هذا الفن الذى لا يجارى^(٢). وكان من بدعه المهمة في هذا الفن العسير انه لم يلتمس رأى عند أهل الحنكة والخبرة وكفى ، بل كان يلتمسه كذلك عند أهل الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك في الشعور والتفكير ... فكان كما روى يوسف بن الماجشون : « اذا أعياه الأمر^(٣) المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم » وانه لا الهام في فن الاستشارة لا يلهمه الا صاحب رأى أصيل . فمن رأى الأصيل أن يخبر الانسان كيف يستعير آراء المشيرين . انظر اليه كيف يستشير في اختيار أمير ، تعلم أن الاستشارة كما قلنا : فن ، وأنه فن عسير

(١) : بغايا العلة . (٢) أي لا يضاهي . (٣) الذين أحكمتهم التجارب .
(٤) أي لم يهتد لوجهته . (٥) : الشباب .

قال لأصحابه : دلوني على رجل أستعمله^(١)
فسألوه : ما شرطك فيه ؟..

قال : اذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، واذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم

ان الذي يسأل هكذا لهو أقدر من الذي يجيبه بالصواب ، لأنه قطع له ثلثي الطريق السديد الى الجواب .

وكان ربما استشار العدو الذي لا يأمنه ، كما فعل في سماع رأى الهرمزان في أمر الحرب الفارسية ، لأنه بصير يطلب نورا ، فاذا رأى النور استوى لديه أن يحمل له المصباح عدو أو صديق .

ومن اليسير ، اذا تعقبنا مباحرات عمر ، أن نعلم انه هو واضع دستور الشورى في الدولة الاسلامية .. وان الشورى التي وضع دنورها هي شورى رأى الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء

وقد وضع لقواده دستور الحرب ، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية الى تخوم^(٢) أعدائها ، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده فأرسل المدد الى العراق ، وعليه أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، وعلمه كيف يستشير مجلس الحرب الذي معه ، وكيف يقدم في موضع الاقدام ، ويريث في موضع التريث ، وأجل له ذلك في قوله : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشرکہم في الأمر ولا تجتهد مسرعا بل اتشد^(٣).. فانها الحرب لا يصلحها الا الرجل المكث^(٤) الذي يعرف الفرصة ، ولا يمنعني أن أؤمر سليطا (ابن قيس) الا سرعته الى الحرب . والسرعة الى الحرب الا عن بيان ضياع » وزاده تبصرة بالحيلة فقال له : « انك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية^(٥) ! تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون وأحرز لسانك ولا تفشين سرك ، فان صاحب السر - ما يضبطه - منحصن لا يئوتى من وجه يكره ، واذا لم يضبطه كان بمضيعة »

(١) أي أؤمره وأوليه . (٢) : حدود . (٣) أي ترد وتمهل . (٤) المكث :

اللبث والانتظار . (٥) أي التجبر .

فهي المشاورة ، ثم اناة في الاجتهاد ، الا أن تجب السرعة ببيان وثقة فليكن الاسراع ، وهذه وصية عمر بن الخطاب الذي يظن به الاندفاع . وينسى من يظن به هذا الظن أنه قوى اندفاع وقوى ضابط في وقت واحد ، وعندما يقترن الاندفاع بضابط فهو مزية وليس بعيب

وكتب الى سعد بن أبي وقاص بعد اختياره لحرب فارس ، وفي كتابه له قبس^(٢) من هذا المعنى : اذا انتهيت الى القادسية وهو منزل رغب خصيب دونه قناطر وأنهار ممنوعة ، فنكون مسالحك على ألقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر^(٣) ، على حافات الحجر وحافات المدر والجرا^(٤) بينها ، ثم الزم مكانك فلا تبرحه .. فانك اذا أحسوك أنغصتهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم ، فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتبستم لقتاله وقويت الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدا ، الا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وان تكن الاخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليهم أجراً وبها أعلم . وكانوا عنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتي الله بالفتح »

ثم كتب اليه يستوصفه المنازل التي نزل بها ويسأله : « أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ؟ .. فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجتم عليه والذي استقر عليه أمر عدوكم .. فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن : صفة كأني أنظر اليها واجعلني من أمركم على الجلية^(٥) »

وكتب الى أبي عبيد وقد ترك حصار حلب يستضعف رأيه في ترك حصارها : « ... سرنى ما علمت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء ، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحي التي قربت من انطاكية فهذا بشئ الرأي ... أترك رجلا ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه ؟ .. فما هذا برأى .. يعلو ذكره بما صنع ويطمع من لم يطمع ، فترجع اليك الجيوش

(١) من معاني الاناة : النأي ، والحلم . (٢) : شعلة تقتسم من معظم النار . (٣) : قطع الطين اليابس . (٤) الجراء . رملة مستوية لا تنبت شيئا . الكدير . (٥) : الواضح الظاهر .

وتكاتب ملوكها . فإياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ..
وقد أنفذت اليك كتابي هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه
لله ورسوله ورغب في الجهاد في سبيل الله ، وهم عرب وموال ، رجال
وفرسان ، والمدد يأتيك متواليا ان شاء الله تعالى »

فكان دستوره في الحرب أن يضع الأسس العامة ويعهد في تنفيذها
الى ذى خبرة وأمانة ، ولا يتخلى عن تبعته العظمى في مصائر الحرب كل
التخلى اعتمادا على القائد وحده ، اذ ليس القائد بالمسئول الوحيد عن
المصير ..

فاذا رأى القائد رأيا وخالفه هو في رأيه أعانه بالمدد والمشورة على
الأخذ بالرأى الذى دعاه اليه ، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر وإعائته
عليه ..

ولقد كان الى جانب هذا السهر على الميادين عامة لا يغفل^(١) يد القائد
فيما يحسن أن تنطلق فيه ، فاذا تجاوز الأمر سياسة الحرب العامة من
فتح الميادين وفك الحصار وانتظام الهجوم ، فمن حق القائد عنده أن
يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع اليه ، وأن يجرى في ادارة المعركة على
الوجه الذى تمليه ضرورة الساعة ، ولهذا استشاره أبو عبيدة في دخول
الدروب خلف العدو فكتب اليه : « أنت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد
يرى ما لا يرى الغائب ، وأنت بحضرة عدوك ، وعيونك^(٢) يأتونك
بالأخبار ، فان رأيت الدخول الى الدروب صوابا فأبعث اليهم سرايا
وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم ، وان طلبوا اليك الصلح
فصالحهم ... »

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدائها

وهو يختار القائد الضليع^(٣) بتسيير تلك الحملة

وهو بعد هذا لا يعفى نفسه من التبعة ، ولا يعفى القائد من واجب
الرجوع اليه في المواقف الحاسمة ، ولا يغفل يده فيما هو أدرى به وأقدر
على الاختيار فيه ، ولا ينسى أن يعينه اذا خالفه فى الرأى ليتفق الرايان

(١) أي لا يقيد . (٢) المراد : الجواسيس . (٣) القوي .

المختلفان . فاذا رجع القائد الى الحصار الذى أزمع^(١) أن يتركه رجع اليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل ، ليستمد من الايمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدي عملا يخالف الصواب في تقديره

وهذه السياسة هي السياسة التى جرى عليها عمر في جميع بعوثه وغزواته وسراياه . وهي السياسة التى لا يستطيع حاكم أن يجرى على غيرها في حرب قديمة أو حديثة ، وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد في الميدان ، وجعلت بطل الفرس رستم المشهور في التواريخ والأساطير يقول : ان عمر هو هازمه في الميدان و « انه هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل ! .. اكل عمر كبدي أحرق الله كبده ! .. »



وربما أخطأ القائد الذى يختاره ، فمستته التبعة من هذا الجانب لأنه هو المسئول عن اختياره غير أنها لا تمسه من جانب الا أعفى منها من جانب آخر أو جوانب عدة ، كما حدث في وقعة الجسر التى قتل فيها قائده أبو عبيد المتقدم ذكره ثم انهزم فيها جيش المسلمين . فهو مسئول عن اختيار هذا القائد كما يسأل كل رئيس دولة في مثل ذلك ، ولكن أعذاره على التحقيق أكبر من أخطائه في كل مسألة من هذا القبيل ، وفي هذه المسألة بعينها كان اختياره لأبى عبيد انصافا له حجته الراجحة فيه ، لأنه كان أول من أجاب الدعوة الى القتال ، فلم يرَ من الانصاف أن يؤخر المتقدم ويقدم عليه المتخلفين ، وقد سوغ الرجل اختياره اياه باتتصاراته الاولى التى رفعت شأنه بين القواد ، فلما أخطأ جاءه الخطأ من مخالفة عمر في وصاياه ، ومنها وجوب التريث والحذر من عبور الأنهار والحصور ، ولم يكن على عمر لوم في تقصير عن التنبيه والتحذير وقبل أن يضع دستوراً للولاية وضع دستوراً لنفسه قوامه أن الحكم محنة للحاكم ومحنة للمحكومين ، و « انه لا يصلح الا بشدة لا جبرية^(٢) فيها ولين لا وهن^(٣) فيه » ... وان الخليفة مسئول عن ولاته واحدا واحدا

(١) أزمع على الامر : بب عليه عزمه . (٢) قوام الامر : نظامه وعماده .

(٣) أي تجبر . (٤) أي ضعف .

في كل كبيرة وصغيرة ، ولا يعفيه من اللوم أنه أحسن الاختيار ..
قال يوما لمن حوله : « رأيتم اذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أكنت قضيت ما عليّ ؟ .. قالوا : نعم . قال : لا ، حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا ؟ .. »

وعهوده على نفسه هي خير العهود التي تؤخذ على ولاية الأمر ، وأبينها للحدود القائمة بين الراعي والرعية ، وخير ما فيها أنه كان يحث الناس على الاستغناء عن التحاكم الى الحكام خلافا لأصحاب الامر الذين يودون لو فرضوا لأنفسهم حكما في كل شيء فكان يقول لهم : « أعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا الى ... »
وجمع صلاح الأمر في ثلاث : « أداء الامانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله » ، وصلاح المال في ثلاث : « أن يؤخذ من حق ، ويعطى في حق ، ويمنع من باطل »

وعاهد الناس فقال : « لكم على ألا أجتى شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهه ، ولكم على اذا وقع في يدي ألا يخرج مني الا في حقه ، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأوراقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم » ، ولكم على ألا ألقىكم في المهالك ولا أجركم - أي أجبسكم - في ثغوركم ، واذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم .. فاتقوا الله عباد الله ، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني ، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم » .

ومن أوائل عهوده في بيان الحق الذي يرشح الحاكم لولاية الحكم :
« أيها الناس : اني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم ، وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما وليت ذلك منكم » .

فأحق الناس بالحكم أقدرهم على البر والعزم والنهوض بالأعباء ، وليس له في غير ذلك حق يرشحه للحكومة .

(١) أي أجمع . (٢) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

ومن أوائل خطبه بعد توليه الخلافة : « ان الله ابتلاكم^(١) بي ، وابتلاني بكم ، وأبقاني فيكم بعد صاحبي ، فلا والله لا يحضرني شيء من أمركم فيلية^(٢) أحد دوني ، ولا يتغيب عني فألو فيه عن أهل الصدق والامانة ، ولئن أحسنوا لأحسن اليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم »
فهو يعاهدهم أن يلي الأمر بنفسه في كل ما حضره ، وألا يعهد فيه الى غيره الا اذا غاب عنه ، ثم لا يكون وكلاؤه فيه الا من أهل الصدق والامانة ، ثم هو لا يدعهم وشأنهم بعد ذلك بل يراقبهم ويتتبع أعمالهم ، فيحسن الى من أحسن وينكل بمن أساء
وقد كان يقول ، ويعنى ما يقول ، ويعمل بما يقول ..

وصارح القوم فيما لا يحصى من الخطب والأحاديث ان له عليهم حق الطاعة فيما أمر الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وان لهم عليه حق النصيحة ولو آذوه فيها . ومن ذلك الرواية المشهورة التي سأل الناس فيها أن يدلوه على عوجه فقال له أحدهم : « والله لو علمنا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا » فحكم الله أن جعل في المسلمين من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه ..

ولم يكن يبيع من مال المسلمين أجرا لعمله ! لا ما يقيم أوده وأود أهله عند الحاجة اليه ، فان رزقه الله ما يغنيه عن بيت المال كف يده عنه : « ... ألا واني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولى اليتيم : ان استغنيت استعفت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف : تفرم^(٣) البهيمة الاعرابية : القضم^(٤) لا الخضم^(٥) » أى كما تأكل ماشية البادية قضمًا بأطراف أسنانها لا مضغًا وطحنًا بأضراسها ..

ولما سئل عما يحل للخليفة من مال الله قال : « انه لا يحل لعمر من مال الله الا حلتين : حلة للشتاء وحلة للصيف وما أحج به وأعتمر وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين »

(١) الابتلاء : الاختبار والامتحان . (٢) أي يتولاه . (٣) البعير المكرم : أي المكرم ، لا يحمل عليه ولا يذل . (٤) : الاكل بأطراف الاسنان . (٥) : الاكل بجميع الفم .

وقد كان أسخى من ذلك في تقديره لأرزاق الولاية والعمال ، فقد ر
لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفة ستمائة درهم في الشهر له ولمباعديه .
يزاد عليها عطاؤه الذي يوزع عليه كما توزع الأعطية على أمثاله ،
وبصف شاة ونصف جريب^(١) من الدقيق .

وقدر لعبد الله بن مسعود مائة درهم وربيع شاة لتعليمه الناس في
الكوفة وقيامه على بيت المال فيها ، ولعثمان بن خفيف مائة وخمسين
درهما وربيع شاة في اليوم ، مع عطائه السنوي وهو خمسة آلاف درهم
... وهكذا على حسب الولايات والنققات .

وكان يحظر على الولاية مظاهر الخيلاء والأبهة التي تبعد ما بينهم وبين
الرعية ، ولكنه ينظر في أعذارهم فيقبلها أو يغضى عنها حيثما توقف
صلاح الولاية على ذلك

قدم الى الشام راكبا على حمار فتلقاه عامله معاوية بن أبي سفيان في
موكب عظيم ، فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة فمضى في سبيله
ولم يرد عليه سلامه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل
يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ؟ فالتفت اذ ذلك الى معاوية وسأله : انك
لصاحب الموكب الذي أرى ؟

قال : نعم ..

قال : مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟

قال : نعم ..

قال : ولم ويحك ؟

قال : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ، فان لم تتخذ العدة
والعدد استخف بنا وهجم علينا ، وأما الحجاب فاننا نخاف من البذلة^(٢)
برأة الرعية ، وأنا بعد عاملك ، فان استنقصتني نقصت ، وان اسردتني
زدت ، وان استوقفتني وقفت !

فقال عمر : ما سألتك عن شيء الا خرجت منه . ان كنت صادقا فانه
رأى لبيب^(٣) ، وان كنت كاذبا فانها خدعة أريب^(٤) ، لا آمرك ولا انهاك

(١) : مكيال ، وهو أربعة أقدرة . (٢) : ما يمتحن من الثياب . (٣) : اي

عاقل . (٤) : الدماء وهو من العقل .

أما دنسور الولاية عنده فأساسه أن الولاية نـمـيـز بالواجب والكفاءة وليست تـمـيـيـزا بالوجاهة والاستعلاء ، فكان يقول للوالى : « افتح لهم بابك وباشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أنفلهم حملا »

وشغله كل الشغل أن تخضع الرعية لواليتها رغبة في حكمه واطمئنانا الى عدله ، فكان يقول للوالى : « اعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك من الناس » ويقول للرعية : انى لم أبعب اليكم الولاية ليضربوا أبشاركم ويأخذوا أموالكم ، ولكن ليعلموكم ويخدموكم »

وتستوى عنده رغبة الرعية من المسلمين ورغبة الرعية من غيرهم فلما رأى أقواما ذمين ينقضون العهد ويشيرون على الدولة طلب من صلحاء البصرة وفدا ، فيهم الأخنف بن قيس ، وهو مصدق عنده فسأله : « انك عندى مصدق ، وقد رأيتك رجلا فأخبرنى : « المظلمة تفر أهل الذمة أم لغير ذلك » ؟ ..

فقال الاخنف : « لا .. بل لغير مظلمة والناس على ما نجب »

فهدأ باله وقال : « فنعم اذن ... انصرفوا الى رجالكم »

وربما ذهب فى ارضاء الرعية مذهبا لم يحلم به الغلاة^(١) من المطالبين بحقوق الشعوب فى هذه العصور

فكان من قواده وولاته سعد بن أبى وقاص قائده المظفر فى حروب فارس ، وقريب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرجل الذى جعله عمر واحدا من ستة يستشارون بعده فى أمر الخلافة ، فثارت به طائفة من أتباعه وشكته الى عمر وجيوش الفرس تتجمع للغزو والثأر ، فلم يشغله ذلك عن تحرى الأمر من مصادره ، وايفاد من يبحث عن حقيقة الشكوى بين أهلها .. فبعث بوكيله على العمال محمد بن مسلمة ، يسأل عن سعد وسيرته فى الرعية ، وكلما سأل عنه جماعة أثنوا عليه ، الا من شكوه . فقد أحجم فريق منهم لم يمدحوه ولم يذموه ، وقال فريق منهم : انه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى القضية ، ولا يغزو فى السريّة »

فعاد محمد بن مسلمة الى المدينة وسعد معه ، وأعاد عمر سؤاله فلم ثبت له من أمره رية ، الا أنه اتقى الفتنة والخطوب منذرة ، فعزله وقال لشاكبه : « ان الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم لهذا الأمر وقد استعد لكم من استعداد . وايم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وان نزل بكم » وقال لسعد يومئذ ميراثا له من تهمة خصومه : « هكذا الظن بك يا أبا اسحق !.. ولولا الاحتياط لكان سيلهم بيننا » . ثم أبى أن يفارق الدنيا وفي ذمته شهادة لسعد يعلنها للملا المسلمين ، فلما حضرته الوفاة وسأله أن يستخلف ، أبى أن يخلف أحدا من أهله ، وسمى عليا وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعدا « لأنهم نقر توفى رسول الله وهو عنهم راض ، فأيهم استخلف فهو الخليفة » ... ثم قال : فان أصابت سعدا فذاك ، والا فأيهم استخلف فليستن به ، فاني لم أعزله عن عجز ولا خيانة .

وهذا مثل من أمثلة الوفاء بجميع الحقوق والرعاية لجميع الذمم من حاكمين ومحكومين

ولا يبعد أن يقع الغبن على بعض الولاة الكفاة من فرط العناية بتسكيات الرعية ، الا أن عمر في حزمه وعدله لم يكن يفوته مفرق الصواب بين الأمرين .. فغبن وال أو قائد أهون من غبن أمة أو جيش.. ومن أقواله في ذلك : « هان شيء أصلح به قوما أن أبدلهم أميرا مكان أمير » ..

بل ربما جرى منه حكم العزل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص . وانما هو سبب من الأسباب التي ترجع الى سلامة الدولة أو ما نسميه في العصور الحديثة بالسياسة العليا ؛ وهذه أسباب لا يصح أن يغفل عنها ولاة الأمر في أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة ، وأولها عصمة الدولة من فتنة الولاة المقتدرين المحبوبين فربما كان والى المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة في تأسيسها من والى العاجز البغيض اذا لم يتعهده نظر ثاقب وحساب

عسير ..

فقد تزيّن له نفسه ، أو تزيّن له رعيته ، أن يستقل بالأمر وينتحل^(١) لذلك ما شاء من المعاذير . فإن فاته الاستقلال ورئيسه قوى مهيب لم يفته بعد زوال ذلك الرئيس ، ولو جاء بعده من يضارعه في القوة والمهابة لأن الفترة بين زوال عهد واستقرار عهد آخر تؤذن بمثل هذا النقل وتفتح الثغرات لمن يريد أن يلج منها بعد طول تربص واستعداد ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف تاريخ الاسكندر المقدوني وتواريخ العتاة^(٢) من قياصرة الرومان ، ولا كان الغيب قد انكشف له فرأى ما تلاه من الامثلة في دول المغول والعثمانيين ودول المسلمين من مشرقين ومغربين ، ولكنه لو استقصى أخبارهم جميعا وعرف فتنة الولاة بعد زوالهم لما ندم لحظة على عزل الذين عزلهم وهو يقول لهم : انما عزلتكم لكيلا أحمل على الناس فضل عقولكم ، أو لكيلا تقتتنوا بالناس كما افتن الناس بكم ، ولكان له سبب آخر وجيه بالغ في الوجهة يدعوه الى تغلب رغبات الرعية على مكانة الولاة ، وهو عصمة الدولة من أولئك الولاة أن يطول بهم العهد وتتم لهم القدرة ويحوطهم الحب والولاء فلا يبقى بينهم وبين الانتقاض الا الفرصة السانحة^(٣) ، وهي أقرب شيء سنوحا في ابان^(٤) التأسيس والانتقال

وما لم يكن عزل العمال لسبب من أسباب السياسة العليا التي من هذا القبيل ، فلا جزاء الا بقسطاس دقيق محيط ، ولا سيما في الشؤون المالية ، لأنه يعتمد في محاسبتهم على وسائل متفرقة يستدرك بعضها نقص بعض ، فلا تكاد تخفى عليه خافية مما يريد الوقوف عليه

فمن هذه الوسائل انه كان يحصى أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على ما زادود بعد الولاية مما لا يدخل في عداد الزيادة المعقولة ، ومن تعلق منهم بالتجارة لم يقبل منه دعواه لأنه كان يقول لهم : انما بعثناكم ولاية ولم نبعثكم تجارا

ومنها أنه كان يرصد لهم^(٥) الرقباء والعيون^(٦) من حولهم ليلغوه ما ظهر

(١) : أي بدعي . (٢) أي الجبارين . (٣) أي المهيأة والمؤاتية

(٤) أي وقت . (٥) الترصد : الترقب . (٦) أي الجواسيس .

وما خفى من أمرهم ، حتى كان الوالى من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس اليه أن يرفع نبأه الى الخليفة .

ومنها انه كان يندب لهم وكلاء خاصا يجمع شكايات الشاكين منهم ويتولى التحقيق والمراجعة فيها ، ليستوفى البحث فيما ينقله الرقباء والعيون ...

ومنها أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهارا اذا قفلوا اليها من ولاياتهم ، ليظهر معهم ما حملوه فى عودتهم ، ويتصل نبأه بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم على ملاقى الطريق .

ومنها انه كان يستقدمهم فى كل موسم من مواسم الحج ليحاسبهم ويسمع ما يقولون وما يقال فيهم ، وعليهم شهود ممن يشاء أن يحضر الموسم من أهل البلاد . ونوى^(١) فى أواخر أيامه أن يستكمل الرقابة بالسير فى البلاد ، فيقيم شهرين شهرين فى الشام ، ومصر ، والبحرين ، والكوفة ، والبصرة ، وغيرها . فانه ليعلم « ان للناس حوائج تقطع عنه أما هم فلا يصلون اليه ، وأما عمالهم فلا يرفعونها اليه »

وكان لا يكتفى بوسائله تلك اذا استراب^(٢) ، فيعمد الى الحيلة للكشف عن الخبايا التى تريبه . ومن ذلك انه سمع بعودة أبى سفيان من عند ولده معاوية والى الشام ، فوقع فى نفسه أن ولده قد زوده فى عودته بمال . وجاءه أبوسفيان مسلما فقال له : أجزنا يا أبا سفيان ! .. قال : ما أصبنا شيئا فنجزك ! .. فمد يده الى خاتم فى يده فأخذه منها وبعثه الى هند زوجه ، وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجها : انظرى الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما

فما لبث أن عاد بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرهما عمر فى بيت المال ..

وكانت سنته اذا ثبتت على الوالى شبهة التصرف فى بيت مال المسلمين أن يصادر المال الذى ظفر به أو يقاسم الوالى فيما أربى^(٣) على كسبه المعقول فيترك له النصف ويضم النصف الى بيت المال ، وهذا عدا ما

(١) أى عزم . (٢) من الرعب ، وهو . النك . (٣) سسه : أى طربعته .

(٤) . أى زاد .

يجزيه به من عزل أو عقاب

أما حساب الشكايات من المظالم : فكانت سنته فيه التحقيق ثم الجزاء على شرعة المساواة بين أكبر الولاية وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها . فمن ضُرب ضُرب ، ومن غصب ردَّ ما غصب !... ومن اعتدى قبول بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب وقد يأخذ الوالي أحيانا بوزر^(١) ولده أو ذوى قرابته اذا وقع في نفسه أنهم يستطيعون على الناس بسلطان الولاية ولا ينهاتهم الوالي المسئول عنها ..

جاء مصرى فشكا اليه واليها عمرو بن العاص ، وزعم أن الوالي أجرى الخيل فأقبلت فرس المصرى فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح : فرسى ورب الكعبة !.. ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو ووثب على الرجل يضربه بالسوط ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين . وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصرى فحبسه زمنا .. وما زال محبوسا حتى أفلت وقدم الى الخليفة لابلاغه شكواه ...

قال أنس بن مالك راوى القصة : فوالله ما زاد عمر على أن قال له اجلس ... ومضت فترة اذا به في خلالها قد استقدم عمرا وابنه من مصر فقدا ومثلا في مجلس القصاص . فنادى عمر : أين المصرى ؟.. دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين

« فضربه حتى أثخنه ونحن نشتهى أن يضربه . فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين !.. ثم قال : أجلها على صلعة عمرو !.. فوالله ما ضربك ابنه الا بفضل سلطانه ... قال عمرو فزعا : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت ، وقال المصرى معذرا : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى .. فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه^(٢) . والتفت الى عمرو مغضبا يقول له تلك القولة الخالدة التى ما قالها حاكم قبله : أيا عمرو !.. متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ! »

(١) أي شريعة • (٢) أي بذنب • (٣) يقال : مثل بين يديه : أي انتصب

قائما • (٤) : اذا بالغ الجراحة فيه • (٥) : أي أدرها • (٦) تتركه •

ومن هذا العدل في شؤون الولاية . نستطيع أن نفهم دستوره في شؤون القضاء ، فلن يكون هذا الدستور الا دستور العدل المحكم في الجزاء والفصل بين الحقوق .. الا اننا نعتقد أن وصاياه في القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه ، فلا تعقيب بعدها لمعقب في زمانه أو في زمان يليه . مهما تختلف الاقوام والاقوات
أنساً وظائفاً القضية وتخبر لها العدول الأكفاء . ولم تكن به من حاجة هنا الى سن الشريعة التي يحكمون بها فانها ماثلة في الكتاب والسنة ، ولكنه كان في حاجة الى تعليم القضية كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر . فأحسن التعليم

كان يكتب لأحدهم : « اذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ، ولا يفتنك عنه الرجال ، فان جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها ، فان جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به . فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت : ان شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وان شئت أن تأخر فتأخر . ولا أرى التأخير الا خيراً لك »
وضرب لهم أصلح الأمثلة باجتهاده واستفتائه . فلم يقطع يد السارق في عام المجاعة رعاية للزمن ، ولم يقطع يد الغلام الذي سرق من سيده رعاية لسنته أو للعلاقة بين السارق والمسروق منه ، واشتركت المرأة وصاحبها في قتل رجل فتخرج من قتل اثنين بواحد حتى أفناه على رضى الله عنه بأنهما مستحقان للقتل كما يستحق اللصوص المتعددون أن يقام عليهم الحد اذا سرقوا لحماً من بعير واحد . فأخذ بفتواه

ومن وصاياه للقاضي : « آس^(١) بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يئأس ضعيف من عدلك . والبيئة على من

(١) أي ساوى . (٢) جورك وظلمك .

ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم
 حلالا وأحل حراما ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه
 نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق
 خير من التماذي^(١) في الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك ما لم
 يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، واعرف الأمثال
 والأشياء وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد^(٢) الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق
 فيما ترى ، واجمل للمدعى حقا غائبا أو بينة أمدا^(٣) ينتهي اليه . فإن أحضر
 بينته أخذت له بحقه ، والا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك
 وأجلى للعلمي وأبلغ في العذر ... المسلمون عدول بعضهم على بعض الا
 مجلودا في حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا في ولاء أو قرابة ، فإن
 الله قد تولى منكم السرائر ودرأ^(٤) عنكم بالشبهات . ثم اياك والقلق والضجر
 والتأذى بالناس والتتكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها
 الأجر ويحسن بها الدخر ، فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك
 وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس »

ومن وصاياه لمن يلون الحكم : 'الزم خمس خصال يسلم لك دينك
 وتأخذ فيه بأفضل حظك : اذا تقدم اليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة
 أو اليمين القاطعة ، وأدن الضعيف حتى يشتد قلبه وينسط لسانه ،
 وتعهده الغريب فانك ان لم تعهده ترك حقه ورجع إلى أهله ، وانما ضيع
 حقه من لم يرفق به ، وآس بين الناس في لحظك^(٥) وطرفك^(٦) ، وعليك
 بالصلح بين الناس ما لم يستتب لك فصل القضاء »

تلك نماذج متفرقة من وصاياه للقضاة وولاة الأحكام ، وهي فيما
 نراه أحكم وصاياه وأقربها أن يتبعها سواء
 ولذلك سبب لا يعسر تعليقه . فقد كان عمر في الجاهلية حكما من^١
 قبيلة محكمين ، أو سفيرا يسعى بين الناس بالصلح من قبيلة سفراء . فهو
 في هذه الصناعة عريق

(١) أي الاستمرار . (٢) أي أقصد . (٣) وقتا . (٤) : المتهم .
 (٥) أي دفع . (٦) اللحاظ : مؤخر العين ، ولاحظه : راعاه . (٧) : العين .

الا أن المرء قد يجلس للحكم بين الناس كما جلس عمر ولا يحسن الوصية فيه كما أحسنها ، وانما بلاغ حسن الوصية أن تجمع الخصلتين اللتين اجتمعتا في وصاياه لقضاته .. فما من أحد يستطيع أن يوصى قاضيا بخير مما أوصى ، وما من عقدة قضائية تأتي من قبل القضاة أو من قبل التقاضين الا وهى ملحوظة في كلامه ، وهاتان هما الخصلتان الباديتان في دستور القضاء كما أملاه

ولا بد أن يلفت النظر في سياسته للولاية وسياسته للقضاء انه كان يأخذ بالواجب حيث وجب ، وان اختلف الواجبان .. ففى الولاية كان يتحرى البواطن ، ويمعن في تحرّرها ، ولا يكتفى من الناس بالظواهر ..

وفى القضاء وما شابه القضاء كان يكتفى بالظواهر حتى تنقضيها البيه القاطعة ، وكان يعلن هذه الخطة على المنبر فيقول : « أظهروا لنا حسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر ، فان من أظهر لنا قبيحا وزعم أن سريره حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنا » أو يقول : « انما كنا نعرفكم اذ الوحي ينزل ، واذا النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا » فقد رفع الوحي . وذهب النبي صلى الله عليه وسلم ، فانما أعرفكم بما أقول لكم . ألا فمن أظهر لنا خيرا ظننا به خيرا وأثينا عليه . ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه »

بل كان له في الأخلاق الاجتماعية مذهب ثالث يشبه مذهبه في القضاء ، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه ما يستره عنه وينهى أن تظن بكلمة شرا وأنت تجد لها في الخير محملا وهذه في الظاهر تقاض ، وفي الحقيقة واجبات متعددة كل منها في موضعه لازم ..

فالعلم بخبايا الحكومة واجب على كل ولى مسئول ، لا تنصح الأحوال بغيره ، وفي الغفلة عنه مضرة محققة لجميع الناس

والأخذ بالبيئة دون الظاهر في شئون القضاء واجب لا محيص عنه لضمان السلامة ومنع الجور ، وهو في أحد طرفيه لا يخلو من الحذر الشديد من الطبيعة البشرية ، اذ فيه خشية من غواية الهوى أن تنطلق بالقضاة في الحكم بغير برهان

وفي الاخلاق الاجتماعية لا يؤمن التقاطع بين الاصدقاء اذا جرت العلاقة بينهم على التجسس والخدعة ، ولا رعاية للمودة ما لم تكن رعاية للحرمت ومنها الأسرار .

والفرقة بين الواجبات المختلفة هي دليل البصيرة في عرفان كل واجب منها ، وانها تصدر عن رأى أصيل ولا تصدر عن تسخير العرف واملاء التقليد والمحاكاة ..

وأنشئت في عهد عمر دواوين أخرى غير ديوان القضاء ودواوين الاحصاء والخراج والمحاسبة التي لم تكن من المؤسسات القائمة قبل عهده . فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور ومصنع السكة لضرب النقود ودار الحبس للعقاب . ووكل معظم الدواوين الى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتيان العرب عما هو أولى بهم وهو فرائض الدفاع والجهاد ... فلو وجد منهم من يفى لتلك الاعمال لكانت خسارة الدولة في قيامهم بها أعظم من ربحها ، ولكنهم غير موجودين ، ولا عملهم فيها باللائم اللازم^(١) للمصلحة الكبرى ، وقد يكون عمل الفارسي في مصلحة فارس والسوري في مصلحة سورية والمصري في مصلحة مصر أخرى أن يعصمهم ان كان بهم عاصم ، والا فلا تثريب^(٢) .

ووضع عمر نظاما لتحصيل الجزية ، وتصرف في وضعها على حسب الأمم والبلاد . فأعفى التغلبيين بالشام من الجزية وفرض عليهم بدلا عنها ضعف صدقة المسلم ، لأنهم أنفوا أن يؤدوها وأزعجوا اللحاق بأرض الروم ..

(١) الثابت . (٢) : الاستقصاء في اللوم . (٣) استكبروا واستعظموا

(٤) أزمع على الامر : ثبت عليه عزمه .

وكان له نظام اقتصادى يوافق مصلحة الدولة فى عهده . فكان يحض على التجارة ويوصى القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك . ولكنه أبقى الارض لأبنائها فى البلاد المفتوحة ، ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند فى الجيش الفائم .. وإذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء . وكان غرضه من ذلك أن تبنى لأهل البلاد موارد ثروتهم وأن يعتصم الجند الاسلامى من فتن النزاع على الارض والعقار ومن فن الدعة والاشتغال بالثراء والحطام . وربما أغضى عن كثير فى سبيل الاهانة على تعمير البلاد بأهلها ، فصفح عن أهل السواد «العراق» لأمّنوا البقاء فيه . مع أنهم حشّوا^(١) بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين فى أثناء القتال ..



ويلوح من كلامه فى أخريات أيامه انه كان على نية النظر فى تصحيح النظام الانفسادى ، وعلاج مشكلة الفقر والغنى ، على نحو غير الذى وجدها عليه . فقال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على الفقراء » .

ولم يرد فى كلامه تفصيل لهذه النية ، ولكن الذى نعلمه من آرائه فى هذا الصدد كافى لاستخلاص ما كان ينويه ، فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبدا بين المساواة فى الآداب النفسية والمساواة فى السنن الاجتماعية . فكتب الى أبى موسى الاشعري : « بلغنى انك تأذن للناس جما غفيرا^(٢) . فاذا جاءك كتابى هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين ، فاذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة » ، ولكنه لما رأى الخدم وقوفا لا يأكلون مع سادتهم فى مكة غضب وقال لسادتهم مؤنبا : ما تقوم يستأثرون على خدامهم ؟ .. ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة فى جفان^(٣) واحدة

فالمساواة فى أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفى التفاضل بالدرجات

(١) : الخلف فى اليمين . (٢) : المال وغيره اذا كثر . (٣) أي الجمع الكثير . (٤) جمع جفنة : وهي القصعة .

ولم يكن رضىه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم في خطبه : « يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا^(١) على المسلمين » وكان يوصى الفقراء والأغنياء معا « أن يتعلموا المهنة فانه يوشك أن يحتاج أحدهم الى مهنة وان كان من الأغنياء » فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما اتتوا من أخذ فصول الغنى وتقسيمه بين ذوى الحاجة ، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات الفاضلة وتقسيمها في وجوه البر والاصلاح

على أن عمر يصح أن يسمى مؤسسا لديوان الوقف الخيري على الوجه الذى نعهده الآن . فقد أنشأ بيت الدقيق لاغاثة الجياع الذين لا يجدون الطعام ، وأصاب قبل خلافته أرضا بخير فاستشار النبی عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بربعها^(٢) . فجعلها عمر صدقة لا تباع ولا توهب ولا تورث ، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم . ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ويطعم صديقا فقيرا منها



وعرضت لعمر مسائل التعمير على حسب الحاجة اليها في وقته فلم تجده مسألة منها دون ما تحتاج اليه من اصابة الرأى وحسن الروية . فكانت نصائحه في تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح ، وكانت دواعيه الى بنائها من أشرف الدواعى وأليقها بالأمر

شاهد في الجند هزالا وتغير ألوان ، فسأل قائدهم سعدا : ما الذى غير ألوان العرب ولحومهم ؟.. فأجابه : انها وخومة المدائن ودجلة ، فكتب اليه ان العرب لا يوافقها الا ما وافق ابلها من البلدان ، فابعث سليمان وحذيفة فليرتادا منزلا بریا بحريا ليس بينى وبينكم نيه بحر ولا جسر ، وأمر أن تبلغ مناهج^(٣) المدينة أربعين ذراعا ، وما يليها ثلاثين ذراعا ، وما بين ذلك عشرين ، والا تنقص الارقة عن سبعة أذرع ليس دونها شيء ، وألا يرتفع بناء الدور

(١) العالة : الفاقة . (٢) أي ما يحصل عليه منها . (٣) بلدة وخمة ووخيمة : اذا لم توافق ساكنها . (٤) أي فليطلبوا . (٥) : أي طرق .

فبنيت الكوفة على هذا التخطيط

وعلم أن الجند يشكون الشتاء ويعوزهم^(١) الملجأ الذي يسكنون اليه بعد الغزو في حدود فارس . فكتب الى عتبة بن غزوان أن « ارتد^(٢) لهم منزلا قريبا من المراعى والماء » ووصف له ما يلتزم من مواعنه وخطه فبنت البصرة عند ملتقى النهرين

وهو الذى أشار على عمرو بن العاص أن يحفر خليجا بين النيل وبحر القلزم لاتصال المرافق بين مصر وعاصمة الدولة ، وضرب له الموعد حول^(٣) يفرغ فيه من حفره واعداده لمسير السفن فيه ، فساقه من جانب القسطنط الى النام ، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن وسمى خليج أمير المؤمنين ، ولم يزل مفتوحا حتى ضيعه الولاة وغفل عنه الخلفاء

فسياسته التعمرية وافية بالغرض منها لعصره ، وقد يلاحظ عليها أبناء العصر الحاضر شيئا لا يوافقهم كالححد من ارتفاع الدور والزهدي تشييد القصور . أما هو فالوجه الذى توخاه في سياسة التعبير أن يحى الدولة في نشأتها من الترف والبذخ ، وأن يحول بين الجند وبين الاستئامة الى متاع القصور المشيدة والصروح المردة^(٤) وما فيها من بواعث الوهن والفتور . ومن فلاسفة العصر الحاضر من يحسب ضخامة البناء دليلا على ابتداء الضعف وغفاء العقيدة ، ويقول « شبنجلر » أحد هؤلاء الفلاسفة : ان الامم في نهوضها تعبر طريقين مختلفين : طريق العقيدة وقوة النفس وتلازمه بساطة الظواهر وعظمة الضمائر ، وطريق الفخامة المادية والوفرة العددية وفيه تنحل الضمائر وتخلفها العظمة التى تقاس بالبائع والذراع وتقدر بالقنطار والدينار ، وكانت قبل ذلك تقاس بما لا يحس من العزائم والأخلاق ..

وعمر على كلتا الحالتين لم يتعد طبايع الاشياء ، ولم يأخذ في زمانه بغير الصالح من الآراء -

وقصارى القول: ان هذا الرجل لم تواجهه في ولاياته الواسعة صعوبة

(١) أي يحتاجون ويفتقرون اليه . (٢) : اطلب . (٣) أي سنة

(٤) تمريد البناء : تمليسه . (٥) الضعف . (٦) من قولهم : عفا المنزل : اي

أكبر منه وأحوج الى قدرة أعلى من قدرته أو هية ودرج أبلى مما در له من هية ودراية ، فاذا عرضت الصعوبة الطارئة فهناك الحزم اللازم لمواجهتها والجدلة الصالحة لتدبيرها ، كأنما كان لها على استعداد ، وكأنما عاش حياته كلها يترس^(١) بهذه الأمور

وكان اضطلاع به بتفريج الأزمات والكوارث ، كاضطلاع به بتدبير الحاجات الى التعمير والتنظيم .. ففى السنة الثامنة عشرة للهجرة فاجأه قحط الرمادة المشهور ، وهو القحط الذى لا يقال فى وصفه أوجز من قولهم يومئذ ان الوحش كانت تأوي فيه الى الانس ، وان الرجل المنصور من الجوع كان يذبح الشاة فيعافها لقبها فنهض لهذه الكارثة نهوضه لكل خطب^(٢) ، واستجلب القوت من كل مكان فيه مزيد من قوت ، وجعل يحمله على ظهره مع الحاملين الى حيث يعثر بالجياح والمهزولين العاجزين عن حمل أقواتهم ، وآلى^(٣) على نفسه لا يأكل طعاما أتقى من الطعام الذى يصيبه الفقير المحروم من رعاياه ، فسضت عليه شهور لا يذوق غير الخبز والزيت . ونظر فى كل شىء حتى فى تعليم كل بيت كيف ينتفع بالرزق الذى يرسله اليهم مع عماله .. فقال للزبير بن العوام : « اخرج فى أول هذه العير فاستقبل بها نجدا ، فاحمل الى أهل كل بيت قدرت أن تحملهم الى ، ومن لم تستطع حمله فمر لكل أهل بيت بعبء بما عله ، ومرهم فليلبسوا كساءين ولينحروا البعير فليحملوا شحمه ، وليقددوا لحمه ، وليحتزوا جلده ، ثم ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وحفنة من دقيق فليطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق »

وهذه السهولة فى مواجهة كل حالة بما يوائمها هى التى تبرز لنا « مؤسس الدولة الملهم » فى هذا الرجل العظيم فكل عمل من هذه الأعمال سهل على القرطاس^(٤) ، صعب عند تصورنا

(١) من المراس والممارسة . (٢) عاف الرجل الطعام أو الشراب : كرهه . (٣) الامر . (٤) أفسم . (٥) أي يجففوه . (٦) أي يلائمها ويناسبها . (٧) الصحيحه .

اياء واحاطتنا بما يستدعيه من تدبير وانجاز وخلق وهيبة . فكم بين المدينة وتلك الاطراف في زمن أسرع وسائله بغير سريع ؟ .. وكم عمل عمر للملاحقة كل جيش يسير وكل بلد يفتح ، وكل أمة تحكم ، وكل عارض يطرأ على غير رقبة^(١) ولا سابقة خبرة ؟

تجنيد الجيوش لشتى الميادين وليس بسهل ، واختيار القواد على حسب ما يندبون له وليس بسهل ، والأمر بكل حركة على حسب كل ميدان وليس بسهل ، والسؤال عن قادة الاعداء ومداوراتهم ليستقصى خبرهم ويعرف ما يقابلهم به من الكيد والعدة وليس بسهل ، وأنشاء المدن والعمائر في مواضعها ، واقامة الدواوين عند الحاجة اليها ، وارضاء الأمم والجيوش بالاصفاء الى شكايانهم ولو جاءت في غير أوانها ، والنهوض للكوارث والأزمات بما ينبغي لها ، والمشاورة لمن تسمع منه المشورة والاجتهاد بالرأى عندما تختلف الآراء ، والاشتغال بكل شاك كأنه لا يشتغل بغير ما شكاه ، وخدمة الناس في دينهم وخلقهم كخدمته اباهم في دنياهم ودولتهم ، وتجدد هذه المتاعب يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام . وهى شاقة لا سهولة فيها على غير صاحبها التقدير عليها ولو زاولها عرضا الى أيام

وجليل^(٢) بعض هذا غاية الجلال لو أن صاحبه قنع منه بالاشراف والمراجعة ولم يعمل بيده فيه كأنه خادم البيت المرقق وأجير الدبوان الصغير ، لكنه كما تعلم كان يكدح بيده ويحمل على ظهره ويتعقب بعينه ، ولا يدع أحدا من خدام الدولة الواسعة الا وهو شريك له في مثل ما يتولاه ..

وأكبر ما يستحق الاكبار في هذا الرجل الكبير انه كان قادرا على تأسيس الدول وعلى فتح الامصار ، ولكنه راض القدرتين فلم يقدم على فتح الامصار الا بمقدار
فليس 'الفتح' شهوة عنده ولا المجد الحربى لبانة من لباناته ، وهو على

(١) أي ترقب وتوقع وانتظار . (٢) أي عظيم .

علمه بأن الله وعد المؤمنين أن يورثهم الأرض لم يكن يرى في ذلك داعيا إلى العجلة بالفتح كما كان يرى فيه دواعي للتبصر والاناة ، حتى لا يسفك دم في غير موجب ولا تعسف خطة بغير روية

فكان همه الأكبر تأمين الجزيرة العربية من أطرافها وحماية الإسلام في عقر داره^(١). ولولا أن الدول العظمى التي كانت تحدد^(٢) بجزيرة العرب تحفّزت للبطش بها ، وقمّعت دعوتها في مهدها ، لكانت للدولة الإسلامية سياسة أخرى في مصالوة أولئك الأعداء

فدولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم الجزيرة وتهيج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبي عليه السلام ، وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها . يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول : « ... وكنا تحدثنا أن غسان تتعل النعال لنزونا ، فنزل صاحبى يوم نوبته فرجع عشاء ف ضرب بابى ضربا شديدا وقال : أثم^(٣) هو ؟ .. ففزعت فخرجت إليه وقال : حدث أمر عظيم ... قلت : ما هو ؟ .. أ جاءت غسان ؟ .. قال : لا ، بل أعظم منه وأطول .. طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه ! »

ومن هذا الحديث يتبين لنا مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار ..

أما فارس فقد بلغ بطغيانها أن عاھلها غضب من دعوته إلى الإسلام فأوفد إلى الحجاز رسولا مع نفر من الجند ليأتيه بالنبي العربي حيا أو ميتا ! .. ولولا أنه مات قبل انجاز وعيده واشتعلت نيران الفتن في بلاده لو طئت الجيوش الفارسية أرض الجزيرة قبل أن ينهض العرب للدفاع وما هو الا أن حفظ العرب حدودهم من قبل العراق الفارسي حتى سكنوا إلى ذلك ، وودَّ عمر بن الخطاب « لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم » ولم تتغير خطته هذه إلا حين استوى يزدجرد على عرش فارس وتأهب للغارة على المسلمين وأخراجهم

(١) : وسطها . (٢) أي تحيط . (٣) : حدود . (٤) أثم ؟ : أهنأك ؟

من حيث نزلوا .. فتجدد القتال ..

وقد طال تردد عمر في فتح مصر ، ولم ينبعث الى غزوها حبا للغزو ولهجا^(١) بالفتوح ، ولولا أن علم أن أريطون قائد الروم في بيت المقدس قد فر منها الى مصر ليحشد فيها الحشود ويتأهب لنكر على الشام لطال ترده في الزحف عليها . ومع هذا أوشك أن يسترجع عمرو بن العاص بعد اشخاصه اليها ، ونهاه عن الايغال في المغرب بعد فتحها ، لأن السطوة — وهو مقتدر عليها — لم تكن تزدهيه ولا تغويه ، ولأن الضن بالأرواح أغلب في طبعه من الشغف بالفتوح و « أن رجلا من المسلمين أحب الى من مائة ألف دينار ! »

فلا يخطيء القائل الذي يقول ان الاناة في السطوة أكبر ما يستحق الاكبار من هذا الخلق الرفيع ، وان دلالاته الانسانية أكبر دلالة يشتمل عليها هذا السجل الحافل بالماثر . لأنه يرينا القوة كيف تكون نعمة انسانية عالية ولا تكون لزاما تقمة من تقم الاثرة والأناية ، ويرينا الرجل كيف يقوى فلا يخافه الضعيف بل يخافه من يخيف الضعفاء .

وبحق يتزود بهذه القوة مؤسس دولة تقوم على دين ، لأن الدولة قد تقيمها القوة الطاغية ، أما الدين فلا يهدمه شيء كما تهدمه قوة الطغيان ان البأس الذي رزقته نفس عمر لحظ عظيم . ولكنه لو كان في يدي غيرها لقد يكون نصيبها منه أوفى من نصيبها وهو في يديها ، فلم يشحذه عمر قط لغرض يخصه دون غيره ، ولم يضرب به قط بمعزل عن الايمان حتى في أيام الجاهلية . فلو لم يقع في روع عمر أن محمدا أهان قريشا وانتقص دينها لما تصدى له بأذى ، ولولا حرمة الايمان الجاهلي عنده لما ثار على ايمان محمد وصحبه ..

وغاية ما هنالك انه فرّق بين ايمان وايمان ، ففى الجاهلية كان ايمانه

(١) : المولوع به .

مضللا فقم ولم يأت بطائل ، وفي الاسلام كان ايمانه رشيدا فأنى بأطيب الثمرات ..

قبل أن يقال، ان عمر كان أكبر فاتح في صدر الاسلام ينبغي أن يقال : انه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الاسلام ، وانه أسسها على الايمان ولم يؤسسها على الصولجان^(١) ، فكان مؤسسا لها قبل أن يلي الخلافة وينفرد بالكلية العليا ، وكان من يوم اسلامه آخذا في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء .

ان تاريخ عمر وتاريخ الدولة الاسلامية لا يفرقان ، فاذا بدأت بهذا فقد بدأت بفصل من تاريخ ذلك ، ولن يطول بك الاستطراد حتى تثوب^(٢) اليه كرة أخرى

(١) : كلمة فارسية معربة ، ومعناها : الممجن . (٢) تثوب : ترجع .

عمر والحكومة العصرية

من الحقائق التي لا يحسن أن تغيب عنا ونحن نقدر الأبطال من ولاة العصور الغابرة أنهم أبناء عصورهم وليسوا أبناء عصورنا ، وانا مطالبون بأن نفهمهم في زمانهم وليسوا هم مطالبين بأن يشبهونا في زماننا ، وان الرجل الذي يصنع في عصره خير ما يصنع فيه هو القدوة التي يقتدى بها أبناء كل جيل ، ولا حاجة به الى اقتداء بنا . ولا أن بشق حجاب الغيب لينظر إلينا ويعمل ما يوافقنا ويرضينا

ويحسن بنا أن نذكر مع هذا: ان أشكال الحكومات بمرتبة دون مرتبة المبادئ التي تقوم عليها ، وان المبادئ التي تقوم عليها بمرتبة دون مرتبة الروح الانساني الذي ينبغي أن يعمها ويتخللها ، لأن المبدأ يعميه أن يخلو من الروح الانساني ولا يعيب الروح الانساني أن يخالف المبدأ في بعض الأحيان .. فالملكية والجمهورية شكلان من أشكال الحكومة قد يقومان على مبدأ واحد ، هو مبدأ الحكومة الشعبية أو الديمقراطية ، ولكن العدل والحرية هما الروح الانساني المقدم على المبدأ وعلى الشكل معا ، لأن فقد المبدأ والشكل لا يضرنا اذا وجدنا العدل والحرية ... أما فقدان العدل والحرية فهو الذي يضر ولو توافرت المبادئ والأشكال فاذا عرفنا العدل بروحه ولبابه ، فلا ضير عليه أن تنكره مبادئ الثورة الفرنسية أو مبادئ الوثيقة الكبرى في البلاد الانجليزية ، أو مبادئ الدستور الامريكى في أيام آباء الدستور هناك ، أو مبدأ من المبادئ التي لا تنى^(١) تتجدد وتتغير كأننا ما كان

ويحسن بنا أن نسأل أنفسنا كلما أعجبنا بعظيم من عظماء العصور الحديثة : ماذا كان هذا العظيم صانعا لو نشأ في القرن الاول للهجرة مثلا أو القرن الاول للميلاد ؟ .. أكان يصنع فيه ما هو « عصرى » في زماننا

(١) يقال : فلان لا ينى يفعل كذا : اي لا يزال يفعله .

أو يطنع فيه ما هو عصرى في ذلك الزمان ؟ .. فمما لا مرأ فيه ^(١) أنه يخالف عمله في زماننا ، ولا يخالف عمله في زمانه الذى نشأ فيه ، ولا ملامة عليه فيما خالف وفيما وافق . بل اللوم علينا نحن اذ نتنظر ما لا ينتظر وتقيس على غير قياس .

والى جانب هذا كله ينبغى أن نذكر ولا تنسى أن عصرنا ليس بخير العصور .. واننا لو ملكنا تبديله في كثير من الامور لبدلناه ، واننا لا نتفق على استحسان الحسن ولا استقباح القبيح فيه ، وان الفارق الاكبر بينه وبين العصور الاخرى انما هو فرق الالفه والاستغراب ، فعصرنا مألوف لنا وسائر العصور مستغربة في أنظارنا ، وكثيرا مايكون الاستغراب عرضيا سخيلا متعلقا بالمظاهر والازياء دون الجواهر وحقائق الأشياء ..

أذكر من الصور التى رأيتها في الصحف الاوربية — ولا أنساها — صورة جامعة لبعض المشهورين والمشهورات في أزياء عصرنا وأزياء العصور السابقة على اختلافها ، عرضتها الصحيفة وأحسبها كتبت تحتها : هل تعرف هؤلاء لو مروا بك في الطريق ؟ ..

فاذا تأملت الصورة رأيت فيها يوليوس قيصر في القبة الطويلة وكسوة السهرة السوداء ، ورأيت كليوباترة في زى الباريسية العصرية ، ثم رأيت أميرا من أمراء هذا الزمن وحكيما من حكمائه على نمط ^(٢) التماثيل التى حفظت لقياصرة الرومان وحكماء اليونان . فاذا بك تستغرب ما تألف وتألّف ما تستغرب ... وكأنك على استعداد أن تحدث يوليوس قيصر حديثك للرجل الذى يفهمك وتفهمه من الكلمة الاولى ، وعلى حذر أن تقارب الرجل الذى مثلته لك الصورة في زى الأقدمين المخالفين لك في العقيدة والشاراة والذوق ونمط التفكير والنظر الى الأشياء ..

هذه صورة نشرت يومئذ للتسلية والفكاهة ، ولكنها خليقة أن تعلمنا

(١) لا مرأ فيه : أي لا ريب فيه . (٢) أي نظام وطريقة .

الكثير وأن تصحح لنا مقاييس المقابلة والتقدير بين كل عصر سابق وعصر أخير ..



ونحن - اذ ننظر الى أعمال عمر بن الخطاب تقيسها الى نظام الحكم في زماننا - واجدون فيها كثيرا من المستغربات التي تحول بيننا وبين تقديرها الصحيح للوهلة الاولى . ولكننا لا نلبث أن نرفع القشرة ونتفد الى اللباب حتى نزول الغرابة ونرى في مكانها الحق الخالد الذي تتغير العصور ولا يتغير ، بل نرى في مكانها أحيانا ما يصلح كل الصلاحية للتفسير حتى بيمادى هذا العصر الأخير

خذ مثلا انه - وهو أقدر المالكين في عصره - كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ ، ويهتأ ابل الصدقة ، أى-يداويها بالقطران ، ويراہ رسل الملوك وهو نائم على الارض نومة الفقير المدقع^(١) ، وتعرض له المخاضة^(٢) وهو داخل الى الشام فينزل عن بعيره ويخلع خفيه ويخوض الماء ومعه بعيره ، ويسافر مع خادمه فيساوى بينهما في المأكل والمركب والكساء ..

حاكم من حكام العصر الحديث لا يصنع هذا ولا يطالب بأن يصنعه ، وهو وأبناء العصر الحديث على حق فيما ارتسموه لأنفسهم من السمات^(٣) والسارة^(٤) ، لأن حاكم الأمة يحتاج الى المهابة بين قومه وغيرهم من الأقوام ، وهذا حسن مشكور

ولكن هذه وجهتنا نحن في هذا ، فما هي وجهة عمر فيه ؟ .. وهذه حجتنا نحن فيما ارتسمنا .. فما هي حجة عمر فيما ارتسم ؟ .. اننا اذا عقدنا المقارنة بين الوجهتين والحجتين ألقينا في غنى عن وجهتنا وحجتنا ، وانه كان يصل الى الغاية التي نرومها نحن من طريق أقوم وأنفذ من الطريق الذى توخيناہ فكان يعيش عيشة الفقراء ، وأمه وأمم أعدائه أهيب له مما تهاب التيجان في القصور ..

-
- (١) : طلاها بالقطران • (٢) : الشديد الفقراء الملصق بالتراب •
(٣) : ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا • (٤) أي الشكل والهيئة والمظهر •
(٥) أي العلامة •

وكان عمل الرجل تثبيت سلطان وتثبيت عقيدة هي أساس الحكم قبل كل أساس^(١) ، فكانت عيشته الفقيرة أعون له على تثبيت العقيدة ، ثم لا غشاضه فيها على السلطان

وكان يدين^(٢) نفسه بهذه العيشة ولا يأبى على غيره أن يخالفها ، ويقنع باليسير ويعطى الحق الكثير لمن يستحقه على تفاوت في المآثر والأعمال . فلما ندب أبا عبيدة لتوزيع الطعام في عام المجاعة أعطاه ألف دينار وألح عليه في قبولها^(٣) ، ولما قسم الولايات جعل لكل وال كفاء عمله من أجر وطعام مكفولا له مع عطاءه الذي يعطاه كسائر المسلمين . وهو الذي خالف أبا بكر في التسوية بين الأعطية لعلهم بتفاوت الحقوق ، فقال له : أتسوى بين من هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف ؟ .. أتجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ؟ .. ولقد ظل كلاهما على رأيه حتى قام عمر بالخلافة فأخذ بمذهب التفضيل وتوفية العطاء حسب الحقوق

أما المهابة فمن افتقر من الولاة إلى المظهر فيها لم يمنعه عمر ولم يوجب عليه أن يقتدى به في خصائصه وشظفه^(٤) ، فله من ذلك ما تقضى به مصلحة الدولة حيث كان ..

وبهذا يكون الحاكم عمر بن الخطاب قد أدى « الواجب الحكومي » على الوجه الأقوم فلا سبيل لأحد إلى أن يؤاخذ فيه بقياس حديث أو بقياس قديم ..

فاذا بقى أن نستدل بتشديده في المعيشة على تفكيره أو خلقه فما هي الدلالة التي يدل عليها ؟ .. هل يدل هذا التشديد في محاسبة النفس على شيء يعاب ؟ .. هل هو أدنى إلى النقص أو هو أدنى إلى الرجحان ؟ .. إن أناسا يشددون على أنفسهم عن كرازة^(٥) في الطبع وضيق في الحظيرة وعجز عن ملابسة الدنيا . وهذه تقائص تعاب في مقياس الفكر والخلق ولكن هل كانت خليفة عمر بن الخطاب خليفة المرعب المتوجس العاجز الذي يرجع الشظف عنده إلى العجز عن ملابسة الدنيا ؟ ..

(١) : الذلة والنقصه . (٢) : العادة والشأن . (٣) : أي جزاء أو قدر .
(٤) : أي مضمونا . (٥) : يبس العيش وخشونته . (٦) : الانقباض واليبس

أعجل الناس بالانتهام ، لا يتهم عمر بهذا ولا بما يشبهه ويدانيه .
وانما تدل جملة أخلاقه على ان الخلق الذى ألزمه حياة الشظف انما
هو خلق قوى يروض صاحبه على ما يريد ، وليس بخلق ضعيف ، يجفل
من التصرف والتكليف ، اجفال العجز والرهة والوسواس ..

وفى « طبيعة الجندى » التى قدمنا الكلام فيها بعض التفسير لنظرته
فى حساب نفسه وفى الموقف الذى اختار أن يقفه بين يدى الله . فهو يعلم
ان الله شديد الحساب وان الله رحيم ، ولكن الجندى القوى اذا وقف بين
يدى مولاه جعل تعويله على الوفاء بالأمر وقضاء الواجب فى أدق
تفاصيله ، ولم يجعل معوله الوحيد على طلب الرحمة والصفح عن
الخطيئة ، فان جاءه الصفح من مولاه فليس هذا بمعفيه أمام نفسه من
استقصاء الحساب ولو جار عليها . فأكرم لطبيعته الجادة القوية أن يجور
على نفسه من أن يترخص فى اعطائها ثم يتعرض للصفح والغفران
وكان وفاؤه لحق الصداقة ، كوفائه لحق الله ، سببا من أسباب هذا
الشظف الذى عاش عليه بعد النبى وخليفته الاول . فقد أبى له وفاؤه أن
يعيش خيرا مما عاشا ، وأن يستبيح — وقد صار الأمر اليه — حظا لم
يستبيحاه ، وكثيرا ما توسل اليه خاصته أن يشفق على نفسه وأقنعوه بما
عنموا أنه أدنى الى اقناعه ، وهو أن يتوسع فى العيش ليكون ذلك أقوى
له على الحق ، فكان يقول لهم : « قد علمت نصحكم . ولكنى تركت
صاحبى على جادة ، فان تركت جادتهما لم أدركهما فى المنزل » ، وكلما
نصح له ذووه ومنهم بنته حمصة أن يستكثر من الطعام الطيب والنعمة
السائغة سألها : كم كان نصيب النبى من هذا أو من ذاك وأنت تعرفين
نصيبه ؟ .. فيكون السؤال هو الجواب .

ثم كانت رغبته فى اقامة الحجة على ولاته وعماله سببا آخر من أسباب
شظفه وقناعته بالقليل ، فقد يستحى أحدهم أن يخون ليغنى وخليفته
قانع لا يطمع فى اكثر من الكفاف^(١) .
وما كان عمر بالذى يجهل ما عرفه الناس من مروءة « الأبهة والوجاهة »

(١) : المنزعج . (٢) ساغ الشراب : سهل مدخله فى الخلق ، وساغ له
ما فعل : جاز . (٣) أي القوة الضروري .

هو الذى يعلم ما جهلوه ، ولكنه كان غنيا عنها ايثارا لغيرها مما هو أرفع منها وأدل على المروءة فى حقيقتها . فكان يقول : « المروءة مروءتان : مروءة ظاهرة ومروءة باطنة . فالمروءة الظاهرة الرياش^(١) ، والمروءة الباطنة العفاف »

فهو فى جملة أحواله يفرض الشظف على نفسه لأن قوته الخلقية تستطيع أن تريد فتفعل ، وتستسهل الجد الذى يصعب على غيرها . ففيها رجحان يكبره العقل والخلق ، وليس فيها نقص يعاب بمقياس التفكير أو مقياس الأخلاق ..

انما كان الرجل يحاسب غيره فيعطيه حقه فى غير بخس^(٢) ولا حرج ، ويحاسب نفسه فيؤثر الشدة ليقطع الشك ويدراً^(٣) الشبهة ويقتدى بصاحبيه ، ويترك القدوة المثلى لمن يليه .. فلا سبيل عليه لباحث فى نظم الحكم ولا لباحث فى معانى الاخلاق

على ان عصورنا الحديثة تستغرب الشظف من عمر ، وهى تهتل للملوكها وتكبر لهم حين يستنون لأنفسهم سنته فى بعض أوقات الضيق والمحنة ، وهى الاوقات التى يتنبه فيها شعور الرعية للفارق بينها وبين راعيها فى المعيشة والتكليف . وأكثر ما يكون ذلك فى أوقات المجاعات والحروب وشح المؤونة على الاجمال

ففى الحروب الأخيرة تجاوبت الصحف بالثناء على الملوك الذين راضوا أنفسهم وراضوا أسرهم وحاشيتهم معهم على جراية الحرب التى توجبها ضرورات التموين ، وعدوا من مفاخر الملوك أنهم لا يأكلون الا ما تأكله شعوبهم وأنهم لا يرون لهم عزة فى الترف الذى يعز على رعيته ، فاقتدوا بعمر فيما أوجبه على نفسه عام القحط ، وعلمتهم الشدة كيف ينفذون الى الواجب الانسانى من وراء زخارف الحضارة الحديثة

وشئ آخر يستغربه المصريون فى نظام حكومة عمر وان كانوا ليتمنون مثله لو استطاعوه ، ونعنى به طريقته فى محاسبة الولاة والعمال سواء لتحقيق العدل أو لتحقيق الامانة

(١) : اللباس الفاخر ، وقيل : المال ، والخصب ، والمعاش .

(٢) : النقصان . (٣) : يدفع . (٤) : أى طريقته .

فكان يجزى الوالى جزء المثل عن كل مظلمة وقعت على أحد رعاياه ،
ويأخذ الوالى بسيئات أبنائه وذويه ان أساءوا وهم مستطيون بما للولاية
من حول^(١) وجاء ..

وكان يحصى أموال الولاية ، ثم يستصفى ما زاد عليها كلما فشت لهم
فاشية^(٢) من النعمة لا يخبرونه بمصدرها .

وفى هذا وذاك ضمان للعدل والأمانة ، يستغربه المصريون لأنهم
لا يألّفونه فى طرائق الحكومات العصرية

ولكن أترأهم يستغربونه لأنه غير حسن أو لأنه غير مستطاع ؟ ..
بل لأنه غير مستطاع ولا ريب ، أو لأن الحكومات العصرية لا تملك
أن تتحرّاه وتنصف فى تنفيذه

أما انه حسن فلا شك فى حسنه ولا فى انه أحسن من نظائره بين
النظم العصرية ، لأن حكومات العصر الحديث قد تحمى الوالى وان ظلم
واعتدى فلا تسمح بمقاضاته الا باذن منها !.. وقد تحميه مرة أخرى
بالاحالة الى الثقة بالوزارة ومنع المناقشة فى عمله ، لأنها هى المختصة
بمناقشته فيه . وتعتذر فى الحالتين بعذر المحافظة على نظام الدولة ان
يهدده ما يهدد مراكز الحكام

ولم يكن عمر يخشى هذا الخطر لأنه أقوى منه ، فله هو الحق وعلى
النظم العصرية الملام .

أما الطريقة العصرية فى ضمان أمانة الحكام فهى أن تحرم عليهم
الدساتير مباشرة الأعمال فى الشركات وما إليها ، ثم هى لا تأخذ منهم
درهما ولو دخلوا الخدمة صفر اليدين وخرجوا منها بالضياع والقصور
والأموال ..

فمن استغرب الطرائق العصرية فى هذا الباب فليستغربها ما شاء وهو
يعلم أن الغرابة ليست بعيب ، وان المألوف هو المعيب ان قصر عن
الغرض المطلوب ..

(١) : الحيلة ، والقوة ، والمراد : القوة . (٢) جمعها « فواشي » وهى :

كل شيء منتشر من المال كالغنم السائمة والابل وغيرها .

وما عدا هذا من اختلاف بين المهددين فقلما يعدو اختلاف الاسماء وتغيير العناوين ، وقل أن ينفذ الى ما وراء القشور . وهذه بعض الشواهد التي تقرب أسباب النظر الى حقيقة هذا الاختلاف ..

مر^(١) عمر في سوق المدينة ، فرأى اياسا بن سلمة معترضا في طريق ضيق فخفقه بالدرة وقال له : « امط^(٢) عن الطريق يا ابن سلمة ! .. »

ثم دار الحول ولقيه في السوق فسأله : أردت الحج هذا العام ؟ .. قال : نعم يا أمير المؤمنين ، فأخذ بيده حتى دخل البيت وأعطاه ستمائة درهم وقال له : يا ابن سلمة ! .. استعن بهذه ، واعلم انها من الخفقة التي خفقتك بها عام أول^(٣) ! .. قال اياس : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها ... فأجابه عمر : أنا والله ما نسيتهما .

فالنظم العصرية تحار في وضع هذه الحادثة في باب من أبوابها المرتبة حسب الوظائف والأوامر والمراجعات ..

ولكن ماذا يصنع جندي المرور في عصرنا اذا شاء أن يميظ عن الطريق ويفض الزحام ؟ .. وماذا تصنع المحاكم في تعويض من أصابه الضرب بغير ضرورة ؟ ..

ان جندي المرور ليضرب بالدرة وبما هو أقسى منها ، وان المحاكم لتعوض المضروب بشيء من مال الدولة عن خطأ الجند والموظفين ، وعمر قد عوض الرجل من ماله كما يؤخذ من قول ابن سلمة : انه ذهب به الى بيته ، فان لم يكن هذا المبلغ من مال عمر وكان من خزانة الدولة فقد غرم عمر كل دين عليه قبل موته ، ولم يفارق الدنيا الا على ضمان وثيق أن يعاد كل درهم من دينه الى ذويه . وقد يكون الخطأ يومئذ في الحساب لا في تصرف عمر بن الخطاب

ورأى عمر امرأة في زى استغربه فسأل عنها ف قيل له : انها الامة فلانة ! فضربها بالدرة ضربات وهو يقول لها : يا لكعاء^(٤) ! .. أتشبهين بالحرائر ؟ وهنا مجال واسع للحدقة العصرية في الكلام على « الحرية الشخصية »

(١) أي ضربه . (٢) أي تنح وأبعد . (٣) يعني : العام الماضي .
(٤) : أي لثيمة . (٥) : أظهر الحذق .

وعلى حق من يشاء أن يلبس ما يشاء ويسير حيث يشاء
ولكن ماذا تصنع الحضارة العصرية بالنساء المريات اللاتي يتبكرن
بأزياء الحرائر ويأوين الى البيوت في أحيائهن ويخرجن معهن الى الطريق؟
وبماذا يختلف شأن النساء المريات من شأن الاماء في زمن كن فيه
متهمات الاعراض ؟ ..

ورأى عمر رجلا يتبخر^(١) ويمشى مشية قبيحة لا تليق بالرجال فأمره أن
يتركها فأبى ، وزعم انه لا يطيق تركها .. فجلده ، وعاد بعد جلده الى
التبخر فجلده مرة أخرى . ثم مضت أيام وجاءه الرجل وقد ترك تلك
المشية القبيحة ودعا له : جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين . ان كان الا
شيطاننا أذهب الله بك ..

الحرية الشخصية مرة أخرى ! ..

غير أن عمر في عقوبته هذه انما كان يعاقب على أمر نهى عنه القرآن
وليس له أن يبيحه بحال ، فهو قانون يعرفه من أوقع العقاب ومن وقع
عليه ، ومن شهدوه وأقرؤوه .. وكلهم يأبى أن يمشى في الأرض مرحا^(٢)
ويعدها من قبائح الآداب .

ولكننا في العصر الحديث تقسم النواهي والأوامر الى قسم يحاسب
عليه القانون وقسم يحاسب عليه العرف المأثور . وعقاب العرف حق
الامة وليس بحق الحكومة والقضاء .

وحجة العصر الحديث أن العقاب القانوني هنا غير منصوب عليه
وليس النص عليه بمستطاع ، وربما فتح الباب للأغراض والأهواء
واستبداد الحاكمين اذا استطيع .

وعندنا ان حجة العصر الحديث في هذا ناهضة لا شك في صدقها ،
ولكنها ان نهضت فانما تنهض على العصر الحديث ولا تنهض على عمر
ولا على من وثقوا بعدلته وأسلموه زمام^(٣) العرف والقضاء على السواء ...

(١) أي يتصنع الحسن أو التكسر في مشيته . (٢) : شدة الفرح .

(٣) الراد بالزمام هنا : المقود .

فماذا لو استطاع العرف في عصرنا أن يحاسب الناس بالجس والجلد والغرامة على رذائل الذوق وقبائح الآداب دون أن يخطيء أو يجوز؟..
أيأبى الاصلاح وهو آمن عقباه ؟ .. ان أباه فليس صوابه في ابائه بأكبر
من صواب عمر في تقريره ، وليس على عمر ولا على رعيته جناح أن
يطمئنوا الى عدل يعيننا أن نطمئن الى مثله

وقد تقدم أن عمر غضب على الحطيئة لهجائه الناس ، ونهاه أن يهجو
أحدا فصرع^(١) اليه الرجل وقال : اذن أموت ويموت عيالي من الجوع ،
فأنذره ليقطعن لسانه .. ثم عطف عليه فساومه على ترك الهجاء بثلاثة
آلاف درهم ، فسلم الناس من لسانه واستغنى عن هذه الصناعة ما عاش
عمر .. ثم عاد اليها بعد موته ..

ان أمين الحساب في خزائن الدول الحديثة يحار في أى باب من أبواب
المصروفات يضع هذه الدراهم التى اشترى بها هجاء الحطيئة ، ولكنه
لا يحار طويلا حتى يذكر باب الدعوة وما تنفقه الدول من الملايين ثمنا
للثناء والهجاء . فيضعها هنالك وهو أهذا ضميرا مما وضع في الباب
كله ، لأنه مال تنتفع به الرعية وتنتفع به الاخلاق ، ولا نفع فيه لذوات
الحاكمين ..

ولنضرب أمثلة من طراز آخر على الطريقة العمرية التى يستغريها
العصريون وهم مخطئون في استغرابها أو قادرون على النظر اليها كما
ينظرون الى المألوفات ، لو أطلقوا عقولهم من عقال^(٢) الصيغ والاشكال
ونفذوا من ورائها الى الجواهر والأصول ..

كان عمر يعمل في المدينة فسمع صوت رجل وامرأة في بيت ، فتسور^(٣)
الحائط فاذا رجل وامرأة عندهما زق^(٤) خمر ، فقال : يا عدو الله !.. أكنت
ترى ان الله يسترك وأنت على معصية ؟.. فقال الرجل : يا أمير المؤمنين
أنا عصيت الله في واحدة وأنت في ثلاث ، فالله يقول : « ولا تجسسوا »^(٥)
وأنت تجسست علينا . والله يقول : « وأتوا البيوت من أبوابها » وأنت

(١) أي خضع وقال في مذلة ومسكنة . (٢) : القيد . (٣) : تسلقه .
(٤) وعاء من الجلد غير المنتوف . (٥) من الآية : ١٢ من سورة الحجرات .
(٦) من الآية : ١٨٩ من سورة البقرة .

صعدت من الجدار ونزلت منه . والله يقول : « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها^(١) » وأنت لم تفعل ذلك .. فقال عمر : هل عندك من خير ان عفوت عنك ؟ .. قال : نعم ، والله لا أعود . فقال : اذهب فقد عفوت عنك

ما أسرع ما تقول الحذقة العصرية وهى مستريحة البال : هذه بدوات البادية فى حكمها ... تجسس ثم حاجة جدلية ثم نزول عن عقاب . وهى « طريقة تعوزها الاجراءات الرسمية » التى نحن عليها حريصون وبها جد فخورين ! ..

لكن ما القول فى مطابقة هذه الطريقة كل المطابقة لما يجرى عليه النظام الحديث فى اجراءاته الرسمية بغير استثناء ؟ ..

فالدساتير الحرة ، تمنع الرقابة وفض الرسائل واستباحة الأسرار ... والحكومات - مع هذا المنع الدستورى - تضطر الى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوى الشبهات . فاذا اتفق فى حادث من الحوادث انها استباححت سرا يدل على جريمة محظورة فماذا يكون من سير الاجراءات الرسمية ؟ .. يكون ما كان من عمر فى الحادث الذى رويناه بغير اختلاف .. فالقضاء لا يأخذ بدليل يمنعه الدستور ولا تثبت عنده الجريمة الا بدليل مشروع ، والحكومة تضطر هنا الى السكوت ومتابعة الحالة حتى تسفر عن بينة يجوز لها أن تعتمد عليها أمام القضاء .. وهى فيما تصنع من هذا القليل أعجز من عمر فيما صنع . لأنه جعل الاستطلاع سبيلا الى العظة والتوبة . واستغنى عن الاجراءات الرسمية التى نحن عليها حريصون وبها جد فخورين ! ..

وقترب من حادث تطول فيه اللسنة العصرية أبعد مما طالت فى شتى الحوادث التى قدمناها ، ونعنى به كتابه الذى خاطب به النيل يوم قيل له انه أمسك عن الفيضان
وقد زعم المؤرخون أن أهل مصر ذهبوا الى عمرو بن العاص فى شهر

بؤونة فأخبروه أن للنيل عندهم سنة قديمة لا يجرى الا بها ، وهى :
 « انهم اذا كانت ليلة ثلاث عشرة من هذا الشهر عمدوا الى جارية بكر
 بين أبويها فحملوا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقوا بها
 فى النيل » .. فلم يجبههم عمرو الى ما سألوه وقال لهم : هذا لا يكون
 فى الاسلام ، وان الاسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة ، وأيب ،
 ومسرى ، لا يجرى فيها النيل قليلا ولا كثيرا ، ثم رفع عمرو الخبر الى
 عمر فاستصوب ما صنع وكتب له : انى بعثت اليك بورقة مع كتابى هذا
 فألقها فى النيل . وفى الورقة كتاب يخاطب به النيل يقول فيه : « من
 عبد الله عمر الى نيل مصر . أما بعد : فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر
 وان كنت تجرى من قبلك الله فنسأل الله أن يجريك »

قال رواة هذه القصة : ان عمر ألقى بالورقة فى النيل قبل يوم الصليب
 بشهر وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج فأصبحوا يوم الصليب وقد
 أجراه الله ستة عشر ذراعا واستراحوا من ضحاياه فى ذلك العام وفيما
 بعده من الاعوام .

والرواية على علاقتها قابلة للشك فى غير موضع عند مضاهاتها على
 التاريخ .. وقد يكون الواقع منها — ان وقعت — دون ما رواه الرواة
 بكثير ..

ولكن على هذا صحيحة بحذافيرها فما هى الغضاضة فيها على العلم
 الحديث ولا نقول على العقل « البدوى » قبل نيف وألف سنة ؟ ..

ان عمر لم يجد أهل مصر معولين^(١) فى فيضانهم على القناطر والسدود
 وفنون الهندسة ، فأبى عليهم أن يعولوا عليها ، ولكنه وجدهم معولين
 على خرافة يعافها العقل والشعور فأنكرها وحق له أن ينكرها ، ولم يقل
 لهم ان ورقته الملقاة فى النيل هى التى تجريه ، بل قال لهم : ان النيل
 ليجرى بغير تلك السنن التى استنوها له .. بغير القربان الذى يتقربون به
 اليه . وليس فى هذه القصة كلها ما يستغرب من حاكم عصرى مؤمن بالله
 منكر للخرافات . فورقة عمر أقرب الى العقل فى زماننا هذا من الكؤوس

(١) أى طريقة . (٢) يقال : عول علي بما شئت : أى استعن به .

(٣) يكرها ..

والقوارير التي تكسو في الأنهار عند فتح قناطرها وجسورها ، وأقرب
الى العقل من البخور الذي يحترق في البيع^(١) والهياكل جلبا للفيضان
واستغاثة بالسماء ..

ونحن لا نعرض لهذه الاشتات من طريقة عمر في حكومته لأنها هنات
تلجىء المعجب به الى دفاع وتسوين^(٢)، وليس في كل هذه الاشتات
وأشباهها ما يلجىء عمر ولا المعجبين به الى دفاع أو تسوين
وانما عرضنا لها توسعة لأفق النظر الى العظمة الانسانية في مختلف
أزمانها ، واستخفافا بالفرائب التي تخلقها العادة العارضة لعبادها ، ثم
هى لا تستحق من هوانها أن نخسر من أجلها شعورنا بعظمة الانسان
وانها لأنفس ما نعتر به في جميع الأزمان ..

عدل عمر نخسره لأنه كان يقضى فيه بغير « استثمارة »^(٣) مدموغة ينص
عليها قانون المرافعات ! .. أو لأنه كان يقضى فيه على غير « الاجراءات
العصرية » في مواجهة الحقوق الشخصية ! .. أو لأنه كان يقضى فيه
قضاء يختلف الفقهاء في عنوانه وفي الرف الذي يضعونه عليه بين رفوف
الأضيير^(٤) ! ..

يا لها من حماقة تخجل العصر الحديث ، تخجله وهو واقف بين
العصور يتناول عليها بتسخيف^(٥) الحماقات^(٦) وادحاض^(٧) الخرافات .

(١) : الكنائس • (٢) : تجويز • (٣) أي « استثمارة » • (٤) : الحزم
من الصحف • (٥) : قلة العقل • (٦) : ابطال •

عمر والنبي

يندر أن يظفر الباحثون في طبائع الانسان بمغرم نفسي هو أوفر^(١) ثمرة وأنفس^(٢) محصولا من دراسة عمر بن الخطاب ، لأن الظواهر المختلفة التي تتجلى في هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم ولا ظواهر كل دراسة ، ولأن اتفاقها البسيط مع تركيبها العجيب مما يتعذر جدا في النفوس التي نعهدها ، ومما يتعذر جدا حتى في نفوس الافذاذ من العظماء ..

بيد أن المغرم الأكبر في هذه الدراسة انما هو مغرم علم الاخلاق لأن علم الأخلاق أحوج الى الاستدلال بالظواهر الطبيعية ، وأقفر انى الاسناد والدعائم التي تقيمها أمثال هذه الدراسات

فكل نفس — عظمت أو صغرت — فدراستها مغرم لعلم النفس لاشك فيه ، كائنة ما كانت النتيجة التي تتأدى اليها من بحث خفاياها وتنظيم شواهدا ..

لكن الوصول الى نتائج علم الاخلاق هو الصعب الجديد الذي ان يزال اليوم وبعد اليوم صعبا وجديدا الى أمد بعيد^(٣)

فالمفروض أن نتائج علم الاخلاق « فكرية تكليفية » يستنبطها الفكر الذي يختلف في صوابه كما يختلف في خطئه ، ويمليها التكليف الذي يطاع ولا يطاع ، ويراض عليه الانسان رياضته على الأمر الغريب « الاجنبى » عن فوازع الطباع .

فاذا اهتمدنا الى نفس تعزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التي هي أقرب الى الآمال المنشودة^(٤) منها الى الوقائع الموجودة فقد ظفرنا بمغرم كبير ..

(١) أكثر • (٢) أغلى • (٣) زمن • (٤) نشد ضالته : أي طلبها •

واذا ظفرتنا بحقيقة نفسية ، هي في الوقت نفسه حقيقة فكرية وحقيقة خلقية فذلك هو المغنم المضاعف الذي قلما ينال .

ونفس عمر بن الخطاب هي تلك النفس التي تدعم علم الاخلاق من الاساس ، وهي ذلك الصرح^(١) الشامخ الذي تنظر الى اساسه فكأننا تسلفنا النظر الى ذروته العليا ، لأنه قرب بين الآمال والقواعد أوجز تقريب ، اذ هو التقريب الملموس .

آمال كثيرة من آمال محبى الخير ودعاة الاصلاح هي في نفس عمر بن الخطاب وقائع مفروغ منها ، كأنها وقائع المراتب والمسبوعات فمنها فيما أسلفناه: ان القوة لا تناقض العدل في طبيعة الانسان بل يكون العدل هو القوة التي تخيف فيخافها الظالمون ومنها فيما نحن بصدد الآن ، أن القوة لا تناقض الاعجاب ، على خلاف ما يتبادر الى الأكثرين

فان الاكثرين يحسبون أن الرجل الذي يعجب به الناس لا يعجب هو بأحد ، وأن البطل الذي يقدسه عشاق البطولة لا يعشق البطولة في غيره ، وأن التطلع الى الأعلى صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع ويحسنوا الخدمة والعون للكبار ، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر الى جانب المتفوقين عليه ، ممن هم أكبر قدرا وأحق بالاعجاب ..

لكن البطل الذي ندرسه هذه الدراسة ينقض ذلك الحسبان أقوى نقض مستطاع ، لأنه بطل يروع ويعرف روعة البطولة ... ويستحق الاعجاب غاية استحقاقه ، ثم يُخيّل اليك من فرط ولائه لمن يفوقه انه خلق للاعجاب بغيره ، ولم يُخلق ليكون هو موضع اعجاب .

فعمر كان يجب محمدا حب اعجاب ، ويؤمن به ايمان اعجاب ، ويستصغر نفسه اذا نظر الى عظمة محمد ، وما هو فيما خلا ذلك بصغير في نظر نفسه ولا في نظر الناس

كان محمد عليه السلام كما نعلم قدوة في الدعة وحسن المعاملة لجميع

صحبه وتابعيه ، وكان يعاملهم جميعا معاملة الاخوان والزملاء فلا يغمرهم برهبة التفاوت الشاسع والتفوق البعيد ، فلو جاز أن ينسى أحد-فارقا بينه وبين عظيم لنسى أصحاب النبي هذا الفارق بما يلقونه من مساواته وحسن معاملته ، ولو نسيانا الى حين .

الا أن عمر « العظيم » سمع مرة من صديقه محمد عليه السلام كلمة « يا أخى » فظل يذكرها مدى الحياة -
استأذنه في العمرة فأذن له وقال : « يا أخى لا تنسنا من دعائك » ..
فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها : « ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس لقوله يا أخى ! .. »

شهادة لعظمة محمد أنه يؤاخي الناس كبارا وصغارا وان الناس كبارا وصغارا لا ينسون ما فى مؤاخاته من فخر وغبطة^(١) وما بينهم وبينه من فارق بعيد ..

وشهادة لعظمة عمر انه أهل لذلك الاخاء ، لأنه يدرك ما فيه من عظمة ، ويشعر بما فيه من رضوان .

وما يدريك ما عمر الذى يشيع فى قلبه الفرح بهذا الاخاء ؟ ..
ليس بالرجل الذى يحب تواضع المرائين ، وليس بالرجل الذى يجهل مقداره أو يهاب مخلوقا بغير الحق ، وبغير الاعجاب
عمر هذا هو الذى تولى الخلافة ، وحجته الاولى فى ولايتها أنه أكفأ المسلمين لها غير مدافع ، وانه كما قال : « لو علمت ان أحدا أقوى منى على هذا الأمر لكان أن أقدم فتضرب عنقى أحب الى من أن أليه »
نعم ، هو عمر أقدر المسلمين كما يعلم ، وهو عمر الذى يستصغر نفسه اذا نظر الى المثل الأعلى والقدوة الفضلى ، وهو اذن أكبر ما يكون بهذا الاستصغار ..

لقيد كان يسمع ، وهو خليفة ، يقول كالساخر وما هو بساخر :
« بـج بـج يا ابن الخطاب . أصبحت أمير المؤمنين ! .. »
أكان يقولها لأنه كان يجهل أنه أكفأ العرب للخلافة بعد صاحبيه ؟ ..

(١) من معاني الغبطة : المسرة . (٢) : كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء ، وتكرر للمبالغة ، واذا وصت مكررة كسرت الخاء : بـج بـج .

كلا .. مل كان يقولها لأنه يعرف النظر الى المثل الأعلى .. يعرف الاعجاب بما فوقه . يعرف محمدا ويعرف أن اللحاق به أمل لا يطل . يعرف الاعجاب بطلا معجبا يبطل ، ويشاء فضله أن تحصى له هذه بين أصدق شواهد البطولة فيه .

ومن الخطأ أن يتوهم المتوهم أن عمر كان يتصاغر لأنه يشعر بصغره ، ويتواضع لأنه يشعر بضعة فيه

ان الصغير لا حاجة به الى تصاغر لأنه صغير ، وربما كانت حاجته الكبرى الى مداراة شعوره الدخيل بتفخيم الرواء^(١) وتزويق^(٢) الطلاء ، والتخايل بالمسكن والكساء .

وانما كان عمر يتصاغر لأنه يشعر بعظمته ويكبح^(٣) ما يخامره^(٤) من اعتداد بنفسه ، ومحال أن تمتلىء نفس بمثل هذه القوة ثم تخلو من شعور بقوتها واعتداد بقيمتها ، فليس ذلك من معهود الطباع في حي من الأحياء ، ولا تقصر القول على الانسان .

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء ، لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر ، فأبى أن يركب البرذون وهو يغالب عزة الفتح داخلا الى الشام دخول المنتصر ، وقيل له في ذلك فصاح بهم : خلوا سبيل جملي ا .. انما الأمر من ها هنا ، وأشار الى السماء

وكلما اعتز مَن حوله ، من خاصة أهله وخلصاء رعاياه ، بما يروونه فيه من بسطة السلطان وعلو الكلمة غض من اعتزازهم وأحضر في أذهانهم ما ينسيهم السلطان المبسوط والكلمة العالية ، فقال لأصحابه يوما وقد مر ببعض الشعاب على مقربة من مكة : « لقد رأيتني في هذه الشعاب أرى ابل الخطاب ، وكان غليظا يتعبنى ، ثم أصبحت وليس فوقى أحد ا » وضايقت هذه الكلمة ابنه فقال له : « ما حملك على ما قلت يا أمير المؤمنين ؟ » .. قال : « ان أباك أعجبه نفسه فأحب أن يضعها »

وانظر هنا الى كلمة « أمير المؤمنين » يقولها الابن ، ثم انظر الى كلمة « أباك » يهوها أمير المؤمنين

(١) وضع انرجل ضيعة : أي صار وضعيا ، والوضيع : الدنيا من الناس . (٢) : المنظر . (٣) أي تحسين . (٤) : جذبها باللبام لتقف . (٥) أي يخالطه .

ومني قبيل هذا ركوعه لله ذليلاً خاشعاً يوم أمر أبا سفيان أن ينقل الحجر من مكانه فنقله ، فخشع لله الذي جعله يأمر أبا سفيان في شعاب مكة فيستمع لما أمر .

وليس هذا وأشباهه تصاغراً يكشف الصغر ، إنما هو تصاغراً يكشف القوة والاعتداد بها ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد

بل يشاء بأس هذا البطل أن تتماهى فيه الصفات إلى غايتها وهي متناقضة في النظرة الأولى ، فإذا بهذا التماهى يردها إلى الوفاق والتكافؤ ولا يوسع ما بينها من ظواهر الاختلاف .

فما رأيناه أنه عادل يفوق العدول ، وقوى يفوق الأقوياء .. فإذا العدل والقوة فيه وققان متساندان لا يختصمان ولا يتناقضان .

ومما رأيناه أنه بطل تعجب بطولته الأصدقاء والخصوم ، ثم هو في إعجابه بالبطولة كأنه خلو من دواعي الإعجاب

وبقى من موافقاته النادرة أن الإعجاب عنده لا ينقض الاستقلال ، ولا يهدد « الشخصية » بالفناء والزوال ، فيعجب بمن يفوقه غاية الإعجاب ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ ، ولا يتناقض الأمران .

فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر

ولم يكن أحد مستقلاً برأيه في مشورة محمد أكبر من استقلال عمر . فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأي عند ذي الرأي الصريح

فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبي عليه السلام برأى يراه ، ولو كان ذلك الرأي من أخص الخصائص التي يقف عندها الاستقلال .

فمحمد في بيته وهو صاحبه ، ومحمد في شريعته وهو صاحبها ، كان يستمع إلى عمر حين يقترح ، وحين يستنزل الأحكام ، وحين يستدعى الوحي في أمر من الأمور .

فكان يشير على النبي عليه السلام أن يحجب نساءه ، ويبلغ ذلك

احدى أمهات المسلمين زينب فتقول له : انك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل علينا في بيوتنا ! .. وتخرج احداهن سودة وهي تحسب أن أحدا لا يعرفها لاستتارها بالظلام فيعرفها بطول قامتها ويناديا : « عرفتك يا سودة ! .. » ليؤكد ضرورة الحجاب . فيؤمر المسلمون بعد ذلك ألا يسألوهن الا من وراء حجاب !!!

ولما هم النبي عليه السلام بالصلاة علي عبد الله بن أبي كبير المنافقين يوم وفاته ، تحول عمر حتى قام في صدره ، وأخذ يذكره مساوي عبد الله وأقويله في النكايه بالاسلام وحكم القرآن فيه وفي أمثاله أن « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم »^(١) وألح في التذكير حتى أكثر على النبي عليه السلام وهو يتسم ويقول له : « أخر عني يا عمر ، لو أعلم أني ان زدت على السبعين غفر له زدت » . ثم صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه ... ثم ما كان الا يسيرا كما قال عمر حتى نزلت هاتان الآيتان : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره »^(٢)

وروى أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه أتفذه الى رهط من المسلمين فقال له : « اذهب اليهم فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله الا الله مستيقنا بها قلبه فبشّره بالجنة » فكان أول من لقي عمر . فصده وعاد به الى النبي يسأله : « يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، أبعثت أبا هريرة من لقي يشهد أن لا اله الا الله مستيقنا بها قلبه بشره بالجنة ؟ .. قال النبي : نعم .. فلم يترث عمر أن قال : فلا تفعل يا رسول الله ! .. فاني أخشى أن يتكل الناس عليها . فخلهم يعملون » فوافقه عليه السلام وقال : « فخلهم ! »

وفي التشريع أو التحليل والتحريم كان عمر لا يقنع حتى يصل الى القول الفصل فيما يستفسر عنه ويتردد في حكمه ، فما زال يسأل عن الخمر حتى حرمت وبطل فيها الخلاف . وهو هو الذي كانت الخمر شهوة له في الجاهلية يحبها ويكثر منها . ولو شاء لالتبس الرخصة فيها ولم

(١) الآية : ٨٠ من سورة التوبة . (٢) الآية : ٨٤ من سورة التوبة .

يكثّر من السؤال عن تحريمها ، ففى سؤاله عنها وحذرته منها فضل أكبر من فضل الاستقلال بالرأى والاخلاص فى المراجعة ، وهو فصل الغلبة على النفس والتحصن من الغواية بالأمر الذى لا هوادة فيه

وجرى صلح الحديبية الذى كان ظاهر الغبن^(١) فيه على المسلمين وظاهر الفوز فيه للمشركين . فيستطيع قارئ التاريخ قبل أن يحصى أسماء المعارضين للصلح والصابرين عليه أن يعلم أين كان عمر بين الفريقين . فقد غمّه هذا الصلح غما شديدا وذهب الى أبى بكر يراجع ويواجهه : علام نعطى الدنية فى ديننا ؟ .. فأجابه أبو بكر : يا عمر الزم غرزك (أى رحلك) فانى أشهد أنه رسول الله . وردد عمر انه ليشهد أنه رسول الله ثم ذهب فى بعض الروايات اليه عليه السلام فسأله : ألسنا يا رسول الله على الحق وهم على الباطل ؟ .. أليس قتلانا فى الجنة وقتلهم فى النار ؟ ورسول الله يجيبه : بلى ! .. فيعود فيسأل : علام نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ ..

فلما ناداه : ابن الخطاب ! .. انى رسول الله ! .. ولن يضيعنى الله أبدا ، ثم علم أنه القتح المنتظر ، ثاب الى الرضى وكفّ عن السؤال والمحنة على ما هى عليه أعظم مما يطيقه صبر عمر وتسكن اليه سورة طبعه ، فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذاك فيردوا من جاءهم من قريش ولا ترد اليهم قريش أحدا ممن يجيئون اليها ، وان يكتب النبى اسمه فى عقد الصلح فلا يكتب فيه انه رسول الله ، وهذه محنة وردت على حمية عمر بالوارد الجلل الذى ليس أقسى منه ولا أمر على هذه الحمية العزوف . ولكن الصلح لم ينته حتى تفاقت المحنة وادلهمت الغاشية^(٢) كأن ما ابتلاه منها لا يكفيه . فبينما هم يكتبون اذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف فى الحديد قد انقلت الى رسول الله . فقام اليه سهيل — وكان وكيل المشركين فى عقد الصلح — فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ليدفع به الى قريش ، وأبوجندل يصيح : يا معشر المسلمين ، أرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ .. فواساه النبى ودعاه الى الصبر

(١) غبنه ني البيع : حده . (٢) انسورة : الحدة . (٣) ادلهم الظلام :

كثف واسود (٤) من معاني الغاشية : القيامة والنار .

والاحتساب . ووثب عمر اليه يمشى الى جنبه ويدنى منه قائم السيف ويقول له : اصبر يا أبا جندل فانما هم المشركون . وانما دم أحدهم دم كلب ، ورجا — كما قال بعد ذلك — أن يأخذ أبو جندل سيفه فيضرب به أباه ... قال : ولكن الرجل ضن بأبيه وثقت القضية .

فالمحنة أعظم مما تطبقه الحمية العمرية بغير وازع من هداية نبوية . ولا ياما سكنت نفسه واطمأنت الى حكمة سيده ومعلمه وهاديه . ولا سيما حين ناداه : ابن الخطاب ! .. انى رسول الله ولن يضيعني الله أبدا .. هذه المراجعة كانت من خلائق عمر التي لا يحيد عنها ولا يأبأها النبي عليه السلام ، وكثيرا ما جراه واستحب ما أشار به وعارض فيه . فلا جرم يراجع النبي في كل عمل أو رأى لم يفهم مأثاه ومرماه ما أمكنته المراجعة وما قلقت خواطره حتى تثوب الى قرار^(١)

اللهم الا أن تستعصى المراجعة ويعظم الخطر ، فهناك تأتى الخليفة العمرية بآية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذي يضطلع بجلال المهام . فلما دخل النبي عليه السلام في غمرة الموت ، ودعا بطرس^(٢) يعمل على المسلمين كتابا يسترشدون به بعده أشفق عمر من مراجعته فيما سيكتب وهو جد خطير ، وقال : ان النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا . ومال النبي الى رأيه فلم يعد الى طلب الطرس واملاء الكتاب . ولو قد علم النبي أن الكتاب ضرورة لا محيص عنها لكان عمر يومئذ أول المجيبين

وكانت هذه سنته في حياة النبي وبعد موته في كل عمل لا يستريح اليه ، فلم يحجم عن مراجعة أمره حيا وميتا في مسألة ليست من مسائل الوحي الذي فيه فصل الخطاب ، وما كانت المسألة مسألة رأى فهو ناهض بها برأيه حتى يؤمن بخطئه أو يرده عن المعارضة أمر مطاع .

كذلك صنع في قيادة أسامة بن زيد قائد الجيش الى البلقاء وفيه جلة الصحابة من كبار السن والمقام . فقد ولاه النبي القيادة ومات عليه السلام وهو في أول الطريق . فقال أسامة لعمر : ارجع الى خليفة رسول

(١) أي استقرار . (٢) : الشدة (٣) : الصحيفة .

الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه يأذن لى أن أرجع بالناس ، فان معى وجوه الناس ، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل ^(١) رسول الله وثقل المسلمين أن يتخطفهم المشركون » وقالت الأنصار : فان أبى الا أن نمضى فأبلغه عنا واطلب اليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة » وغضب أبو بكر وكان جالسا فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف به : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! .. استعمله رسول الله وتأمرنى أن أنزعه ؟ ..

فوجب الطاعة ، لأنه أبرأ ذمته بالمراجعة وسمع أمر الرئيس الذى لا رجعة فيه ، وعمر جندى متى صرح له الأمر من صاحب الأمر لم يبق له الا أن يطيع .

وختمت سنة النبى بوفاته فلم يكن بين الصحابة أحد أحرص على هذه السنة وألزم لها وأكثر رجوعا اليها من عمر ، ولم تكن له وصية مقدمة على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله . الا أنه مع هذا لم يكن يغفل عن العلل اذا وجب البحث عن العلة التى وراء السنة النبوية ، فخالف أبا بكر رضى الله عنه فى اقطاعه الارض لعبيثة بن حصن والاقرع بن حابس وقال لهما : ان رسول الله كان يتألفكما على الاسلام وهو يومئذ ذليل ، وان الله قد أعز الاسلام .. فاذهبا فاجهدا جهدكما ... »

فقد علم سنة النبى مع « المؤلفة قلوبهم » ولم يغفل عن سببها وموقعها فهى سنة تطاع لحكمتها ولا توضع فى غير موضعها ، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التى ألفوها من صاحب الرسالة ، اذا تغيرت الحكمة واختلفت العلة ، واستغنى الاسلام عن ناصرين تتألفهم العطايا والاتقال ^(٢) .

ولمثل هذا السبب - ولا شك - نهى عن زواج المتعة ونهى عن التحلل من بعض مناسك الحج ولم يكن منهيها عنهما كل النهى فى حياة النبى عليه السلام . فكان الرجل يتزوج بالمرأة لأجل معلوم ثم يتركها ، وكان منهم

(١) من معاني البقل : كل شيء نقيس مصون . (٢) الانفال : الغنائم .

من ينوى الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه، فنهى عنهما عمر في أيام خلافته وقال : « متعتان كاتتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما » .

وموافقات عمر للقرآن والسنة كثيرة لا يدعونا المقام هنا الى احصائها واستيفائها ، وكذلك مراجعاته ومناقشاته فيما يرد عليه من أحكام لا تنجلي^(١) له مآتيها ومراميها^(٢)، فحسبنا منها دلائل استقلاله وصراحة عقله فيما سردناه ، وحسب الاسلام فخرا أن يؤمن به الانسان ايمان عمر ثم يستقل برأيه وطبعة استقلال عمر . فالايان في أقصاه لا يعطل الرأي المستقل في أقصاه ، وكل صفة في عمر فهي صفة مستقصية لا وسط فيها . اذا آمن فذلك غاية الايمان ، واذا استقل فذلك غاية الاستقلال ، واذا أعجب فذلك غاية الاعجاب ... وان الظفر الذي يظفره علم الاخلاق من دراسته لمبعثه هذا الشاهد من الصفات التي تتناقض في ظاهرها وهي على عهدنا بها في عمر ، متفقات متساندات لا تستغنى واحدة منها عن سائرهما ..

فان لم يكن في دراسة عمر الا أن نرى رجلا عادلا بالغا في عدله ، قويا بالغا في قوته ، معجبا بالبطولة بالغا في اعجابه ، مستقلا بالرأى بالغا في استقلاله ، لكفى بذلك ظفرا لعلم الاخلاق ، وكفى بسيرة واحدة ان تقرر لنا هذه الحقائق التي تستكثر على عشرات السير ، وهي ان القوة لا تناقض العدل ، وان البطولة لا تناقض الاعجاب ، وان الاعجاب لا يناقض الاستقلال ، وتلك الحقائق أثبت في عمر من معارف بدنه وملامح سيما ..

وكانت مودة النبي لعمر كمودة عمر للنبي شرفا له من جانبيه ، وشهادة لعظمته وعظمة معلمه ومؤدبه وهاديه .

كانت نظرة محمد اليه نظرة عالية لا تعلوها نظرة أحد من أصحابه فلم يكن أحد يكبر عمر كما كان يكبره عارفيه ، ولم يكن رضاه عن

(١) اي تظهر . (٢) أي مصادرها أو أسبابها والغاية منها .

مخالفاته ومراجعاته بأقل من رضاه عن موافقاته وتسليماته .. لأنه كان ينظر الى بواث هذه وتلك فيحدها ويرجو للاسلام خيرا منها ، بل يدخر للاسلام سورتته كما يدخر له تسليمه وطاعته ، ويسوسه في رفق وكرامة سياسة المعلم لتلميذه الذي يعينه ويستعين بغيرته ، ويروضه رياضة الامام لمريده الذي يهيئه للامامة بعد حين ، وبشجعه بقبول الحسن من رأيه تشجيعا يثبت فيه حسن الرأي ويسزيده منه .

ولا يتأتى أن ينظر النبي الملهم الى عمر دون أن يرى فيه أولى مشابهاته للطبائع النبوية وهى الالهام الدينى والبصيرة الروحية . فكان عليه السلام يقول فيه : « قد كان قبلكم من بنى اسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء . فان يكن فى أمتى أحد فعمر »

ومن قوله فى بعض ما نقل عنه عليه السلام : « لو كان بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب » وقوله : « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » ... وقوله : « عمر بن الخطاب معى حيث أحب ، وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان » .

وتلك لمحات نبي ملهم الى بصيرة ملهمة تقارب بصيره الأنبياء ... وان فى هذه اللمحات لمعرفة بالنفس ونفاذا الى الضمير ، من أجلها كان محمد مصلح نفوس وهادى ضمائر ، وفاتح عهد روحى فى تاريخ الانسان ومن تحصيل الحاصل أن نقول ، ان محمدا قد أحاط بكل عضيلة من فضائل عمر وكل خليفة من خلائق طباعه . وراقبه قبل اسلامه وبعد اسلامه فلم تفته كبيرة ولا صغيرة من مواطن العظمة فيه ، الا أنه لم يحمد منه شيئا كما حمد حبه للحق وكراهته للباطل ، فهى الخصلة التى تلاقيا فيها وتقاربا من قبلها ، وان كان محمد لأرحب صدرا وأعلم بالناس من أن يكلف صاحبه أن يشبهه كل الشبه فى علاج الحق والباطل ، فلا بد من فارق بين الرجلين هو الفارق الذى لا بد منه بين المعلم والمريد ، وبين الامام والمأموم ..

ولا نخالنا نلمس هذا الفارق كما نلمسه من قصة الأسود بن شريح

ذلك الشاعر الذي كان ينشد النبي بعض الاماديح فاستنصته مرتين اذ دخل عليهما عمر والشاعر لا يعرفه . فصاح : وا شكلاه ! .. من هذا الذي أسكت له عند النبي ؟ .. فقال النبي : « هذا عمر ... هذا رجل لا يجب الباطل » ..

وتلك قصة تكبر عمر مرة وتكبر النبي مرات ، فلا يسمعها السامع فيخطر له أن محمدا كان يقبل الباطل الذي يأباه عمر . أو كان يهوى اللغو الذي يعرض عمر عن سماعه ... وانما يسمعها فيعلم أى الرجلين يهدى صاحبه في مناهج الحق ويدربه على كراهة الباطل ويعلم أن الامام يطبق ما لا يطيقه المرید ويتسع صدره لما تضيق به صدور تابعيه ، وان محمدا أراد أن يعوّد الناس مهابة عمر ، وأن يستبقى لعمر سورتة في محاربة الضلال ، والأيام كفيلة بترويض تلك السورة فيما ينبغي أن تراض عليه ..

وهنا يتجلى مذهبان في كراهة الباطل ، ويتجلى فارق واضح بين مذهب المعلم ومذهب المرید :

فعمر كان ينكر الباطل انكار المحارب ويرفع له سلاحه حيثما رآه ، ومحمد كان ينكره ولا يرفع له سلاحه حيثما رآه ... لأنه يعلم ضروبا من الباطل وضروبا من الانكار

ومن الانكار أحيانا أن يتجاوز عنه ، وأن يشفق عليه اشفاق الرجل على سخف الطفل الصغير ، وأن يتربص^(١) به الأيام حتى يزول وأن يعالجه بسلاح المحارب وبغير سلاح المحارب ، وهو بذلك قد أعد له ضروبا^(٢) من الانكار ، وكان أكمل عدة له من الراصدين^(٣) له في ميدان واحد

أقول: ان الفارق بين محمد وعمر في هذا هو الفارق بين نبي وخليفة ! ؟ ان قلنا ذلك فقد قلنا حقا جامعا لا شبهة فيه ، ولكننا لا نعدو به تحصيل الحاصل وتكرير الأسماء ... فمحمد نبي وعمر خليفة ما في ذلك خلاف .. ولا بد بينهما من فارق ما في ذلك خبر جديد . فما هو الفارق الذي لا يعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات ؟ ..

(١) أي طلب منه أن ينصت ويسكت . (٢) : الانتظار . (٣) الضرب هنا بمعنى : الصنف . (٤) الراصد للشيء : الراقب له .

الفارق فيما نرى هو الفارق بين انسان عظيم ورجل عظيم فالنبي لا يكون رجلا عظيما وكفى . بل لابد أن يكون انسانا عظيما فيه كل خصائص الانسانية الشاملة التي تعم الرجولة والانوثة والاقوياء والضعفاء ، وتهيئه للفهم عن كل جانب من جوانب بنى آدم . فيكون عارفا بها وان لم يكن متصفا بها ، قادرا على علاجها وان لم يكن معرضا لأدوائها^(١) ، شاملا لها بعطفه وان كان ينكرها بفكره وروحه . لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الانداد^(٢) ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، وأخبر بسعة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء ، لأنه يملك مثلها آفاقا كآفاقها ، هي آفاق الروح .

ومن الصغائر الآدمية التي كثيرا ما يطبقها الانسان العظيم ، ويرم بها الرجل العظيم كل غرور صبياني يحيك^(٣) بنفوس الناس ، وهو ضروب ليست لها نهاية . غرور الشاعر بأماديحه ، وغرور الفنان بصنعبته ، وغرور المرأة بجمالها ، وغرور الشيخ بترائه ، وغرور الأحقق بخيالاته ، وغرور الجاهل بعلمه ... وفي كل ضرب من هذه الضروب كان بين محمد وعمر فارق واضح وتفاوت محسوس ، وكانت بينهما دروس تجرى بها الحوادث تعليميا وهدى كما تجرى عرضا غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين

وعمر رضى الله عنه قد استفاد من دروس معلمه وهاديه في هذه الضروب شتى الفوائد ، كما ظهر من سياسته في أيام خلافته ومن مراجعة نفسه والنبي عليه السلام بقاء الحياة

فقد أشار على النبي بقتل عبد الله بن أبي بن سلول حين مثنى بالفتنة بين المسلمين . فأبى النبي وترك عبد الله يمضى في شططه^(٤) حتى أنكره قومه وعنفوه ، وتصدى له من صلبه من يريد له الموت ، فقال النبي لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ .. أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقلته لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى وكان عمر يستكثر صلاة النبي على عبد الله بن أبي بعد موته

(١) أي لامراضها . (٢) جمع ند ، وهو : المثل والنظير . (٣) حاك الشيء في صدري : رسخ . (٤) : مجاوزة القدر في كل شيء .

ويستعظم أن يهب له قميصه وأن يكفنه أهله في ذلك القميص ، وكان النبي يرعى في ذلك حق ابنه الذي أخلص في اسلامه وبلغ من اخلاصه انه اقترح على النبي قتل أبيه ، وسئل النبي كما جاء في بعض الروايات : لم وجهت اليه بقميصك وهو كافر ؟ .. فقال : إن قميصي لن يغنى عنه من الله شيئا ، واننى أوئل من الله أن يدخل في الاسلام كثيرا بهذا السبب ! .. فقل: إن ألفا من الخزرج أسلموا لما رأوا زعيمهم يطلب الاستشفاء بشوب الرسول ، وخرجت الصحابة وعمر في طليعتها بعبرة باقية من هذا الدرس النبوى الحكيم .

وشبيهه بدرس عبد الله بن أبى درس الخطيب المفوه: سهيل بن عمرو الذى أسر في بدر فأشار عمر على النبي بكسر ثنيتيه السفليين ليعجز عن الكلام ، اذ كان مشقوق الشفة السفلى ... فأبى النبي « عسى أن يقوم مقاماً لا تدمه » فما زال وما زال عمر حتى رآه في حروب الردة يقطع بلسانه كما يقطع السيف ، فحمد له ذلك المقام .

وجاء الفتح بعد صلح الحديبية ، فرأى عمر كما رأى المعارضون معه أن قريشا خسرت ولم تربح بالصلح الذى عارضوه ، وإن المسلمين ربحوا ولم يخسروا بقبوله . وانهم زادوا عددا وزادوا حلفاء من غير المسلمين ، وإن الذين رفضهم النبي من تابعيه عملا بالصلح لم ينفعوا قريشا بل كانوا بلاء عليها أشد من بلاء القتال . وبدا ذلك من مبدأ الأمر لعمر فاعتبر به وقال : « ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا » .

وتجتمع خلاصة هذه الدروس كلها في خبر واحد من أخبار عمر بعد ولايته الخلافة : وذلك حين بلغوه فتح « تستر » وذكروا له أن رجلا ارتد عن الاسلام فقتلوه ، فلامهم على قتله وقال لهم : « هلا أدخلتموه بيتا وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفا فاستبتموه ؟ .. اللهم انى لم أشهد ولم آمر ولم أرض اذ بلغنى » .

فهذا عمر تلميذ محمد في الاسلام ، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول

ومن على شاكلته من المناققين والمشركين ، وهذا عمر المستفيد بما وعى من تلك الدروس ، ومعنى ذلك جميعه أن محمدا أعظم من عمر ، وليس معناه أن عمر لم يكن بعظيم .

ومن تحصيل الحاصل أن نقول ان النبي عليه السلام كان يعلم ما يحتاج اليه صاحبه وما يستغنى عنه من الدروس . فعمر لم يعوزه قط درس قوى يعلمه حب الحق وكراهة الباطل لأنها خليفة متمكنة منه أصيلة فيه موشوجة بطبعه ، ولكنه قد يعوزه حيناً بعد حين أن يتعلم الصبر على الباطل ولا سيما في فوعة الشباب ، وألا يأسى على الحق ان تفوته معركة زائلة في صراعه الدائم مع خصمه القديم ، فهي معركة لا تضيع بصدمة ولا تؤخذ بهجمة . ولا تزال سجلاً منظورة العواقب في ساعة النصر وساعة الهزيمة على السواء ! ..

وربما أعوزه ما يعوز الأقوياء في معظم الأحيان ، وهو أن يذكروا أن الناس جميعاً ليسوا بأقوياء ، وأن الناس جميعاً ليسوا بعمر بن الخطاب . فاذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرة واحدة ، فقد يشق ذلك على آخرين ، واذا استطاع أن يتصدى للموت في كل لحظة فليس ذلك في وسع كل مسلم ، وقلما يستحضر الاقوياء هذه الحقيقة الا بعد تذكير وروية . أما على البداهة فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلاً لما هم أهل له وكفؤاً لما هم قادرون عليه ، ولهم من الشرف في نسيان هذه الحقيقة فوق ما لهم من الشرف في تذكارها ودوام استحضارها .

وقد كان تفكير عمر كله على البداهة في عهد النبي عليه السلام ، فكان يفضى إليه بما يوحيه عفو خاطره وتمليه بادرة فكره ، مطمئناً الى مرجع الرأي ومقطع القول بين يديه ، شاعراً بواجبه الأول أحسن شعور في هذا المقام ، لأنه شعور الرجل الكريم الذى لا يرضن بشيء من عونه فهو يعرض أقصى ما عنده من البأس ويدع لصاحب الأمر أن يكتفى باليسير منه اذا شاء ، ولكن ليس عليه هو أن يعرض اليسير ويترك لصاحب الأمر

(١) أي موصولة . (٢) أي أول الشباب .

أن يطلب الكثير ..

(١) مثل عمر في هذه المواقف مثل صاحب المال، تنزل الضائقة الحازبة فييسط ما عنده من المال جميعا ويدع للوالى القائم بالتدبير أن يختار من ماله مقدار ما يريد ، وذلك أفضل الحسنيين وأكرم الواجبين ، وهو الواجب الذى يليق بعمر في صحبة الرسول ..

ولا يحسن قارىء اننا نعتسف^(٢) التأويل والتخريج لننظر الى عمر في أجمل الصور ونوجه أعماله أحسن توجيه . فما نقوله هنا لا يعدو تفسير عمر نفسه لما اتصف به من الشدة في عهد رسول الله وتفسيره ، كما قال غير مرة انه كان سيفا للرسول ان شاء ضرب به وان شاء أغمدته في قرابه ، وانه كان جلوازة^(٣) القائم بين يديه ، وليس من نساء الجلواز أن يمسك كثيرا أو قليلا من بأسه حتى يؤمر بامساكه ، ويرد الى الهوادة واللين بل هذا الذى نقوله هو الذى قاله أبو بكر رضى الله عنه في شدة عمر ولينه ، فكلما تحدثوا اليه بخلطته قال : انما يشتد لأنه يرانى لنا ، ولا غلظة على الضعفاء فيه .

فكان جميلا بعمر أن يسهو عن تلك الحقيقة ، وأن يحتاج فيها الى تذكير واستحضار ، وكان أفضل واجبيه لا مرأ أن يعرض البأس حتى يؤبى^(٤) ، ثم ثوب الى اللين ولا جناح عليه .

وهو اليقين الذى لا يخامرنا الشك فيه أن عمر كان خليقا أن يفهم تلك الحقيقة بتفصيلاتها لو جعل باله اليها ولم يجعل باله الى تقديم ما عنده « والجود بأقصى جوده » فى انتظار القول الفاصل من رأى النبى عليه السلام ، ولولا استعداداه لفهم تلك الحقيقة وما شابهها لما انتفع بالقدرة ولا أغنت معه المثل والتجارب

ومهما يكن من حاجته الى دروس معلمه وهاديه فالذى نعتقده أن مكانه من الخلافة لم تقرره الحاجة الى تلك الدروس ، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد فى هذا الاعتبار سواء منهم الخلفاء الراشدون وغير الخلفاء الراشدين . فما من رجل كان بين أصحاب محمد عليه السلام الا

(١) حزيه الامر : نابه واشتد عليه . (٢) العسف : الاخذ على غير

الطريق . (٣) الجلواز : الشرطي . (٤) يرفض .

كان مفتقرا الى جانب من جوانب هديه وتهذيبه وتقويمه ، وما كان عمر على التخصيص بأشد افتقارا الى ذلك من رفاقه وتابعيه وان اختلف ما يعوزهم من مواضع الهدى ، والتهذيب ، والتقويم .

وواضح مع هذا أن دعوة النبي عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس في مرض وفاته لم تكن بالمصادفة ولا بالاختيار الذي يتساوى فيه أبو بكر وعمر في ذلك المقام ، فقد دعاه ثم دعاه حتى وصل الأمر اليه رضى الله عنه فلباه ، وتفصيل ذلك كما جاء في رواية البخارى أن النبي اشتد عليه المرض فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . قالت عائشة رضى الله عنها : ان أبا بكر رجل رقيق القلب اذا قام في مقامك لا يكاد يسمع الناس من البكاء .. فلو أمرت عمر ؟ .. فعاد النبي يقول : مروا أبا بكر فليصل ! .. فعاودته ، فقال مرة أخرى : مروه فليصل .. أنكن صواحب يوسف ! » ..

حدث عبد الله بن زمعة أن بلالا دعا النبي الى الصلاة فقال : مروا من يصلى بالناس « فخرجت فاذا عمر في الناس ، وكان أبو بكر غائبا . فقلت : قم يا عمر فصل بالناس . فقام ، فلما كبر سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته ، وكان عمر رجلا مجهرا^(١) فقال : فأين أبو بكر ؟ يابى الله ذلك والمسلمون . فبعث الى أبى بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس »

قال عبد الله بن زمعة ان عمر لقينى فقال لى : ويحك ! .. ماذا صنعت بى يا ابن أبى زمعة ؟ .. والله ما ظننت حين أمرتنى الا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك . ولولا ذلك ما صليت بالناس ... قلت : والله ما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ! .. ولكن حين لم أر أبا بكر رأيته أحق من حضر بالصلاة .

والواضح من كلتا الروايتين أن النبي عليه السلام قصد الى اختيار أبى بكر للقيام في مقامه من امامة المسلمين وضمن ذلك ما ضمنه من معنى

(١) مجهرا : أي عالي الصوت .

الاستخلاف والتقديم .

فعلى أى وجه نفهم هذا الاختيار الذى صدر عن قصد وروية ولم يصدر عن مصادفة واتفاق ؟ .. وعلى أى وجه تساءل النبى عليه السلام حين سمع صوت عمر ولم يسمع صوت أبى بكر فقال : « يابى الله ذلك والمسلمون » ؟

اننا لا نفهم ذلك الا على وجه واحد يجمل بمحمد ويجعل بأبى بكر ويجعل بعمر ويجعل بالمسلمين :

فمن البديه أن ينظر النبى فى اختيار خليفته الى جميع الاعتبارات التى تدخل فى الحساب ، ولا يقنع بالنظر الى اعتبار واحد
فاذا نظر النبى الى جميع الاعتبارات فأى غضاضة على عمر أن يقع الاختيار على أبى بكر ولا يقع عليه ؟ ..

ان اختيار أبى بكر يجمع للاسلام فضائل الرجلين ، ولا غضاضة فيه على أحدهما ولا على المسلمين . ولكن الغضاضة أن يتأخر أبو بكر وهو أسن وأسبق الى الاسلام وثانى اثنين فى الغار ، وأقمن^(١) أن تبطل حوله منافسة الأنداد ، وله رأى الصائب والشجاعة الماثورة والايمان الثابت والمسألة المرضية والحق الظاهر فى الاثار كلها قبول بغيره من الحقوق ومع هذا الرجحان الذى اتفرد به أبو بكر ترجيح آخر لاستخلافه فى الموقف الذى كان منظورا بعد موت النبى عليه السلام ، وهو موقف رضى ومسألة بين المسلمين يغنيان اذا جرت الأمور فى مجراها الطيب المأمون . فاذا تأزمت واضطربت وتفتت حيلة اللين حتى نبذه^(٢) أبو بكر فى رفقته وهوادته فذلك اذن موطن الاجماع ، واذا صلب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلين فى الأمر سواه فصلابتهم أقمن اذن أن تنعطف بليته الى الاجماع الذى لا شذوذ فيه .

فالنبى عليه السلام قد حسب للعواقب كل حساب ، وقد نظر فى استخلافه الى كل اعتبار ، وقد وازن بين أمور كثيرة ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة

ومما نظر اليه عليه السلام أن عمر أصغر من أبى بكر بعشر سنوات أو نحو ذلك ، فدور أبى بكر لا يحجب دور عمر ، وإذا انتفع الاسلام بمزايا أبى بكر فى حينها الذى هو أحوج اليها فسينتفع الاسلام بمزايا عمر فى الحين الذى يتولاه فيه ، يوم تغنى الصلابة فى مدافعة الأعداء ما أغناه الرفق فى تأليف الاوداء^(١) .

ولا يحسبن قارىء هنا أيضا أننا نستخلص النتائج من التاريخ وندرك ما كان بعد أن كان ، فالواقع المنصوص عليه ان الذى رأيناه بعد وقوعه قد كان منظورا اليه قبل أن ينكشف عنه الغيب . وقد نظر اليه النبى عليه السلام فقال : « أريت فى المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قلب فجاء أبو بكر فزعه ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا ، والله يغفر له ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا فلم أر عبقرىا يفرى فريه^(٢) حتى روى الناس وضربوا بعطن^(٣) » . ولم يخف معنى هذه الرؤيا على معبريها لأنها لا تحتل غير تعبير واحد ، وهو الذى أشار اليه الشافعى رحمه الله ففسر ضعف النزاع بقصر المدة وعجلة الموت والاشتغال بحرب أهل الردة عن « الافتتاح والازدياد الذى بلغه عمر فى طول مدته »

ويجوز أن النبى عليه السلام قد أدخل فى حسابه تقديرات أخرى من هذا القبيل لا يحيط بها أبناء عصره ولا نراها نحن فى عصرنا . فلهذه المسائل فى جميع العصور نواحيها الموضوعية ونواحيها الخاصة التى لا يدركها كل من عاش بينها ولا يتأتى نقلها بالكتابة والتدوين . ومتى كانت هذه التقديرات التى فصلت فى مسألة الترشيح للخلافة ، فأى غضاظة فيها على عمر ..؟ انها شىء لا يتناوله وحده وليس لكفاءة أبى بكر ولا لكفاءته هو كل اليد فيه ، وان الذى حدث لا يعدو أن يكون موازنة بين أحوال ثم تقديما للصالح فى تلك الأحوال ، أو هو تأخير موعد ومناسبة وليس بتأخير حق وكفاءة ، فأبو بكر كفؤ للخلافة وعمر

(١) : المحبين . (٢) : أي بئر . (٣) : الدلو المملوء . (٤) : انقلببت عن حالها . (٥) : الدلو العظيمة ، وعرق في العين يسقي لا ينقطع . (٦) : أتى بالعجب . (٧) : المكان الذى تترك فيه الابل حول الماء .

كفؤ للخلافة ، ولكن تقديم أبى بكر أصلح وأولى وأوفق لأحوال الزمن
ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين

وانك لتكونن على ثقة من حقيقة واحدة في رهط محمد تجزم بها وأنت
آمن أن تخالف التاريخ فيما بطن وفيما ظهر ... وذلك انه عليه السلام
لم يبرم^(١) قط أمرا فيه غضاضة على أحد من أصحابه ، ولا سيما في مسألة
الاستخلاف أو التقديم للإمامة والصلاة بالناس ، فكل الذى حدث
فبها فهو الذى يجعل بالنبي من تقدير وتدير ، ويجعل بصاحبه من إثار
وتوقير ، ويجعل بالاسلام من تمكين وتعمير ، وانتفاع بعمل كل عامل
واقترار كل قدير -

بقى جانب من جوانب العلاقة بين النبي وعمر، لايسكت عنه لكثرة ما
قيل فيه ، فضلا عن وجوب النظر فيه لأنه يتم العلم بتلك العلاقة ويزيدنا
فهما لها واستقصاء لمداها واطلاعا على طريقة عمر في الموازنة بين الواجبات
والشئون حيثما اشتجرت بين يديه ، ونريد به جانب العلاقة بين عمر وآل
البيت وبين عمر وابنى عم النبي الكيرين على وابن عباس بعد انتقال
النبي الى الرفيق الأعلى ...

فالذين أولعوا في التاريخ بخلق القضايا والمخاضات يقولون كثيرا في
هذه العلاقة ويمثلون عمر على صورة الرجل الذى كان يتحدى بنى هاشم
ويناحزهم مناجزة^(٢) لعصية فيه عليهم . ولكنهم لا يذكرون من الوقائع ما
يعزز شبهة أو يرجح بظن في هذه الوجهة . وكل ما حفظته لنا أنباء العصر
فانما تخلص بنا الى الخلاصة التى تجمل بعمر وتحمد منه . وهى
الوفاء المحض^(٣) لذكرى النبي عليه السلام فى آله وخاصة بيته ، والأمانة
المحض لمصلحة العرب والاسلام مقدمة على كل مصلحة خاصة أو عامة ،
وكل ما عدا ذلك لغو وباطل

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبي النصيب الأوفى والمكان المقدم
بين الصحابة . وكان لهم التفضيل فى كل حق من حقوق المسلمين حسبما

(١) : أحكمه . (٢) : شجر بين القوم : اختلف الامر بينهم ، واشتجر
القوم : تنازعوا . (٣) : المقاتلة . (٤) : أي يقوى . (٥) : الخالص .

كان بينهم وبينه عليه السلام من رحم وقرابة ، وفضلهم عمر على أقرب الناس اليه في اللقاء والحفاوة ، فكان في بعض الأيام ينتظر الحسين بن علي رضي الله عنه فذهب اليه الحسين فلقى عبد الله بن عمر في الطريق فسأله : من أين جئت ؟ .. قال : استأذنت على عمر فلم يأذن لي . فرجع الحسين ولم يذهب اليه ... ثم لقيه عمر معاتبا وسأله : ما منعك يا حسين أن تأتيني ؟ .. قال : قد أتيتك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر : أنه لم يؤذن له عليك فرجعت ... فعز ذلك على عمر وقال له : وأنت عندى مثله ؟ .. وأنت عندى مثله ؟ .. وهل أنبت الشعر على الرأس غيركم ؟ ..

وكسا عمر أصحاب النبي فلم يكن في الاكسية ما يصلح للحسن والحسين رضي الله عنهما . فبعث الى اليمن فأتى لهما بكسوة تصلح لهما فإل حين رآها : الآن طابت نفسى ! ..

وسافر الى الشام فاستخلف عليا رضي الله عنه على المدينة وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع اليه في قضائه متحرجا من دعوته اليه حين يحتاج الى سؤاله : استفتاه بعضهم في مجلسه فقال : اتبعوني ، وأخذهم الى على فذكر له المسألة فقال على : الا أرسلت اليّ ؟ .. قال عمر : أنا أحق باتيانك ..

وكذلك كان يستفتى ابن عباس في الدين والأدب ولا يلقاه باحشا مسترسلا في الحديث الا قال له معجبا متبسطا : غص غواص ! .. وقلما سئل في أمر وابن عباس حاضر الا قال يشير اليه : عليكم بالخير بها (١) ولم يحجم عن توليتهم الولايات الا كما أحجم عن تولية الجلة من الصحابة ورؤوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة وصانهم عن محاسبته وعتابه . وفي ذلك يقول لابن عباس . انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم ... والله ما أدرى أصرفكم عن العمل أو رفعكم عنه وأتتم أهل ذلك ؟ .. أم خشى أن تعاونوا لمكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب ؟

(١) حفى ، حفاوة ، فهو حفي : أي بالغ من اكرامه ، والطافه ، والعناية بأمره . (٢) أي يكف ويمتنع . (٣) قوم جلة : أي سادة عظماء ذوو أخطار .

أما مسألة الخلافة فالذى يزعمه فيها الذين يخوضون فى القضايا والمخاصمات أن عمر رضى الله عنه تعمد أن يحول بين على والخلافة بصرفه النبى عن كتابة الكتاب الذى أراد أن ييسط فيه وصاياه فلا يضل المسلمون بعده ، ويزعمون : أنه هو قد حال بين على والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها .

واستكثروا من عمر صرامته فى دعوة على الى مبايعة أبى بكر كما جاء فى بعض الروايات التى ترجح صحتها ، وخلصتها : « ان عمر أتى منزل على وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال : والله لأحرقن عليكم الدار أو لتخرجن الى البيعة ، فخرج الزبير مصلتا بالسيف فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه ... » أو قال لهما فى رواية أخرى : « والله لتبايعان وأتتما طائعان أو لتبايعان وأتتما كارهان »

فاستكثروا المستكثرون هذه الصرامة ، وعدووها من اصرار عمر على الاجحاف بعلى واقصاء بنى هاشم عن الخلافة .

أما القول بأن عمر هو الذى حال بين النبى عليه السلام والتوصية باختيار على للخلافة بعده ، فهو قول من السخف بحيث يسىء الى كل ذى شأن فى هذه المسألة ، ولا تقتصر مسأته على عمر ومن رأى فى المسألة مثل رأيه ..

فالنبى عليه السلام لم يدع بالكتاب الذى طلبه ليوصى بخلافة على أو خلافة غيره . لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج الى أكثر من كلمة تقال ، أو اشارة كالاشارة التى فهم المسلمون منها ايثار أبى بكر بالتقديم ، وهى اثارته اليه أن يصلى بالناس

وقد عاش النبى بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبه ، ولم يكن بين على وبين لقائه حائل ، وكانت السيدة فاطمة زوج على عنده الى أن فاضت^(١) نفسه الشريفة . فلو شاء لدعا به وعهد اليه ...

وفضلا عن هذا السكوت الذى لا اكراه فيه نرجع الى كل سابقة من سنن النبى فى تولية الولاية فنرى انه كان يجب « آله الولاية ويمنع

(١) فاضت نفسه : خرجت روحه .

وراثۃ الأنبياء » وهذه السنة مع هذا السكوت لا يدلان على أن محمدا صلوات الله عليه أراد خلافة على فجيل بينه وبين الجهر بما أراد ..^(١) ولم يعتمد عمر على الشورى في اختيار الخليفة بعده وله مندوحة عنها . فقد رأى من أصحابه — كما قال — حرصا سيئا وخلافا لا يحسمه رأى واحد ، وكانت حيرته عظيمة ، بين الاستخلاف وترك الاستخلاف ، فلما قيل له وهو طعين يودع الحياة : ماذا تقول لله عز وجل اذا لقينه ولم تستخلف على عبادي ، أصابته كآبة .. ثم تكس رأسه طويلا ثم رفع رأسه وقال : « ان الله تعالى حافظ الدين . وأى ذلك أفعل فقد سن لى . ان لم أستخلف فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف ، وان استخلفت فقد استخلف أبو بكر » .

واختار للشورى في أمر الخلافة أناسا ليس بين المسلمين أولى منهم بالاختيار ، وكأنهم كانوا مسمين بأسمائهم لهذه المهمة لو لم يرشحهم هو ، لرشحهم لها كل مختار .

ولم يكن الفكك^(٢) من التبعة هو الذى أوحى اليه أن ينفذ يديه ويلقى بالعبء على عواتق غيره .. فعمر لا ينجو بنفسه ليقع أحدا فيما يحاول النجاة منه ، ولكنه قدر أن الرجل الذى تختاره كثرة المحكمين هو أولى أن ينعقد عليه الاجماع وينحسم بترجيحه النزاع . فمن خرج عليه فهو باغى فتنة يتبعها الاقلون ويردعها الاكثرون .

وكان مع هذا يود لو اجتمع رأى على اختيار على^(٣) بعد المشاورة ، فقال لابنه : لو ولوها الاجلح « أى المنحسر الشعر » لسلكت بهم الطريق فسأله ابنه : فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدم عليا ؟ .. قال أكره أن أحملها حيا وميتا .

وفيما عدا الاستخلاف بعد النبى ، والاستخلاف بعد عمر ، فالسياسة التى جرى عليها عمر كانت كلها سياسة عامة قائمة على أساس عام لا تفرقة فيها بين بنى هاشم وغيرهم ولا بين على وغيره

(١) أى سعة . (٢) أى بقطعه . (٣) أى التخلص .

فكان يكره أن تستأثر بالأمر عصابة دون غيرها بالغة ما بلغت منزلتها ، ولم يكره ذلك من بيت هاشم دون سائر البيوت .
كان يحجر^(٢) على وجوه^(٣) قريش أن يخرجوا الى البلدان الا باذن والى أجل ، وبلغه أنهم يشكونه فأعلن في الناس : « ان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما في أنفسهم ، الا ان في قريش من يضر الفرقة ويروم^(٤) خلع الربة^(٥) ، أما وابن الخطاب حى فلا . إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد »

وكان يزجر قومه بنى عدى كلما أحس منهم الطمع في خلافته لأنه واحد منهم ، فيصارعهم قائلا : « بخ بخ بنى عدى ! .. أردتم الأكل على ظهري ، وأن أهب حسناتي لكم ، لا والله حتى تأتيكم الدعوة وأن أطبق عليكم الدفتر ... » أى وان كتبتم في الاعطية آخر الناس . وهو الذى أبى أن يختار ابنه للخلافة وقال للمغيرة بن شعبة الذى زين له استخلافه : لا أرب^(٦) لنا في أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتى ان كان خيرا فقد أصبنا منه ، وان كان شرا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ..

وجمع عليا وعثمان في مجلس الشورى لاختيار الخليفة فالتفت الى على فقال : « اتق الله يا على ان وليت شيئا ، فلا تحملن بنى هاشم على رقاب المسلمين .. »

والتفت الى عثمان فقال : « اتق الله ان وليت شيئا فلا تحملن بنى معيط على رقاب المسلمين » أو قال : بنى أمية

وكان أكبر همه أن يعصم الاسلام من الملك الذى يستأثر به مستأثر لأناس دون أناس ، وكثيرا ما سأل : والله ما أدري خليفة أنا أم ملك ؟ ! مستعيذا بالله من كل سلطان لا يعم جميع رعاياه بالخير ... وكلمته لابن عباس حيث قال : « ان الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة ، وان قريشا اختارت لأنفسها فأصابته » هى كلمته حيثما تكلم في هذا

(١) أي جماعة . (٢) منع التصرف . (٣) : سادتهم وعظماؤهم .
(٤) : يطلب . (٥) : العروة في الحبل ، والمراد : الدين والخلافة . (٦) أي لا حاجة .

الصدد لا يخص بها بيتا دون بيت ولا معشرا دون معشر ولا قبيلة دون قبيلة .. الامر الأمانة لمصلحة المسلمين جميعا ، حيثما اتفقوا عليها أو كان لهم رجاء في الاتفاق ..

وما كانت لعمر صرامة مع على لم تكن له مع غيره في مأزق الخوف من الفتنة والذود^(١) عن الوحدة .. فقبل أن يسلم الروح كانت وصيته وهو لا يعلم من الخليفة بعده : « ان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وان اتفق أربعة فرضوا رجلا وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما . فان رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ، فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس » .

وما اختار ابنه عبد الله للفصل بين الفئتين المتساويتين الا لأنه خارج من الاختيار ، ثم لم يجعل له القول الفصل حتى يفتح للناس مخرجاً من رأيه ان شاءوا ألا يتبعوه

ولن يقضى بأمثل من هذا القضاء في مأزق الفتنة أحد له قضاء عادل منزّه عن خبايا القلوب ...

فما اتخذ عمر من حكم بين الناس فهو الحكم الذى يجمل به ويحمد منه ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر الناس . هو الحكم الذى يعم ويعدل ولا يخص ويتحيز ، وهو الحكم الذى لو سئل فيه النبى سيد بنى هاشم لأعاد فيه قوله : « عمر بن الخطاب معى حيث أحب وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان »

عمر والصّحابة

بايع عمر فبطل الخلاف الا ما لا خطر فيه
وبويع عمر فبطل الخلاف الا ما لا خطر فيه

وقد تواترت أقوال الصحابة في عمر بما يشيد بفضله ويشهد بقدره
ويكبر في أعين الناس أكبر من تقال فيه .. لأن الذين قالوها أناس لهم
حلوم^(١) راجحة ، والسنة صادقة ، وعقيدة راسخة ، وقلوب لا تهاب أن
تقول الحق في انسان . ولكن الشهادتين اللتين شهد بهما الواقع أدل على
قدر عمر بين الصحابة من كل ما قيل . لأن شهادة الواقع هي الشهادة
التي يقولها الصادق باختياره، ويحاول الكاذب أن يكذب فيها فلا
يستطيع ، وانما يجوز الصدق والكذب فيما يملكه اللسان أو يملكه
الشعور ، أما الشهادة التي تعبّر عن نفسها بلغة الواقع ، فهي قائمة من
وراء كلام الألسنة ومن وراء هوى النفوس : انكارها كإنكار المحسوس
الذي تقع عليه الأيدي، ولا تغض عنه العيون .

وقد انتهت مسألة الخلافة بعد النبي بسلام

ولكن انتهاءها بسلام لا يعنى انها كانت ستنتهى وحدها بسلام على
أيه حال ، ولا يعنى أنها انتهت لأنها من المسائل التي يؤمن فيها الخطر
وتمتنع فيها الفتنة . اذ الحقيقة أن انتهاءها على هذا النحو قد كان أعجوبة
من أعاجيب التاريخ ، مع ما يحيط بها من دواعي النزاع، ومن كوامن القلق
والخوف على غير سابقة يستقيم بها العرف وتتضح بها معالم الطريق
فما هو الا أن لحق النبي بالرفيق الأعلى حتى تخفرت دواعي النزاع
من كل فج^(٢)، وتكشفت كوامن القلق والخوف من كل ممكن ، وجهل
علم الناس كيف تنجلي الغاشية ويستقر القرار .

(١) جمع حلم ، والحلم : العقل والائتاء ، والمراد هنا : العفول .

(٢) : الطريق الواسع بين جبليين .

فالأنصار يقولون: إنهم أحق بالخلافة من المهاجرين ، لأنهم كثرة
والمهاجرون قلة ، ولأنهم في ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم ، ولأنهم
جميعا عرب مسلمون ولهم فضل التأيد والايواء
والمهاجرون على قلتهم غير متفقين على اتفاق يعقد به الاجماع ،
وحجتهم الغالبة انهم السابقون الى الاسلام ومنهم جلة الصحابة الاولين
وتسايرت الأحاديث بحق آل البيت النبوي في الخلافة النبوية ، وبين
آله رجلا نهما على والعباس .. لو أصفيا الى هذه الدعوة ومضيا فيها
لتمخضت^(١) عن خطب عظيم

وكان هذه العصبيات لم تكف دعاة الخلاف حتى جاء أبو سفيان
يزيدها عصية أخرى بالمفاخرة بين أكبر القبائل وأصغرهما في قريش .
فدخل على علي^(٢) والعباس يثيرهما ويعرض عليهما النجدة والمعونة ،
ويحيب بعلي باسمه . ثم بالعباس باسمه : « يا علي ! .. وأنت يا عباس ! ..
ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ .. والله لو شئت لأملأها
عليه - يعني أبا بكر - خيلا ورجلا وآخذنها عليه من أقطارها » ...
فيجيبه على بما هو أهله : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ،
ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه وإياها » ، ثم يبلغ به كرم
النجيزة أن يؤنب أبا سفيان من طرف خفي على سعيه في هذه العصية^(٣)
فيقول : « يا أبا سفيان ! .. ان المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وان
المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض ، متخاونون وان قربت ديارهم
وأبدانهم ! .. » -

ولم تكن هذه العصبيات كل ما هنالك من دواعي النزاع وكوامن
القلق والخوف . فقد كان هنالك منافقون أسلموا وهم راغمون^(٤) ، وكان
هنالك ضعفاء من المسلمين يقفون على شفير^(٥) من الفتنة لا يلبث أن
يضطرب تحت أقدامهم حتى ينهار ، وكان هنالك أناس لا ينصرون ولا
يخذلون ، فهم ان لم يفسدوا في الارض لا يصلحون .
وبين هذه المخاوف والنوازع تنتهي مسألة الخلافة بسلام فيكون

(١) : أتى بها . (٢) : أي الطبيعة . (٣) : كارهون . (٤) : شفر الشيء
وشفيره : حده ، وناحية الوادي من أعلاه .

اتنهاؤها بسلام أعجوبة الأعاجيب . وتبحث عن سر هذه الاعجوبة أو عن سرها الأكبر فيغنيك فيها أن تذكر اسما واحدا هو اسم عمر بن الخطاب ... الى أين كانت تلك الفتنة ذاهبة لو لم يقف في وجهها عمر وقتته المرهوبة يوم السقيفة ؟

سؤال يدلك على سر تلك العجيبة قبل كل جواب .. فما عثرف رأى عمر في البيعة حتى بطل الخلاف الا ما لا خطر له . واطمان من يوافق ، وعلم من يخالف أن خلافه لا ينفعه واجتمعت كلمة على مبايعة أبي بكر أوشكت أن تكون كلمات

قال أبو بكر لعمر : أبسط يدك نبايع لك

قال عمر : أنت أفضل مني

قال أبو بكر : أنت أقوى مني

قال عمر : ان قوتى لك مع فضلك . لا ينبغي لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فوقك يا أبا بكر . أنت صاحب الغار مع رسول الله ، وثاني اثنين ، وأمرك رسول الله حين اشتكى فصليت بالناس ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر

ووثب عمر فأخذ بيد أبي بكر . فتواثب الجمع من علية الصحابة^(١) يتتدرون البيعة ، ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر وتكلم عمر بين يديه يقول للناس : « ان الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثاني اثنين اذ هما في الغار ، وأولى الناس بأموركم ، فقوموا فبايعوا » ...

فكانت البيعة العامة ، وتركت شجرة الخلاف لجفاف ، فان لم تذبل لساعتها فهي وشيكة ذبول

بايع عمر فقطعت جهيضة قول كل خطيب^(٢)

وذلك قدر عمر عند الصحابة ، وقدره عند أبي بكر ، وقدره عند الله ، تغنى شهادة السرائر فيه عن شهادة كل كلام .

وفي تلك الكلمات الموجزات التي تبادلها الصديقان العظيمان خلاصة

(١) بدر الى الشبي : أسرع . (٢) مثل عربي نصه : « قطعت جهيضة قول كل خطيب » ويضرب للبت في الامر ، كثر فيه الراي ، ودار حوله الخلاف ، وجهيضة : اسم امرأة .

تقد الناقدین وبحث الباحثین وحکم التاريخ فی أبی بکر وعمر ، وفي موقف الخلافة من بدايته الى منتهاه

قال عمر : انک أفضل منی

وقال أبو بکر : انک أقوى منی

وقال عمر : ان قوتي لك مع فضلك

صدقا غاية الصدق ، وجاملا غاية المجاملة ، وقضيا بالعدل والحكمة والاخاء . وتركنا التاريخ يقول ما يقول ويسهب ما يسهب ، ثم لا يزيد فی فحواه كلمة على ما ضمنته تلك الكلمات الموجزات

ولقد کان من قوة عمر أنه کان يراجع أبا بکر فی خلافته حتى يرجع عن رأيه ، وکان من فضل أبی بکر أنهم يسألونه مستشيرين : والله ما ندری أنت الخليفة أم عمر ؟ .. فيقول : هو لو کان شاء ! ..

وکان فضل أبی بکر وقوة عمر جمعا لا يشذ عنه مكابر . ومن شذ عنه فما له من فضل ولا قوة ينفعانه

بل کان الرجلان على اختلافهما فی المزاج كأنهما رجل واحد يراجع نفسه بين الرأيين المختلفين ، حتى يستقر على أحدهما فاذا هو رأى جميع لا خلاف فيه ، لأنهما يصدران عن عقيدة واحدة ويتجهان الى غرض واحد . فهما غير مفترقين الى أمد طويل

وأعجوبة الاعاجيب فی هذا الأمر موقف الرجلين من المشكلة الكبرى التي واجهتهما معا بعد موت النبی بأيام قلائل وهي مشكلة الردة ونكوص^(١) العرب عن أحكام الدين ، وحيرة الصحابة الكبار فيما يعامل به المرتدون وليس العجب أن يختلف أبو بکر وعمر فی مشكلة كبيرة أو صغيرة ، وانما العجب هو نوع هذا الخلاف الذي لم يتوقعه أحد . فيخالف أبو بکر لأنه يجنح^(٢) الى الشدة والصلابة ، ويخالف عمر لأنه يجنح الى اللين والهوادة .. ثم يلتقيان ولا يتعارضان ..

فأبو بکر بأبى الا أن يحارب الدين منعوا الزكاة ويقول مصرا على

(١) أي رجوع . (٢) يجنح:يميل .

قوله : « والله لو منعوني عناقاً ^(١) لقاتلتهم على منعها »
وعمر يقول له : « كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فمن
قالها فقد عصم منى نفسه وماله الا بحقه وحسابه على الله ! ؟ »
ويشارك عمر في رأيه جلة الصحابة ^(٢) كأبي عبيدة الذي قال فيه النبي :
« انه أمين الأمة » وسالم مولى أبي حذيفة الذي قال فيه النبي : « ان
سالمًا شديد الحب لله » وأناس من هذه الطبقة في صحابة الرسول
ويعود أبو بكر فيقول : « ان الزكاة حق المال » وفيها نحارب بالحق .
ثم يهيب بعمر : رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك !.. اجبار في الجاهلية
وخوار ^(٣) في الاسلام ؟ ..
فاذا بعمر يشوب الى شدته بعد أن أفرغ أمانة الرأي كما قال : « ما هو
الا أن رأيت ان الله شرح صدر أبي بكر للقتال حتى عرفت انه الحق »
وما أسهل أن يعرف الحق لمن يريد أن يراه ولا يغمض عينيه
أرجلان هنا مختلفان أم رجل واحد ؟ ..
قل هذا وذاك فالقولان مستويان . ما دمت لا تنسى ان الرجلين
المختلفين معهما العقيدة الراسخة التي لا تفارقهما ، وطالما جمعت العقيدة
جيوشا على قلب واحد ، فضلا عن رجلين ..
وانما كان يعيب عمر أن يعارض اذا كان في المسألة وجه واحد
لا يحتمل المعارضة بحال ، فاما أن يكون لها وجه آخر يديه ويشرح حجته
فالذي يعيبه ويضير الاسلام أن يكتفم ذلك الوجه وأن ينطوى عليه صامتا
في موقف البحث والمشاورة ، وهو الناصح الأمين .
ومسألة الردة قد كان لها وجه آخر غير الذي رآه أبو بكر رضي الله
عنه ، وكان عمر خليفاً أن يرى ذلك الوجه الآخر لأنه موافق لمجمل آرائه
في الحرب والسياسة . فقد كان بطيئاً الى الحرب كما عرفنا من عامة
وصاياه ، وكان أبطأ ما يكون عنها اذا نشبت ^(٤) بين العرب أو المسلمين ،

(١) : الاثنى من ولد المعز . (٢) أي عظماء . (٣) أي ضعيف . (٤) أي

وكان جيش الاسلام بعيدا عن المدينة في غزوة الروم التي خرج بها أسامة ابن زيد بعد قيام أبي بكر بالخلافة ، فالترث الى أن يستكمل الاسلام عدته ويسترجع الغائبين من جنده وجه غير ضعيف ، أو هو في أقل الأمر وجه لا يحسن كتمانته عن الأمير المستول .

وقد كان من عادة عمر أن يطيع صاحب النعمة متى وجبت الطاعة واستقر القرار ، فلا ضير اذن لا يألوه جهده معارضة حتى يتبين مذاهب الرأي على اختلافها ، ثم هو مستعد بقوته لمعاوته بأقصى ما استطاع ومثل هذا الرجل معارضته قوة فوق قوة وخير لا ضير فيه .

وخلق بنا أن نهمها على صوابها في مسألة الردة فنعلم بعد النظرة الثانية أنها من دلائل قوته المعهودة وليست من فلتات الضعف فيه . لأنه رأى الرأي فلم يحجم أن يديه ويشرح حججه ، جريئا فيما رآه .

وعلى هذا الدأب ظل عمر قوة لأبي بكر بموافقته ومعارضته على السواء . وأصاب فيما قال له يوم بايعه : « ان قوتى لك مع فضلك » . فكسب الاسلام خليفتين معا بتقديم أبي بكر للخلافة ، لأنهما لم يبغيَا بالخلافة مأرباً غير خدمة الاسلام^(١)

ثم بويع عمر بالخلافة فبطل الخلاف الا ما لا خطر فيه عرضها عليه أبو بكر فقال : لا حاجة لى فيها ، فقال أبو بكر : « ولكن لها بك حاجة يا ابن الخطاب » ... وسأل خيرة أصحابه فقال له عبد الرحمن بن عوف : هو والله أفضل من رأيك فيه . وقال عثمان بن عفان : « ان سريرته خير من علانيته ، وانه ليس قينا مثله » وسأل أسيد بن الحضير فقال : « اللهم اعلمه الخيرة بعدك . يرضى للرضى ويسخط للسخط والذى يسر خير من الذى يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه » ..

وأجمع المهاجرون والانصار على تزكية عمر وتصويب أبي بكر في ترشيحه . ولعلمهم لم يذكروا من مناقبه الا ما هو لا أقالنى الله ان أقتلك وتقدم الى ضرار بن الازور بضرب يكن قدح القادح ليخلف رأيه فيه :

(١) يعال : فلتات المجلس : أي هفواته وزلاته . (٢) : العادة والسنن .

(٣) أي مطلبها وحاجة .

لأنه على عرفانه بالدنيا وعرفانه بالناس لا يجهل أن رجلا كعمر بن الخطاب في حزمه وصدقه لن يخلو من مبغض ، ولن يبغضه أحد لما يعيبه ويحول بينه وبين ولاية أمر المسلمين

قال له وهو يعرض عليه الخلافة : « يا عمر ! .. أبغضك مبغض وأحبك محب . وقدما يبغض الخير ويجب الشر » .

وإن منهم لمن حذره شدة عمر وقالوا له : « انك كنت تأخذ على يديه ولا تطيق غلظته ، فكيف وهو خليفة ؟ .. وما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافه علينا ؟ ..

فبلغ الصبر بالرجل الصبور مداه ، وأمر من حوله أن يجلسوه فجلس فقال لمن خوفوه الله وعمر : « ابالله تخوفوننى ؟ .. خاف من تزود من امركم بظلم . أقول : اللهم انى قد استخلفت على أهلك خير أهلك ! » ولو شاء أبو بكر لقال ان ما خوفوه من شدة عمر لفضيحة من فضائله التى قدمته عنده على غيره . فقد خاف عليهم الفتنة ، وكان أكبر حذره أن تجيء الفتنة من أولئك الاعلام الذين يتبعهم الطغام^(١) . وليس لهؤلاء غير عمر يرهبونه ويتقون الفتنة باتقائه ، فمن هنا وصاه فحذره « هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قد اتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه » وقال له : « ان لهم لحيرة عند زاة واحد منهم فايالك أن تكونه واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ، ولك مستقيمين ما استقامت طريقك » .

فالذين حذروه عمر انما رغبوه فيه ولم يحذروه منه ، لأنه أراد لهم من يخافونه ويستقيمون معه ، فكانت سيئته عندهم حسنة عند أبى بكر ورجاء فى صلاح أمر الاعلام والطغام .

فلما اتفق مدح المادحين وتقذ الناقدين على اثار عمر بالخلافة فرغ أبو بكر من مشورته وأبرأ الى الله ذمته ودعا بعثمان فأملى عليه :
« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث

(١) الطغام : أوغاد الناس .

يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب : انى استخلفت عليكم
بعدى »

ثم أخذته غشية فيكتب عثمان « عمر بن الخطاب » ولم يترك الكتاب
خلوا من الاسم مخافة أن يذهب الموت بأبى بكر في تلك الغشية فيلج من^(١)
يلج بالخلاف ، وله شبهة يحوم عليها ...

وانه ليكنبها اذ أفاق أبو بكر فقرأ عليه ما كتب ، فكبر وأدرك ما وقع
في روعة فحياه ودعا له : « جزاك الله عن الاسلام خيرا : والله ان كنت
لها لأهلا » ... ثم أتم الكتاب .

ثم بويع عمر بالخلافة باجماع لم ينعقد لخليفة قبله ولا بعده الا أن
تكون ورائه في دولة استقرت لها دعائم وثبتت لها أركان . فكانت شهادة
من الصحابة والمسلمين أجمعين بما هو أنطق من اللسان والقلوب :
بالبدية التي لا تكذب في صادق ولا كذوب .

وجائز جدا أن يبدأ عمر خلافته وهذا رأى المسلمين فيه ، وأن يختمها
آخر الأمر ورأيهم فيه على اختلاف ، اذ الحكم يخلق العدوات ، ويفتق^(٢)
أسباب التباعد في الظنون والآراء . ويفتن صاحبه حتى يتبدل من حيث
يريد ولا يريد . فشهادة أخرى من شهادات الواقع والبداهة أن عمر قد
فارق الدنيا والمختلفون فيه ينتصون ، والمتفقون على حمده يزيدون^(٣) ،
ثم هم يزيدون في حمدهم إياه وثنائهم عليه .

دخل زياد على عثمان في خلافته بما بقى عنده لبيت المال ، فجاء ابن
لعثمان فأخذ شيئا من فضة ومضى به . فبكى زياد ... قال عثمان : ما
يبكيك ؟ .. قال : أتيت أمير المؤمنين بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له
فأخذ درهما فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام وان ابنك هذا جاء
فأخذ ما أخذ ، فلم أر أحدا قال له شيئا ... قال عثمان : « ان عمر كان
يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله . وانى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه
الله ، ولن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر ! .. »
وبكى على يوم موته ، فسئل في بكائه فقال : « أبكى على موت عمر

(١) يلج : يدخل . (٢) حام الطائر : دار . (٣) الروح بالضم : العقل
والقلب . (٤) فتق الشيء : شقه . (٥) أي عددا . (٦) أي مقاما وقدرًا .

ان موت عمر ثلثة في الاسلام لا ترتق الى يوم القيامة ^(١)
وقال عبد الله بن مسعود : « كان اسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ،
وكانت امارته رحمة »

وقال معاوية يوازن بين الخلفاء : « أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم
ترده .. وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها . وأما نحن فتمرغنا فيها ظمرا
لبطن » ..

وقال عمرو بن العاص وهو يحدث نفسه : « لله در ابن حنتمة . أي
امريء كان ! .. »

ولم يقل فيه قائل ، راض ولا ساخط ، الا ثناء كهذا الثناء بعد خلافة
طويلة لو خرج منها بنصف الثناء لأربى ^(٢) على الأمل في انصاف بنى
الانسان ..

ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما رعوا قدره .. الا أنه كان
مفضلاً في هذا كما كان مفضلاً في جميع محامده وحسناته ، فإنه رعى
أقدارهم وهو مستطيع ألا يرعاها ، وقليل منهم من كان قادراً أن يعمل
معه غير ما عمل ، ويقول فيه غير ما قال

جمع منهم مجلس المشورة لا يبرم ^(٣) أمراً ولا ينقضه الا بعد مذاكرتهم
والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مأثورات النبی وأحاديثه

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعاً له فجنبهم ولاية الاعمال قائلًا لمن راجعه
في ذلك : « أكره أن أدنسهم ^(٤) بالعمل » فسبق الدساتير العصرية بحسن
تقسيمه وصادق حدسه ^(٥) وتديره : هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس
الأمة أن يلي عملاً من أعمال الحكومة ، فهما في الدولة وظيفتان لاتجتمعان
وقدم صفارهم على أعظم العظماء من رؤوس القبائل وقروم الجزيرة
العربية . فحضر بابه سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان
ابن حرب في جمع من السادة ينقطع ندهم بين الكافرين ، وحضره معهم
صهيب وبلال وهما موليان فقيران . ولكنهما شهدا بدرًا وصحبا رسول

(١) : الخلل في الحائط . (٢) : لا تلتئم . (٣) اسم ام عمر . (٤) : أي

زاد . (٥) أي يحكم . (٦) : الوسخ . (٧) : الظن والتخمين . (٨) : السيد .

الله .. فأذن لهما قبل عليه القوم !^(١) وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه :
لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابهم ؟ .. أما صاحبه
فكان حكيما فقال : أيها القوم ! .. انى والله أرى الذى فى وجوهكم ...
ان كنتم غضايا فاغضبوا على أنفسكم . دعى القوم — الى الاسلام —
ودعيتهم فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم اذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟
ولو غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال .. ولا أمن أن يغضب عليه
أبو سفيان وسهيل ..

لكنه الحق فوق كل قدر عند هذا القسطاس^(٢) الذى يعطى كل ذى قدر
قدره حيث ينبغى له من تقديم وتأخير . فيقدم من يقدمه عمله ويؤخر من
يؤخره عمله ، ولا عليه من غضب الغاضبين ولوم اللائمين .

فلما نذب الناس الى غزو العراق فبادر اليه أبو عبيد بن مسعود
وتخلف من حضر الدعوة من الصحابة ولاء قيادتهم وأبى أن يوليها رجلا
من السابقين من المهاجرين والانصار . وأجاب من راجعوه قائلا : « لا
والله ! .. لا أفعل . ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو .
فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع
وأجاب الى الدعاء . والله لا أؤمر عليهم الا أولهم اتدابا »

ثم دعا معه ابن عبيد وسليط بن قيس فأبلغهما « انكما لو سبقتما
لوليتكما ... » والتفت الى أمير الجيش الذى اختاره فقال له : « اسمع
من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد
مسرعا حتى تتبين ، فانها الحرب » .

هذا ما استحقوه .. فلا رجحان لهم الا بالحق ، ولا رجحان عليهم الا
للحق ..

ومن الحق الذى له الرجحان عليهم حق الأمة جمعاء وحق الأمان الذى
يعم الدولة ويوطد أركانها ، فاذا خيف على الدولة من بعضهم فأمان
الدولة مفضل عليهم ، وحقها الأكبر مقدم على الكبير من حقوقهم . فربما
حبسهم فى المدينة لا يسافرون منها الا باذن والى أجل ، مخافة منهم على

(١) أي ساداتهم وعظمائهم . (٢) : الميزان . (٣) أي يقوى .

الناس ومخافة عليهم من الناس . ويستأذنه أحدهم في غزو الروم والفرس محتجا بسابق بلائه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتخذ من سابق هذا البلاء حجة عليه يذوده^(١) بها عن السفر ، ويقول له : « ان لك في غزوك مع رسول الله ما يكفيك ويبلغك ، وبحسبك ، وهو خير لك من الغزو اليوم ، وان خيرا لك ألا ترى الدنيا ولا تراك » .

على هذا الوجه وحده ينبغي أن تفهم كل علاقة كانت بين عمر وبين أحد من أكابر الصحابة والتابعين ، فهو القسطاس الذي لا يجور ، وكأنه لا يعرف الجور لو شاء .

بل على هذا الوجه وحده تفهم كل علاقة بينه وبين أحد من عامة المسلمين ، فلكل رجل حقه ولكل عمل حقه ، ولا ضير على أحد أن يتأخر قدره ويتقدم عمله ، ولا ينفع أحدا أن يتقدم قدره ويتأخر عمله ، فكل عمل وله حساب ، وكل قدر وله كرامة ، وأكبر الصحابة خليف أن ينزل منزلة المرءوسين لمن سبقهم الى العمل النافع : وأصغر الناس خليف أن ينال جزاءه الحسن اذا استحقه ، وكل قسطاس غير هذا القسطاس فانما يفارقه الحاكم لظلم أو لخوف ، وليس هذا ولا ذاك سبيل الى عمر ، لأنه عادل ، ولأنه لا يخاف ، واذا وقع ما يخافه غيره فهو ضليع بالتبعات .

على هذا الوجه وحده ينبغي أن نلتبس التأويل في محاسبات عمر ومعاملاته اذا وقع منها ما يحتاج الى تأويل ، وقل في محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج اليه ، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره ، وحسابه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين

ففى جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة لم توضع مسألة فى موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادة كما وضعت مسألة خالد بن الوليد رضى الله عنه ...

ولا يعقل أن تكون هذه المسألة شذوذا عن خطته مع جميع القادة والولاة ، لأن الذى صنعه فيها عمر هو الذى كان منتظرا أن يصنعه ،

(١) أي يدفعه ويرده . (١) أهدقت النار : اتقدت وازدادت اشتعالا .

سواء كان القائد خالداً أو كان رجلاً غيره ... وهذا الذى ينفى الشذوذ والحيث^(١)، أو ينفى المعاملة الخاصة التى تكيل للناس بكيلين وتزن لهم بميزانين ، وتنظر اليهم بنظرتين مختلفتين .

عزل عمر خالداً وهو سيف الاسلام وبطل الجزيرة والشام ، واذا كان لابد لخالد بن الوليد من عزل أو قاض عادل ، فلن يكون عزله وقاضيه غير عمر بن الخطاب .. هو على قدر عزله بلا مرأى ، وهو قدر كبير .. فقال اناس انها منافسة الند للند والشبيه للشبيه ، وقال اناس عزله لغير خطأ آتاه ، وقال اناس انها ترة قديمة ولولاها لما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله ، وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده ..

والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيلها لهم وتقربها الى حدسهم . لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهة خلق وخلق توحى الظن بالتنافس والملاحاة ، وكانت مشابهة خالد لعمر فى خلقته تلتبس على بعض الناس فيكلمون عمر وهم يحسبونه خالد بن الوليد ..

فمن شاء أن يخطب بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله ، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته وأمسك عن الخوض فى أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الاولى ، وكتب الى الأمصار يبرئه من الخيانة ويعلنهم: « انه لم يعزله لسخط ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به » ... قال : « فخشيت أن يوكلوا به ويبتنوا ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لا يكونوا بعرض فتنة » ولما سأله خالد فى ذلك قال له : « ان الناس افتتنوا بك فخفت أن تفتن بالناس »

فمن شاء أن يخطب بالظن هنا فقد يخطب ما شاء وله شبهة فيه ، ولكنه لا يرجع الى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه . ويوقن أن عمر لم يحاسب خالداً بميزان غير الذى حاسب به جميع القادة والولاة ، وأن المدهش الحق أن يبقيه فى الولاية والقيادة بعد ما

(١) أي انجور والظلم . (٢) أي ضغينة . (٣) أي يضرب .

أخذه عليه ، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين
والذى أخذه عمر على خالد يرجع بعضه الى أيام النبی عليه السلام ،
وبعضه الى أيام أبی بكر رضى الله عنه ، وبعضه الى أيامه ، وكله مما
يصح أن يؤخذ به في موقف الحساب ، وان كان الذى حدث في أيام عمر
وحدها كافيا لما قضاه في أمره .

ففى فتح مكة نهى رسول الله خالدا عن القتل والقتال ، وقال له
وللزيير : « لا تقاتلا الا من قاتلكما » . ولكن خالدا قاتل وقتل نيفا^(١)
وعشرين من قريش وأربعة من هذيل ، فدخل رسول الله مكة فرأى
امراة مقتولة فسأل حنظلة الكاتب : من قتلها ؟ قال : خالد بن الوليد .
فأمره أن يدرك خالدا فينهاه أن يقتل امراة أو وليدا أو عسيقا — أى
أجيرا — وبعث اليه من يسأله : ما حملك على القتال ؟ فاعتذر بخطأ
الرسول في تبليغه ، وشهد الرسول على نفسه بالخطأ فكف عنه .

ثم بعث رسول الله خالدا الى بنى جذيمة داعيا الى الاسلام ولم يبعثه
للقاتل ، وأمره ألا يقاتل أحدا ان رأى مسجدا أو سمع أذانا ، ثم وضع
بنو جذيمة السلاح بعد جدال بينهم واستسلموا . فأمر بهم خالد فكثفوا .
ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم ، وأفلت من القوم غلام يقال
له السמידع حتى اقتحم على رسول الله وأخبره وشكا اليه . فسأله
رسول الله : هل أنكر عليه أحد ما صنع ؟ .. قال : نعم ، رجل أصفر
ربعة^(٢) ورجل أحمر طويل ... وكان عمر حاضرا فقال : أنا والله يا رسول
الله أعرفهما ، أما الاول فهو ابنى ، وأما الثانى فهو سالم مولى بنى حذيفة .
وظهر بعد ذلك أن خالدا أمر كل من أسر أسيرا أن يضرب عنقه ، فأطلق
عبد الله بن عمر وسالم مولى أبى حذيفة أسيرين كانا معهما ... فرفع
رسول الله يديه حين علم ذلك وقال : « اللهم انى أبرأ اليك مما صنع
خالد » ... ثم دعا على بن أبى طالب وأمره أن يقصد الى القوم ومعه ابل
وورق^(٣) فودى^(٤) لهم الدماء وعوضهم من الاموال .

وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه وجه خالدا الى بعض أهل الردة

(١) النيف : الزيادة ، وكل ما زاد على العقد فهو نيف . (٢) ليس
بالطويل ولا القصير . (٣) الدراهم المضروبة . (٤) أي دفع الديات .

يدعوهم الى أحكام الاسلام أو يقاتلهم حتى يثوبوا اليها . فعزم على المسير الى مالك بن نويرة ولم يأمره الخليفة بالمسير اليه . وأحجم الانصار ينتظرون أن يكتب اليهم الخليفة بما يراه ، وقال خالد : « قد عهد الى أن أمضى وأنا الأمير ، ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت ان أعلمته فاتنى لم أعلمه ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد الينا لم ندع . أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، فأنا قاصد الى مالك ومن معى من المهاجرين والتابعين ولست أكرههم ... »

ثم جاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر من بنى ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم : يشهد قوم أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا ، ويشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء . فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم فى ليلة باردة . وأرسل فيما قيل مناديا ينادى : ادفنوا أسراركم ، فظن القوم أنه أراد قتلهم لأن ادفاء الأسرى كناية عن القتل فى لغتهم ...

ويروى أن مالكا قال لخالد : ابعثنا الى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا . فلم يجبه خالد الى طلبته وقال له : لا أقالنى الله ان أقتلك ، وتقدم الى ضرار بن الازور يضرب عنقه . وتزوج بامرأته فى الحرب وهو أمر تكرهه العرب وتعايره .

وقد أبلغ الخبر عمر بن الخطاب فقال لأبى بكر : ان سيف خالد فيه رهق^(١) . فاعتذر له أبو بكر بأنه « تأول فأخطأ » وودى مالكا واستدعى خالدا اليه ..

قدم خالد فدخل المسجد ، وعليه قباء^(٢) ، وفى عمامته أسهم غرزها للمباهاة . فقام اليه عمر فنزعها وحطمها وقال له : قتلت امرا مسلما ثم نزوت^(٣) على امرأته ؟ .. والله لأرجمنك بأحجارك ! ..

وكان أبو بكر رضى الله عنه همّ بعزل خالد لاستثثاره بتصرفه المال الذى فى ولايته فسأل عمر : من يجزىء جزاء^(٤) خالد ؟ .. فندب عمر نفسه ليخلفه ان لم يكن بد من ذلك ، وتجهز عمر حتى أنيخ الظهر^(٥) فى الدار ، لولا أن مشى أصحاب رسول الله الى أبى بكر يوصونه أن يحتفظ بعمر

(١) أي يرجعوا . (٢) الخفة ، وركوب الشر ، والظلم ، وغشيان المحارم .

(٣) أي دفع له الدية . (٤) نوع من اللباس . (٥) أي وثبت . (٦) أي من

يفوم مقامه ؟ (٧) أي هيئت الراحلة ليركبها .

لحاجته اليه ، وأن يبقى خالدا في ولايته لحاجته اليه ، فعمل بما أشاروا
ذلك ما كان في عهد النبي وأبي بكر ، فلما بويغ عمر كتب الى خالد
أن يراجع في حساب المال ، والا يعطى شاة ولا بعيرا الا بأمره ، فأحاله
الى ما جرى به العمل قبله ، وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب قال
فيه : « اما أن تدعني وعملي والا فشأنك بعملك » ، فلم يطقها عمر
وقال : « ما صدقت الله ان كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه »
وقد أبرمه منه ^(١) أنه وهب للشاعر الاشعث بن قيس عشرة آلاف درهم .
ونمي الأمر اليه كما كانت تنمي اليه أخبار الولاة والقواد من عيونه
وأرصاده . فكتب الى أبي عبيدة أن يحاسبه على هذه الهبة « فان زعم
أنها من اصابة أصابها فقد أقر بالخيانة وان زعم أنها من ساله فقد
أسرف » ..

وقد أبي خالد أن يجيب في مبدأ الأمر فاعتقله أبو عبيدة بعمامته كما
أمر عمر ونزع منه قلنسوته في موقف المحاسبة حتى قال انها من ماله .
فقومت عروضه ^(٢) وضم ما زاد منها الى بيت المال ، وقال له عمر يومئذ :
« يا خالد ! .. والله انك على لكريم ، وانك الى لحبيب ، ولن تعاتبني
بعد اليوم على شيء » .

ولم يعزله عمر دفعة واحدة على أثر قيامه بالخلافة كما جاء في بعض
الأخبار ، لأن اسم خالد كان بين أسماء الشهود على عهد بيت المقدس
بعد فتحه ، والارجح ان في تاريخ لقصة خطأ وقع فيه بعض المؤرخين
ومنهم ابن الأثير ، فكتب عن عزل خالد في أخبار السنة الثالثة عشرة
للهجرة ثم ذكره في أخبار السنة السابعة عشرة ، وأورد في الموضعين
أقوالا متشابهات ..

تلك جملة المآخذ التي أخذها على خالد من عهد النبي عليه السلام
الى عهد خلافته ، وما من أحد يعرف عمر ثم يلوح له أنه أنكر من خالد
شيئا كان يقبله من غيره ، وأنه نصب له ميزانا غير الموازين التي يحاسب

(١) أي جعله يضجر . (٢) أي بلغه وعلمه . (٣) أي قيده . (٤) أي

قدرت . (٥) أي أمتعته . (٦) أي يظهر .

بها القواد والولاة وكل صاحب عمل مسئول . فرأى عمر في انكار هذه المأخذ معروف من بداية أيامه ، والذين لزموه وتأدبوا بأدبه ينكرونها مثله ولو كانوا على البعد منه ، كما حدث من ابنه في بعثة جذيمة حيث أبى على خالد بطشه بمن أوثقهم وعرضهم على السيف . ثم أنكر النبي عليه السلام ما أنكره واستصوب ما استصوبه .

فعمر كان يكره الاسراع الى القتال ويوصى قواده جميعا بالترث فيه ، وربما نحى القائد المغوار^(١) عن القيادة وهو كفؤ لها لأنه يجعل بالقتال ، كما قال لسليط بن قيس : « لولا انك رجل عجل^(٢) في الحرب لوليتك هذا الجيش ، والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث^(٣) » .

وكان يتخرج غاية الحرج ان يستبيح دم برىء أو مشكوك فيه ، وتقدم في هذا الكتاب أنه لام أناسا من أصحابه لأنهم قتلوا رجلا ارتد عن دينه ، وقال لهم : هلا استبتموه وجستموه ؟ .. وتبين من رأيه في أهل الردة انه كان يؤثر الهوادة والاستتابة على القتال . فان كان قتال فالذى لا حيلة فيه ولا محيص عنه ، فانكاره لمقتل مالك بن نويرة وأصحابه هو رأيه الذى لا شذوذ فيه ، ويضاف اليه انكار البناء بامرأته ، ووفوع البناء بها في أثناء المعركة ، وهو أمر لا ينفرد عمر بكراهته وانتقاده ، بل تكرهه العرب عامة ، مسلمين وغير مسلمين .

وكان عمر يحاسب جميع الولاة أدق حساب : يكتب عروضهم قبل ولايتهم ، ويسألهم فيما فشا من طارئ أموالهم ، ويأمرهم اذا عادوا الى أهلهم أن يدخلوا المدينة نهارا لينكشف ما عادوا به اليهم ، ويقاسمهم كل درهم يربى^(٤) على المحسوب من أرزاقهم . ويجرى على هذه السنة مع كل وال وكل عامل ذى أمانة . فلم يستثن منها أحدا قط ، ولم يعرف وال قط سلم من مصادرة أو حساب عسير

فالذى صنعه مع خالد حين أنكر « سرعة هجماته وشدة صدماته » سنة عمرية لا شذوذ فيها ، والذى صنعه حين حاسبه على هبائه وبوزياعاته سنة عمرية كذلك لا شذوذ فيها ، ولو انه صنع غير هذا

(١) أي الشجاع . (٢) عجل : أي متسرع . (٣) الرزين . (٤) أي

انتشر . (٥) أي يزيد . (٦) أي الطريفة .

الصنيع لقد كان ذلك هو الشذوذ المستغرب الذي لا يقع من عمر بن الخطاب خاصة ، لأنه لا يحابى ولا يفرق في المعاملة ولا يبالي غضب قائد كبير ولا وال قدير . وليس يجب أن يقال: إن رجلا من الرجال لا غنى عنه لدولة الاسلام . فربما كان شيوع هذه العقيدة أخطر على الاسلام من عزل وال مظلوم أو ولاية مظلومين .

ولا تنسى الأمانة الكبرى التى هى أكبر من أمانة الرفق بالولاية والعدل في محاسبة العمال ، ونعنى بها أمانة الدين والدولة أو ما نسميه نحن في أيامنا « بالسياسة العليا » ..

وعمر لا يتركنا نفسر أعماله هنا باجتهادنا في فهمها وتأويلها على ما نراه ، بل يصرح للناس فيها بما يفتنهم عن التفسير والتأويل فكان يرعى في شئون الولاية الكبار والقواد المشهورين أمرين يجيزان له عزلهم ولو لم يقع منهم ما يوجب المؤاخذه^(١).

أحد هذين الأمرين ، أن يفتن بهم الناس فيفتنوا هم بالناس كما قال لخالد بعد عزله . والخوف في هذا الأمر من القائد الكفو أعظم من الخوف من قائد صغير لم يبل أحسن البلاء ولم تتسائر بذكراه الأنباء ، فليس لهذا خطر في بقائه كخطر القائد الكبير .

وخطته هنا عامة لا يخص بها واليا دون وال ولا قائدا دون قائد . فلما عزل زياد بن أبى سفيان عن ولاية العراق سأله زياد : لم عزلتني يا أمير المؤمنين ؟ .. العجز أم خيانة ؟ .. فقال له : لم أعزلك لواحدة منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس . وقديما قال فيه عمر : لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه . فالحيلة^(٢) منه وفاق رأيه فيه .

وقد كان من خلق عمر أن يقدم الحذر ويأخذ بالحيلة ويطول الروية ثم يجزم بالرأى السديد في غير ابطاء ، ولهذا كان يكره ولاية الرجل الفخور وينهى عنها في خلافته وقبل خلافته ، فأشار على أبى بكر ألا يولى خالد بن سعيد وكلمه في عزله لأنه رجلا فخور يحمل أمره على المغالة والتعصب .. فعزله أبو بكر كما أشار

(١) المجازاة والمحاسبة . (٢) أي الحذر .

فاذا اجتمع لعمر هذا السبب من أسباب السياسة العليا الى المآخذ التي أنكرها على خالد فلا جناح عليه ، ولا محل للشك والظنة في أسباب عزله ..

لقد رأى زهو^(١) خالد بالنصر والغلب قبل أن يفتح الشام ويسبق بالشهرة أنداده من القواد : رأى ذلك يوم عاد من حرب أهل الردة فدخل المسجد وفي عمامته السهام . ورآه يوم اسنقل بيت المال في ولايته على عهد أبي بكر وعلى عهده ، ورآه في أمور كان يتدبها ولا يستأذن فيها ، ورآه مما يحس ولا يلمس ، ومما يقدر ولا ينتظر . فاذا أشفق أن يفتتن بالناس كما افتنوا به فلا جناح عليه .

وثاني الأمرين اللذين يدخلان في تقديرات السياسة العليا ويجيزان العزل في غير جريمة ظاهرة أن يصبح القائد ضرورة لا غنى عنها لتسيير الجيوش وفتح الفتوح ، وان يُعزى^(٢) اليه النجاح فتتخاذل العزائم وتضفر أقدار القادة دونه ، وان تعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله ، ويخسر الجيش بذلك أضعاف ما يخسره باقصاء قائده ولو لم يكن له نظير

فان كان له نظير ، كما تبين من اختيار عمر لقواده في كل ميدان فلا خسارة هناك . بل هو كسب العقيدة وكسب قائد جديد . واذا حان اليوم الذي ينتفع فيه بالقائد المعزول فهو قمين^(٣) أن ينفع ما بقيت فيه بقية من صلاح وخير ..

وتعويل عمر على العقيدة أمر تمزوه الى كل شيء فتراه فيه على صواب : تمزوه الى ايمانه بالله فهو فيه مصيب ، وتمزوه الى حسن سياسته فهو فيه مصيب ، وتمزوه الى تقديره للواقع فهو فيه مصيب . فكل أولئك كان خليقا أن يرجح كفة العقيدة عنده على كل كفة ، وأن يوجب عليه استبقاءها قبل كل استبقاء . وألا يزال بالناس يذكرهم ما ذكرهم به حين كتب الى الامصار بعد عزله خالدا « ان الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة »

ولو أن رئيسا لخالد غير عمر بن الخطاب في ايمانه المكين لما فاته أن

(١) الكبير والمختر . (٢) جمع ند ، والند : المنل والنظير . (٣) أي ذنب أو جناية . (٤) ينسب . (٥) أي جدير .

يعلم أين كانت قوة المسلمين وبهم كان انتصارهم في جميع الميادين ، ولا فاته أن يستبقى هذه القوة بكل وسيلة وأن يفتديها بجميع ما في يديه : تلك قوة العقيدة لا وراء ، ان ضاعت فلا عوض عنها ، وان بقيت فللقادة عوض كثير ..

فكيف بعمر بن الخطاب الذى يؤمن بهذا ايمان تسليم ، كما يفكر فيه تفكير سياسة وتديير ؟ .. لئن نسى ذلك لهو التحقيق باللوم على نسيانه ، ولئن ذكره فاقتضاه ذكره أن يعزل خالدا بغير جريرة لما كان عليه من لوم وهو كما رأينا لم يعزله لغير جريرة ، أو لم يكن حسابه له مختلفا عن حسابه للقادة والولاة ... وقد كاف أبو بكر نفسه — وهو من أبقى خالدا — يلمح بعض الخطر من افتتان الناس به حين قال : أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ! ؟

ويؤكد تعويل عمر على العقيدة في كل نجاح واسناده كل فشل الى ضعفها والترخص فيها أن الجيش الذى غزا مصر أبطأ في فتحها فالتبس عمر علة ذلك في ضعف نياتهم وكتب اليهم يقول : « عجت لابطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين .. وما ذاك الا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما الا بصدق نياتهم » ..

فنظرته في عزل خالد هي النظرة العامة التى لا تخصيص فيها لرجل ولا لمعركة ولا لمكان ، وتقديمه العقيدة على كل عدة من عدد النصر هو الخطة التى جرى عليها في مراقبة القادة ومراقبة الجيوش وتديير عدد النصر وتجنيب المسلمين مآزق الخذلان ... وهل أخطأ ؟ .. هل كانت منه حماسة ايمان ولم تكن روية تفكير ؟ .. هل يرى غير هذا الرأى ناقد عسكرى من أعداء الاسلام لو بحث في الأمر ونفذ الى حقائق الأسباب ؟ كلا .. بل هو صدق الرأى وصدق الايمان معا مقترنين ، لا يشير هذا بغير ما يشير به ذلك .

ودون^(١) هذا من أسباب « السياسة العليا » يجيز لعمر ما استجازه من

(١) أي وأقل منه .

عزل خالد من القيادة والولاية ، ولا سيما بعد ما أخذ عليه ما أخذ وبعد ما علم الناس انه لا يسامح أحدا في أمثال هذه المآخذ . فما باله يسامح خالدا فيها ؟ انه اذن لصانع النصر الذى لا غنى عنه ، وان الخطر الأكبر الذى يخشاه لقد حق على الجند وعلى الدولة ، ولقد حق معه خطر آخر لا يقل عنه : أن يسكن^(١) الناس الى التفرقة فى الحساب ، وأن يألخوا ما يعاب اذا عيب من الرؤوس والأقطاب^(٢) ، دون الأتباع والأذنان .

ومسألة أخرى يجب ألا يغفل عنها الرجل العصرى وهو ينظر فى عزل خالد للأسباب التى قدمناها أو لأى سبب غيرها .. وذلك أن حقوق الولاية فى عصرنا غير حقوق الولاية فى عصر عمر على التخصيص ، وهو العصر الذى بدأت فيه تجربة الولاية والعمالة فى دول الاسلام ..

فالولاية فى عصرنا مركز يستحقه موظف الحكومة بعد مرانة طويلة ودراسة خاصة واستعداد مقصور على طائفة من المرشحين لها لم تشركهم فيه طائفة أخرى ، وكأنها صناعة العمر التى لا يحتمل عمر الانسان تجديد صناعتين مثلها . فاذا قيل ان واليا عزل فى عصرنا فكأننا نقول ان تاجرا صودر ماله أو زارعا حيل بينه وبين زرع أرضه . ومصادرة من هذا القبيل حرى أن تلتبس لها أسباب من قبيلها فى الرجاحة والاقناع

غير أن الولاية فى عهد عمر لم تكن كذلك بوجه من الوجوه ، ولم يكن لصاحبها مثل هذا الحق الذى اصطلح عليه العرف وان لم ينص عليه القانون ، وانما كانت تجربة ارتجالية يتساوى فيها جميع الصالحين من المسلمين ، لا تنقطع بها صناعة العمر ولا سابقة الاستعداد والمرانة ، فيصح أن يعزل الوالى لأسباب أهون من تلك الأسباب التى قدمناها فى الرجاحة والاقناع ، ويصح أن يكون للعزل معنى المناوبة فى ندبة متساوية بين جميع المسلمين .

له در « ابن حنطة » أى رجل كان ! ..

كلمة قالها رجل يعرف الرجال ... قالها عمرو بن العاص وكأنه لم يكن

(١) سكن اليه : أي اطمأن . (٢) جمع قطب ، وقطب القوم : سيدهم .

بود أن يقولها لولا أنطقه بها الاعجاب الذى لا يجدى^(١) فيه كتمان
وهى كلمة يقولها الناظر فى سيرة عمر كلما وقف من أخبارها موقف
الناقد الذى يبحث عن الخطأ فيلقيه^(٢) حيثما بحث عنه عسيرا جد عسير ...
أى رجل كان هذا الرجل ؟ .. أى عدل كان عدله ؟ .. أى قسطاس كان
قسطاسه ؟ .. أى حساب كان حسابه لنفسه ؟ .. وأى سبيل للناقد الى
رجل كان يحاسب نفسه هذا الحساب ؟ ..

وربما اختلفت الأمزجة أو اختلف تركيب العقول والأبدان ، فقل فى
ذلك ما تشاء ، وقل فى خلائق عمر ما تشاء ... قل هى الشدة والصرامة ،
أو قل هى الخشونة والصلابة ، أو قل هو نسيان الضعف وفرط الغيرة
على الحق فى عالم تستكثر فيه مصانعة الحقوق ويستعظم فيه تكلف
الصواب ... قل ما بدا لك من ذلك واذهب ماشئت أن تذهب فيه ، فانك
لا تعطى المزاج حقه ولا تفرض له فرضه حتى تحار بعد ذلك فى سبب
انتقاد أو علة اختلاف ، لأنه لا يزاوّل أمرا الا وهو صواب لا محل فيه
لسوء الطوية^(٣) من وجهة ذلك المزاج .



كنا نقرأ عن عزل خالد ما تتفق قراءته من هنا وهناك ، وكنا نستمع
الى الذين يردونه الى المنافسة والتناظر فنجز هذا ولا نمنعه أو نرى فيه
مثالا من قدر عمر ومنقصة تفض من اعجابنا بزياده . لأنه قد يغار من
خالد ويعزله لغير جريرة ويبقى له بعد ذلك قدره الجليل وأثره الضخم
فى تاريخ الانسان ..

وفى عصرنا هذا رأينا أبطالا خدموا أقوامهم ثم بلغ من ضعفهم^(٤) على
منافسيهم أنهم قتلوهم ولم يقنعوا باقصائهم عن الحكم ولا بحاسبتهم
ببن يدى القضاء . ثم نصب الناقدون لهم موازين النقد فأسقطوا السيئات
من الحسنات ، وقرنوا قتل أفراد باحياء أمة ، فبقى لأولئك الأبطال حقهم
الخالد فى الشناء والتعظيم .

واذا بلغ من صواب عمر أنك لا تحصى عليه خطأ غير عزله لخالد وما

(١) أى لا يفيد . (٢) أى فيجده . (٣) أى الطبايع . (٤) أى النية .

(٥) الحققد .

جربى مجراه فما أكثر هذا صوابا على الآدمى وان كان من أعظم العظماء ؟
بدأنا نقرأ عن هذه القصة وفي خلدنا هذا الفرض الذى لا يحملنا على
استبعادها ، وعندنا أنه خطأ يذكر الى جانب حسنات ؛ فلا ضير أن يكون
له موضعه فى جانب تلك الحسنات...

ثم نقرأ كل ما تسنى لنا أن نقرأه فى هذه القصة فلا نزال نستهبد
الخطأ ونستهبد ، ولا نزال كلمة ابن العاص تعود الى لساننا وتعود ،
حتى نطقنا بها كما هى ، وغفر الله لابن العاص .

وهكذا كنا نصنع فى كل خطأ نسب الى عمرو وتواتر على السماع دون
تمحيص واستقصاء . فلا نزال بنا الوقائع حتى يثبت بطلانه من أساسه ،
أو يضعف سنده ضعفا لا يبيح الاعتماد عليه ، الا لمن يتجنى^(١) ويتمحل
ذرائع^(٢) النقد ودعوى التخطئة والعيب

كلا .. هذا رجل لا يسهل تقده ، ولا يتأتى لانسان أن يحاسبه كما
حاسب هو نفسه ؛ ولن يقع الخلاف بين المنصف وبينه الا على انه
اختلاف فى الأمزجة وتركيب العقول والأبدان . فاذا وضع هذا موضعه
من التقدير فأعسر عسير بعد ذلك أن تلومه على خطأ ، وأن تحصي عليه
خطأ فيه من سوء النية نصيب .

فالذى حصل والذى كان متوقعا حصوله ينفيان الظنة عن مروءة عمر
وانصافه فى قضية خالد بن الوليد ، وقد حكم فيها بما وجب عنده ،
وانتهى كل شيء بعد ذلك فى هذه القضية بانتهاء الغرض منها فى مصلحة
الدولة ومصلحة السياسة العليا ، اذ لا موضع فيها لحزازات النفوس
وصغائر المنافسة وما تجر اليه من لغو المشاكسة^(٣) وفضول الكلام .

قال لخالد : لن تعتب على فى شيء بعد اليوم ، ثم أمسك عن الخوض
فى قضيته الا أن تثار فى معرض عام ، فيشير اليها حيث تثار على سبيل
الاعتذار ، ويقبل ما شاء له كرم الخليفة أن يسمع من ملام الأقربين
والمشايخين^(٤) وان أغلظوا فى المقال ، على ما كان له من هيبه ترد الجامح

(١) يتجنى : يدعي ذنبا لم يحدث . (٢) وسائل . (٣) الشكس : صعب
الخلق . (٤) الاتباع والانصار .

وتخيف من لا يخاف ..

قال من خطبته بالجابية : انى أعتذر اليكم من عزل خالد بن الوليد ،
فانى أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطى ذا البأس وذا
الشرف وذا اللسان

فتصدى له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وجابهه بكلام غليظ يقول
منه : « والله ما أعذرت يا عمر .. ولقد نزعت غلاما استعمله رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وأعمدت سيفاً سله رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ووضعت أمراً نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقطعت رحماً
وحسدت بنى العم ... »

فما زاد عمر على أن قال وهو يعذره : « انك قريب القرابة ، حديث
السن ، تغضب في ابن عمك »

ولم ينس أن يصون للرجل اسمه ومنزلته في أمصار المسلمين ، فكتب
ما ألعنا اليه آنفا يرحض^(٢) عنه سمعة العجز والخيانة ، ويجعل العزل
لفضيلة فيه لا لقصور منه ، ولا لتثريب^(٣) عليه
وعلم بموته فاشتد حزنه عليه واسترجع^(٤) مرارا ونكس رأسه وهو
يكثر من الترحم عليه . ثم قال : كان والله سداداً لنحور العدو ، ميمون^(٥)
النقية^(٦) .

ولم يهمه أن يذكر صوابه أوخطأه في عزاه بمقدار ما أهمله أن يعلن
فضله ويذكر حسناته فقال : « قد ثلم في الاسلام ثلثة لا ترتق » . وقيل
له : لم يكن هذا رأيك فيه . فلم يحجم أن يعلن قائلًا : « ندمت على ما
كان منى اليه » .. وقال في غير هذا المعرض وبلغه أنه لم يعقب^(٧) من حطام
الدنيا غير فرسه وغلامه وسلاحه : « رحم الله أبا سليمان . كان على غير
ما ظنناه به » ..

وقد كان عمر ينهى عن الندب والعيول . فلما مات خالد واجتمع بات
عمه يبيكينه وسئل عمر أن ينهاهن قال : « دعهن يبكين على أبى سليمان ،
ما لم يكن تقع^(٨) أو تفلقة^(٩) على مثله تبكى البواكى » ! ..

(١) أي واجهه واستقبله . (٢) أي يفسل . (٣) الاستقصاء في اللوم .
(٤) أي قال : انا لله وانا اليه راجعون . (٥) مبارك . (٦) النفس . (٧) أي
يتترك . (٨) أي غبار . (٩) شدة الصوت .

ودخل هشام بن البختري في أناس من بنى مخزوم على عمر فاستشده شعره في خالد ، وقال له وقد أطال الاصغاء اليه : « قصرت في الثناء على أبي سليمان . رحمه الله ، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وإن كان الشامت به لمعرضا لمقت الله . رحم الله أبا سليمان ! .. ما عند الله خير له مما كان فيه » .

ومن الحق أن يقال إن قضية خالد قد أرتنا مروءة خالد كما أرتنا مروءة عمر ، وقد عرضت لنا هذا البطل في صفحته فاذا هو بطل القواد في ولايته وبعد عزله ، وفي شدته على عدوه وطاعته لأمره ... وما على مثله من ضير أن يحق عليه العزل في ميزان عمر بن الخطاب فذاك ميزان تعلو فيه الكفة ولا يزال صاحبها راجحا أي رجحان ...

وقد استحق المجديقين واستحق العزل بظن ، ولولا مصلحة أعلى من مصلحة الإبقاء على رضاه لقد كان ذلك الظن حقيقا بالفض عنه والتجوز فيه ..

وكفى بالرجلين فضلا أن يختلفا ومن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهما ويعترف به كل محب وشاني^(١) وكل منصف وجاحد ، وما نخال أن تقديرنا خالدا وتقديرنا عمر يدعونا أن ننصب الميزان في هذه القضية من جديد . فقصارى^(٢) ما نغتم من ذلك أن خالدا كان جديرا بالبقاء في منصبه ولم يكن مستحقا لعزله . وليس ذلك بشيء إلى جانب ما رأيناه حين نصب الميزان في القضية كما نصبه خليفة الاسلام ، فقد أرانا عدلا أعظم من بطولة الإبطال . فإن أخطأ البطل — على تقدير خطئه — فالعدل أعظم منه وأحرى أن يتعقبه كأنه من أضعف الضعفاء ، وذلك ميزان أشرف لعمر ولخالد وللإسلام من كل ميزان .

(١) أي غضب . (٢) الشانيء : العدو . (٣) أي نفاية .

ثقافة عمر

إذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول: انه كان رجلاً وافر^(١) الحظ من ثقافة زمانه ، وانه كان أدبياً مؤرخاً فقيهاً ، مشاركاً في سائر الفنون ، مدرباً على الرياضة البدنية ، خطيباً مطبوعاً على الكلام ، فليس أرجح من نصيبه في ثقافة زمانه نصيب .

ظل في اسلامه كما كان في جاهليته عظيم الشغف^(٢) بالشعر والأمثال والطرف^(٣) الأدبية ، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلائلها ودقائقها التي لا تدع له من وقته فراغاً لغيرها ، فكان يروى الشعر ويتمثل به ويحث على روايته ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة كما قال لابنه عبد الرحمن : « يا بني انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فان من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه . ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقاً ولم يقترب أدباً » ... وقال للمسلمين عامة : « ارووا الأشعار فانها تدل على الأخلاق » .

ونظر الى فائده العملية كما نظر الى متعته الأدبية ، فقال فيه انه جذل^(٤) من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به الثائرة ويبلغ به القوم في نادهم ويعطى به السائل .

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التي لا يبالي الموت لو حرم نصيبه منها ، فكان يقول : « لولا أن أسير في سبيل الله ، وأضع جبهتي لله ، وأجالس أقواماً ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب الثمر لم أبال أن أكون قد مت » .

واذا اقترنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر فذلك غاية ما يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ^(٥) .

وقد كان اعظام الرجل في عينيه بمقدار حذقه^(٦) للحديث وقدرته على

(١) أي كثير . (٢) أي بلغ شغافه ، وهو : غلاف قلبه . (٣) أي الطرائف . (٤) أصل الشجرة وغيرها . (٥) مدح الانسان وهو بحق أو باطل . (٦) أي مهارته واجادته .

الابانة^(١) والمنطق الحصيف^(٢). فنظر يوما الى هرم بن قطبة ملتفا في بت بناحية المسجد وقد عرف تقديم العرب له في الحكم والعلم وهو ما هو من دمامة^(٣) وضالة ومنظر زرى^(٤)، فأحب أن يكشفه ويمس^(٥) حكمته، فسأله في علقمة ابن علاثة وعامر بن الطفيل: أرأيت لو تنافرا اليك اليوم أيهما كنت تنفر؟ فأجابه الرجل: يا أمير المؤمنين!.. لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة، أى لأعاد الحرب فتيه^(٦) كما كانت، فأثنى عليه وقال: لهذا العقل تحاكت إليه العرب!..

وجاءه وفد فيه الأخنف فتركهم جميعا واستفتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة الى أن مات...

وسره أن عاد العرب الى رواية الشعر بعد أن شغلهم عنه الجهاد في سبيل الدين، فكان يقول أن الشعر «كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يثلوا الى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، فألقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره».

ومن ناحية الأدب فيه، وناحية الدين معا، حثه على تعلم العربية «لأنها تثبت العقل وتزيد في المروءة» وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية..

ولم يزل عمر الخليفة هو عمر الأديب طوال حياته، لم ينكر من الشعر الا ما ينكره المسئول عن دين، ولم ينس قط انه الأديب الحافظ الراوية الا حيث ينبغي أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضي المتحرز^(٧) الأمين.

فنهى عن التشبيب^(٨) بالمحصنات كما نهى عن الهجاء، وجيء له بالحطيئة متهما بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي
ففسى أنه الأديب الراوية ولم يذكر الا أنه القاضي الذي يدرأ الحدود

- (١) أي الايضاح . (٢) استحكم عقله . (٣) طيلسان من خز ونحوه .
(٤) قبح . (٥) أي محتقر . (٦) أي يختبر . (٧) أي قوية . (٨) أي يلجأوا .
(٩) الحرز : الموضع الحصين ، وتحرز منه : أي توقاه . (١٠) النسيب بالنساء .

بالشبهات، ولا يحكم بما يعلم دون ما يعلمه أهل الصناعة ، وقال للزبرقان : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة ، ثم سأل حسان بن ثابت ففضى بأنه هجاء وأفحش في هجائه ، فحبسه وأنذره ونهاه أن يعود الى مثلها ، فانتهى طوال حياة عمر ، ثم عاد الى الهجاء بعد وفاته .

واستعداه تميم بن مقبل على النجاشي لأنه قال في قومه بنى العجلان : اذا الله عادى أهل لؤم وذلة فعادى بنى العجلان رهط^(١) ابن مقبل فذكر عمر قضاءه ولم يذكر روايته للشعر ، وقال على سنة القضاة يدفع الحدود بالشبهات : انه دعاء والله لا يعادى مسلما

قال تميم : فانه يقول عنا :

قبيلته لا يغدرون بذمة^(٢) ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء

قال تميم : وانه يقول :

نعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من عوف بن كعب بن نوשל
فقال عمر : كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه

قال تميم : وانه يقول :

ولا يردون الماء الا عشية : اذا صدر^(٣) الورد^(٤) عن كل منهل^(٥)
فقال عمر : ذلك أصفى للماء وأقل للسكالك (أى الزحام)

قال تميم : وانه يقول :

وما سمي العجلان الا لقولهم خذ العقب واحلب أيها العبد واعجل
فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم أنفعهم لأهله

قال تميم : فسله عن قوله :

أولئك أولاد الهجين^(٦) وأسرة الدميم ورهط العاجز المتنلل
فقال عمر : أما هذا فلا أعذرک عليه ، وجبس الشاعر وضربه وأنذره
لئن عاد ليضاعفن له العقاب ..

وقد تجوزنا فقلنا ان عمر نسي علمه بالشعر ليذكر ابراء الذمة في القضاء . وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب في نسيان أدبه .

(١) أي طريقهم . (٢) العهد . (٣) رجع . (٤) الذين يردون الماء .

(٥) المورد ، وهو عين ماء ترده الابل في المراعي . (٦) اللثيم .

ولكنه مطلب ما استطيع قط ولن استطاع . فكان عمر في تخريجه للكلام وعلمه بما تنصرف اليه معانيه أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه الا ظاهر لفظه ومعناه ..

ومن المشهور عن عمر انه كان عليما بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر انسابها كعلمه بالمتخير من شعرها ولسائر أمثالها .

جنح^(١) الى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه ، وكثيرا ما كان يقول كما جاء في انبيان والتبيين : سمعت ذلك عن الخطاب ولم أسمع ذلك عن الخطاب ومن وصاياه : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا » . ومنها : « عليكم بطرائف الأخبار ، فانها من علم الملوك والسادة ، وبها تنال المنزلة والحظوة عندهم »



وفقه عمر بالشرعية التي كان مسئولاً عن نفاذها مشهور بين الفقهاء . كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه . فكان عبد الله بن مسعود يقول : « كان عمر أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا في دين الله » وكان اذا اختلف أحد في قراءة الآيات قال له : اقرأها كما قرأها عمر ، وأطنب^(٢) فقال : « لو ان علم عمر بن الخطاب في كفة ميزان ، ووضع علم الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم ، ولقد كانوا يروون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم » ... وقال ابن سيرين : « اذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر فشك في دينه » وكل ما فسر به آي القرآن في معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح في وزن العقل والدين ، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح .

ونصائح للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يجمل بالعلماء في طلبه ، فكان يقول : « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتواضعوا لمن تعلمون ، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم » وكان يوصي طلابه « أن يكونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم ، ويسألوا الله رزق يوم بيوم ،

(١) أي مال . (٢) أطنب الرجل : أتى بالبلاغة في الوصف مدحاً كان أو ذماً .

ولا يضرهم الا يكثر لهم « ولا يزال يذكروهم ان التفقه مقدم على السيادة » فتفقهوا قبل أن تسودوا .

ولم يقصر نصائحه على علم الدين وحده ولا علم الأدب واللغة وحده ، بل تناول كل ما عرف من معارف زمانه فقال : « تعلموا من النجوم ما يدلکم على سبيلکم في البر والبحر ولا تزيدوا عليه »

ولا شك ان نصائحه العملية في طلب العلم كانت أغلب من نصائحه النظرية فيه . شأنه في ذلك شأن رجل الدولة الذي يعلم الناس ما ينفعهم ويصلح معاشهم ويهذب أخلاقهم ... ولكننا مخطئون ان فهمنا من هذا القول الذي رويناه في علم النجوم انه كان يكره الزيادة الحديثة فيه كما عرفناها نحن في أيامنا ، فانما الزيادة التي كرهها هي تلك الزيادة التي كانت على عهده تخوض في التنجيم وتربط أقدار الناس بالكواكب وتجعل منها أربابا تعبد وأرصادا تؤتمن على أسرار الغيب . وذلك ما أنهى عنه الآن ونعد النهى عنه من تحقيق العلم الصحيح ..

ولم يفته الحرص على المعرفة التي تخترع منها منافع للناس في أمر المعاش . فطلب الى أبي لؤلؤة غلام المغيرة ان ينجز ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء ، وهو علم الصناعات كما انتهى اليه في عصره ، لا يضره انه قسط ضئيل ، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على ما يلقاه منه تشجيع الصناعة يوم يراها جليلة كبيرة الآثار .

على أن زبدة الثقافة كلها في أقطاب الحكم وعظماء الأعمال انما تتلخص في شيء واحد : هو الدراية بالناس ونفاذ البصر في شؤون الدنيا وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية ، أو هو ما نسميه في أيامنا هذه بالرأي السليم والحكمة العملية ، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قليل النظراء فيه ، وحفظت له كلمات في معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكام ، ولا يكثر مثيلها بين كلمات الحكماء ..

فأي كلمة أدل على النفس البشرية من قوله : « ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذي يعرف خير الشرين » ..

(١) المراد : خلاصتها باعتبار أن الزبدة خلاصة اللبن ، أو دسامتها لما

في الزبد من دسم .

وأى نفاذ فى تركيب الطبائع أمضى من نفاذه اذ يقول : « ما وجد أحد فى نفسه كبرا الا من مهانة^(١) يجدها فى نفسه » ؟ . أليس هذا بعينه هو مركب النقص الذى يلهج به علم النفس الحديث ؟ ..

وأى رأى فى تجربة الناس أصدق من رأيه حين يقول : « لا تعتمد على خلق رجل حتى تجربه عند الغضب » أو حين أثنى بعضهم على رجل أمامه فسأله : أصحبت فى السفر ؟ .. أعاملته ؟ .. فلما أجابه نقيا قال : « فأنت القائل بما لم تعلم » ؟ .

وأى فهم لمعنى الاستعداد للعمل أقرب من فهمه حين ينصح العاملين : « اذا توجه أحدكم فى الوجه ثلاث مرات فلم ير خيرا فليدعه^(٢) » ؟ ..

كذلك سداد جوابه حين سئل فيمن يشتهى المعصية ولا يقارفها وفيمن ينتهى عنها وهو لا يشتهيها أيهما أفضل وأجزل مثوبة عند الله ، فكتب فى هذا فصل الخطاب اذ قال : « ان الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر كريم » . وكذلك وصيته بكتمان السر وتبيينه لحسن عقابه حين قال : « من كنتم سره كان الخيار بيده » .

وكذلك وصيته فى الحب والبغض حين قال : « لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلقا » .

وكذلك مخافته محنة الفراغ على الناس أشد من مخافته محنة الخمر حين قال : « أحذرکم عاقبة الفراغ فانه أجمع لأبواب المكروه من السكر » وكذلك وصاياه التى كانت تحفل بها كتبه الى الولاية وخطبه فى الصلوات والأعياد كلها آيات من هذه الحكمة العملية التى هى خلاصة الثقافة المحمودة فى أقطاب الحكم خاصة ، وفى كل رجل يزاول شؤون الحياة على التعميم .

أما مشاركته فى سائر الفنون والمعارف التى كانت ميسورة على عهده فمنها المستغرب عند من يتخيل صورة عمر من جملة أخباره ، ولا يتقصى فيها الى التفصيل

(١) أى عيب ونقص . (٢) أى فليتركه . (٣) أى صواب .

قليل من يتخيل أن عمر كان يعرف « جغرافية » الشرق كأحسن ما يعرفها رجل في وطنه ، ولكنه كان يعرفها حقاً عن سماع وعن رؤية وعن زكائه ثمين السماع والرؤية . بل كان يفرض على الولاة أن يحيطوا بعلم ما يتولونه من البلاد ويعزل من يرى فيه تقصيرا عن ذلك . فاستقدم عمار بن ياسر أمير الكوفة لما شكوه اليه وقالوا في شكواهم اياه : « انه لا يدري علام استعمل » وجعل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة سؤال مطلع خبير ، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره ..

ومن الواجب أن نشك في كل خبر يوهم أن عمر كان يجهل معرفة من المعارف العملية التي يحتاج اليها في تدبير الدولة ، فلا يعقل مثلاً أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب وقد كان تاجراً منذ نشأته في الجاهلية وكان يحضر الجيوش ويعرف ما هي الالوف وما هي عشرات الالوف ، فإذا استفسر عن رقم فلان يكون الا استفسار بجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارة^(١) كما جاء في أخبار الخراج من هجر والبحرين ،

قال أبو هريرة ما فحواه : قدمت من هجر والبحرين بخسمائة ألف درهم . فأتيت عمر بن الخطاب ممسياً أسلمه اياه فسأل كم هو ؟ .. قلت خسمائة ألف درهم ! .. قال : وتدرى كم خسمائة ألف درهم ؟ ! .. قلت : نعم مائة ألف ومائة ألف خمس مرات ... قال : أنت ناعس ، اذهب فبت الليلة حتى تصبح ! ..

فكل شيء يجوز أن يفهم من هذه القصة الا ان عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك ، وهو الذي شهد الدولة وحسابها من عهد أبي بكر وأحصى الجند والمال في عهده ... انما هي غبطة^(٢) واستعظام ، وليس هو جهلاً بدلالة هذا الرقم في جملة الحساب .

واذا قل من يتخيل علم عمر بالجغرافية والحساب فأقل من أولئك من يتخيل له حظاً من السماع والغناء ، ولكنه كان يسمع ويفنى في بعض الاحيان ، ولا ينهى عن غناء الا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات . جىء

(١) أي علم وفهم . (٢) أي غفلة . (٣) في وقت المساء . (٤) من

معاني الغبطة : المسرة ، وحسن الحال .

له برجل يغنى في الحج وقيل له : ان هذا يغنى وهو محرم . فقال : دعوه فان الغناء زاد الراكب ...

وروى نائل مولى عثمان بن عفان انه خرج في ركب مع عمر وعثمان وابن عباس ، وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رباح بن المعترف الفهرى الذى كان يحدو^(١) ويجيد الحداء والغناء . فسألوه ذات ليلة أن يحدو لهم فأبى وقال مستكرا : مع عمر !.. قالوا : احدث فان نهاك فانتته . فحدوا ، حتى اذا كان السحر قال له عمر : كف فان هذه ساعة ذكر . ثم كانت الليلة الثانية فسألوه أن ينصب لهم نصب العرب . فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلا : مع عمر ؟ .. قالوا له كما قالوا بالأمس : انصب فان نهاك فانتته . فنصب لهم نصب العرب حتى اذا كان السحر قال له عمر : كف فان هذه ساعة ذكر . ثم كانت الليلة الثالثة فسألوه أن يغنيهم غناء القيان^(٢) . فما هو الا أن رفع عقيرته بغنائهن حتى نهاه وقال له : كف فان هذا ينفر القلوب .

وكان يخرج للحج ومعه من يحسن الغناء فيقترح عليه أن يغنى شعرا ويؤثر أن يكون ذلك من شعره

خرج مرة للحج ومعه خوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار ، وقال عمر : بل دعوا أبا عبد الله فليغن من بنيات فؤاده^(٣) . فما زال يغنيهم حتى كان السحر فهتف به عمر : ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا .

وجاءه قوم فذكروا أن امامهم يصلى بهم العصر ثم يتغنى بأبيات من الشعر ، فقام معهم اليه واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه ، واستنشد الأبيات التى يغنيها ، فأنشده :

وفؤادى كلما نبهته عاد فى اللذات يغنى تعبى
لا أراه الدهر الا لاهيا فى تماديه فقد برح بى
يا قرين السوء ما هذا الصبا فنى العمر كذا باللعب
وشباب بان منى فمضى قبل أن أقضى منه أربى

(١) الغناء للابل حتى تجد في سيرها . (٢) الامة مغنية كانت او غير مغنية ، وجمعها : القيان . (٣) صوت المغنى والبكاءى والقاريء . (٤) أي من شعره .

نفس لا كنت ولا كان الهوى اتقى المولى وخافى وارهبى
فأعاد البيت الأخير ، وقال لمن شكوا اليه : من كان منكم مغنيا فليغن
هكذا .. وكان مرة في سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد :

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة^(١) من محمد
فاجتمع الركب اليه ، فقرأ فترقوا . فعل ذلك وفعلوه مرات ، فصاح
بهم : « يا بنى المتكء ! .. اذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم ، ولذا
أخذت في كتاب الله تفرقتم ؟ .. » لا يلومهم على الغناء وسماعه ، وانما
يلومهم أن يؤثره على سماع القرآن مرات .

ولا شك ان الشغف بالشعر الجزل^(٢) والحديث الرائق^(٣) والصوت الحسن
لا يجتمع في نفس الا اجتماع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل .
ولكن أين يقع هذا من صرامة عمر وبأسه وشدة حجرة على زينة
الحسان ؟ .. فقد دخل في روع أناس أنها جميعا من تقائض حب الجمال ،
وقد سمعنا هذا فعلا من أدباء يجلون^(٤) عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من
مأثور حسناته ، لأنه كان شديدا في الحجاب وكان ينفي الفتيان الحسان
كما صنع بنصر بن حجاج ومعقل بن سنان ، وكان يقول : « استعينوا
بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر » ...

وعندنا نحن : أن هذا جميعه ينم على الاحساس بخطر الجمال وطفيان
فتنته ، ولا ينم على غفلة عنه وقلة مبالاة بآثره . وما نخال أحدا من
المترخصين في الحجاب كان يؤمن بسلطان الجمال أبلغ من ايمان عمر
بسلطانه ، أو كان يعرف حق المرأة في الشوق اليه كما عرفه وأمر برعايته ،
فانه كان ينكر على الآباء أن يكرهن فتياتهم على قباح الوجوه ويوصيهم :
« ألا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فانهن يحببن ما تحبون »
وجاءت له امرأة بزواج أشعث^(٥) أغبر تسأله الخلاص منه ، فأمر به أن يحم^(٦)
وأن تقلم أظفاره ويؤخذ من شعره ، ثم قال له ولمن في مجلسه : « هكذا
فاصنعوا لهن فوالله انهن ليحببن أن تتزينوا كما تحبون أن يتزين لكم »
فكل ما روى عن عمر من الشدة والرفق في معرض الجمال فهو دليل :

(١) أي عهدا . (٢) ضد الركيك . (٣) بمعنى الحسن . (٤) يعظمون .

(٥) المغبر الرأس . (٦) من الاستحمام .

على الاحساس به ، واكبار خطره ، وليس بدليل على الغفلة عنه واستصغار أثره ، وربما كانت الشدة والحجر أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة .

ومن الآداب العامة التي لها حظ من ذوق الجمال في معارض السياسة أدب الذكريات الذي لا يستغنى عنه ولادة الأمر الموكلون بأحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمها وأعيادها ...

ففي هذا الأدب كان لعمر النصيب الذي يغنيه . فهو الذي اخنار أو وافق على اختيار يوم الهجرة بداية للتاريخ الاسلامي . وانه لأصلح يوم يؤرخ به الاسلام . لأن العقائد كما قلنا في « عبقرية محمد » « تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب ، وكل انسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة ، أما النفس التي تعتقد حقا ويتجلى^(١) فيها انتصار العقيدة حقا فهي النفس التي تؤمن في الشدة، وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء» وكلما اقترح على عمر اقتراح فيه نفحة^(٢) من ذوق الذكرى ، كان مجيبا له سريع الاصغاء اليه . فكان يحترم وفاء بلال واقلاعه عن الاذان بعد وفاة النبي عليه السلام . ولكنه دعاه الى الاذان تلبية لاقتراح الجلة^(٣) من الصحابة في يوم وداع دمشق بعد الفتح المبين . فبينما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة اذا بالصوت الذي انقطع بعد النبي يرتفع رويدا^(٤) رويدا في الفضاء ويسرى رويدا رويدا من الاسماع الى الصدور . والتفتوا وكأنهم يسألون : ماذا ؟ .. هل عاد محمد الى الأرض ؟ .. ان لم يكن قد عاد فقد عاد الحنين اليه أقوى ما ينبعث من صوت انسان الى صدر انسان ... فذابت قلوب لا يذيبها الهول ، وبكى أشيب^(٥) أولئك الأبطال وأصبرهم على حر القتال .

واذا كان عمر المعجب بالجمال مستكنا وراء ستار يحوجنا الى النظر من ورائه فتمر الرياضى المشغول بالرياضة البدنية ظاهر لنا بعمله وقوله ،

(١) أي يظهر . (٢) له نفحة طبية : أي رائحة . (٣) سادتهم وعظماؤهم .
(٤) أي شيئا فشيئا . (٥) أي أكبرهم سنا .

وبسيرته في الجاهلية وسيرته بعد الاسلام ، وسيرته بعد الخلافة الى أن فارق الحياة ..

فكان يصارع في المواسم ويسابق على الخيل ، وكان ينوط مجد العرب بالرياضة والفروسية ويكتب الى الامصار أن « علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » ولا يفتأ يذكرهم انه « لن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو » أى برمى بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب .

(١) أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات البنية ولم تكن من صفات الذهن وكفى ، فكان له فم يمتلىء بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول ، ولوحظ عليه انه لمكان ينطق ببعض الحروف - كالصاد - من كلا شذقيه وهى تنطق في الاغلب من شذق واحد

وكان جهورى (٢) الصوت واضح النطق سليم الشفتين في اخراج الحروف ، وكتابته كلها كأنها خطب ومرتجلات تقرأها فكأنك تصفى الى خطيب لا تفقد منه الا الصوت المسموع...

ولانطباعه على الكلام الذى لا تصنع فيه كان يستسهل كل كلام يوافق طبعه ولا يستصعب من الخطب الا الذى يغير من نظرته الى الناس ويلجئه الى المداراة والباطل . فكان يقول : « ما يتصعدنى (٣) كلام كما تصعدنى خطب النكاح » . والتمس ابن المقفع علة ذلك فقال : « ما أعرفه الا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ، ونظر الحداق من قرب في أجواف الحداق ، ولأنه اذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء ، واذا علا المنبر صاروا سوقة (٤) ورعية » والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن أناس أنهم رجعوا باستصعاب عمر لخطب النكاح الى « أن الخطيب لا يجد بدا من تزكية الخاطب ، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورا وغر القوم من صاحبه » وكلا القولين جائز في بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم في محافل النكاح . فهو مطبوع على

(١) أي يعلق . (٢) الفطرة . (٣) العالي الصوت . (٤) أي شق علي .

(٥) جمع حدقة ، والحدقة : سواد العين . (٦) أي عوام الناس .

أن يتكلم الى الناس كلام رجل يقود الرجال ، ومطبوع على الصدق الذى تثقل على صاحبه المداينة^(١) ، وهى مما لا غنى عنه فى هذا المقام ، ولو كان الخاطب من الأكفاء .

وقد اختلفوا فى نظمه الشعر فزعم الشعبى : أنه كان شاعرا ورويت له أشعار لا تشبهه ولا ترضيه ، ونفى هو نظمه للشعر حين قال : « لو كنت أقول الشعر لرثيت أخى زيدا »

ولا طائل فى هذا الخلاف ، لأنه لن ينتهى الى رأى قاطع يسكت عليه ، ولكننا المهم فى هذا الصدد أنه كان مطبوعا على التعبير وله عبقرية فيه ، أو أن تعبيره كان خاصا به لا يشبهه تعبير سواه ، فهو تعبير عمرى ، مفرداته وتركيبه لا يلتبس بتعبير. أحد من أهل عصره حتى ليسهل تمييز كلامه من كل كلام ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة فمن خصوصياته فى التعبير انه كان يقول : « لولا الخليفة لأذنت » وهو يعنى الخلافة ولا يقصد الاغراب .

ومنها وهو ينقل خبر اسلامه الى خاله : « وجئت الى خالى فأعلمته فدخل الى البيت وأجاف الباب » أى أوصده ! .

ومنها وهو يصف ما وقع فى نفسه من الآية التى تلاها أبو بكر رضى الله عنه حين أنكر موت النبى فقال : « والله ما هو الا أن سمعت أبا بكر تلاها ففقرت حتى ما تقلنى رجلاى » يعنى انه عجز عن القيام .

ومنها فى الكتابة والقراءة ينهى عن العجلة فيها : « شر الكتابة المشق وشر القراءة الهزيمة ، وأجود الخط أبينه » .

ومنها وهو يذكر امرأة كانت تسقى الناس يوم أحد :. انها « كانت تزفر للناس القرب » أى تحملها

ومنها فى المشورة : « الرأى الفرد كالخييط السحيل^(٣) ، والرأىان كالخيطين المبرمين^(٤) ، والثلاثة مرارا لا يكاد ينتقض^(٥) » .

ومنها حين كتب الى أبى عبيدة بعد ولايته الخلافة : « ... ولا تبعث سرية الا فى كثف من الناس » .

(١) اظهار خلاف ما يبطن . (٢) السرعة فى القراءة . (٣) الخييط

السحيل : سهل القطع . (٤) أى المفتولين ، فيكون قطعهما شاقا . (٥) أى جبلا

(٦) النقص فى الجبل : ضد الابرام .

ومنها حين سُكا اليه الشاكي هجاء الشاعر الذي قال فيه :
ولا يردون الماء الا عشية إذا صدر الورد عن كل مورد
فقال ذلك أنفى « للسكاك » أى الزحام^(١)
ومنها فى سماحه بالبكاء: « ما لم يكن تقع^(٢) أو لقلقة^(٣) » أى ما لم يثر
التراب ويفرط فى العويل ...
ومنها وقد حار بأهل الكوفة : « أعضل بى أهل الكوفة ما يرضون
بأمير ولا يرضاهم أمير » .
ومنها : « ان قرىشا تريد أن تكون مغويات لمال الله » أى مصائد
تحتجته^(٤) لها دون عباد الله .
ومنها : « تمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل
نزوا » أى تزبوا بزى العرب من معد بن عدنان
ومنها : « فرقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين ، ولا تلثوا بدار
معجزة » أى تقيموا
ومنها : « فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو
ولا الذى بايعه فقرة أن يقتلا » أى أن يتعرضا للقتل
ومنها : « ... ان الاقتصاد فى السنة خير من الاجتهاد فى الضلالة ،
فافهموا ما توعظون به ، فان الحريب من حرب فى دينه » يريد المسلوب
ومنها وقد سمع بامرأة سافرة^(٥) يبرزها زوجها فقال : « هذه الخارجة
وهذا المرسلها لو قدرت عليهما لشرت بهما » أى لأغلظت القول لهما
ومنها لما سأله لم حصبت^(٦) المسجد فقال : « هو أغفر للنخامة وألين فى
الموطن » أى أستر للبصاق
ومنها : « ثلاث من الفواقر : جار مقامة ان رأى حسنة سترها ، وان
رأى سيئة أذاعها ، وامرأة ان دخلت عليها لستك وان غبت عنها لم تأمنها ،
وسلطان ان أحسنت لم يحمدك ، وان أسأت قتلك » ولستك : أى
تناولتك بلسانها ..

ومنها وهو يخاطب سعد بن عباد يوم السقيفة : « لقد هممت أن أهلك

(١) أى غبار . (٢) شدة الصوت . (٣) احتجته : اذا جذبته بالمحجن
الى نفسك . (٤) أى منكشفة . (٥) أى يظهرها . (٦) أى فرشته بالأسى .

حتى تندر عضدك « أى تسقط
ومنها وهو نتكلم عن امرئ القيس : « خسف لهم عين الشعر فافتقر
عن معاني عور أصبح بصر « أى استنبط عين الشعر وشق طريق المعاني
وأنى بالشوارد الحسان
ومنها وهو يتكلم عن نصيب المسلمين فى الغنائم وبيت المال : « والله
لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل
أن يحمر وجهه « أى قبل أن يخجل ويحمر وجهه فى طلبه .
ومنها قوله لأعرابى استفناه فى صيد ظبى وهو محرم : « أتقتل فى
الحرم وتغمص الفتيا ! » ، أى نعيها ولا ترضاها ! .

وأشبه هذا كثير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتاب ، تعمداً أن
نكثر شواهد لنرى أنه ليس بالمصادفة وليس بالتكرير لنمط واحد من
العبارات ..

ويلحق بهذا تسمية مواله بين أسبق وأسلم ويرفأ وفرقد وذكوان
وفروخ وما شابه هذه الأسماء . وهى تسمية مفردة تكاد تقتصر عليه ،
وانما هى الطبيعة العمرية^(١) تمثلت فى صيغة الكلام^(٢) وفى اختيار الأعلام . فلا
تستطيع أن تسميها اغراباً أو عسلطة أو تعملاً بنحو من أنحائه ، إذ ليس
وراءها قصد متفق فى جميع هذه الصيغ ، وأبين ما يبين فيها أنها من عفو
البداهة هنا وهناك ، وانها تترجم عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة
وأشبهها بصاحبها ، فهى قوية خشنة مستقلة جادة خالية من الزخرف .
وهكذا كان المتكلم عمر وهكذا كان كلامه الذى ينطبع عليه حين يكون
منطبعا على التعبير ، فلو أن كلمات تتمثل رجلاً لتراعى لنا من مثال هذه
الكلمات شخص عمر فى خلقه وخلقه كما كان

ومحصل هذه الأخبار جميعاً أن عمر كان من نخبة المثقفين فى العربية ،
وكان وافر السهم^(٣) فى ثقافة قومه وعصره ، وكان الجانب العلمى من ثقافته

(١) الاغراب : الاتيان بالغريب . (٢) الكلام بلا نظام ، وكلام معسلط :
مخلط . (٣) أى تصنعا . (٤) أى الحظ .

أغلب وأظهر من جوانبها النظرية؛ كما هو المعهود في ساسة الأمم وعواهل^(١) الدول ، وإن كان هذا لا يمنع انه اشتاق الى نفائس الشعر، وأطايب الأدب، لما يجده فيها من راحة النفس، ومتعة خاطر ...

ويستطرد بنا الكلام على ثقافته العربية الى الكلام على موقفه من الثقافات الأخرى في زمانه ، وعلى حقيقة الرواية التي شاعت وتواترت عن موقفه من مكتبة الاسكندرية التي قيل انه أمر بإحراقها . فهل هو الأمر بإحراقها كما جاء في تلك الرواية ؟ .. وإذا كان هو الأمر بذلك فما دلالة على تفكيره ؟ .. وما وجه التبعة فيه ؟ .. فحوى تلك الرواية بأن عمرو ابن العاص رفع اليه خبر المكتبة الكبرى في الاسكندرية ، فجاءه الجواب منه بما نصه : « أما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى : وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه ، فتقدم باعدامها » قال مفصل هذه الرواية : فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفد لكثرتها ! ..

وأخرى شيء أن يلاحظ في مسألة المكتبة هذه أن الذين ادحضوها^(٢) وأبرأوا عمر من تبعثها كان معظمهم من مؤرخى الاوربيين الذين لا يهتمون بالتشيع للمسلمين ، وكانوا جميعا من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم في هذا الموضوع :

فالمؤرخ الانجليزي الكبير ادوارد جيبون Gibbon صاحب كتاب « الدولة الرومانية في انحدارها وسقوطها » يسرد الحكاية ويعقب عليها قائلا : « أما أنا من جانبى فأننى شديد الميل الى انكار الحادثة وتوابعها على السواء ، لأن الحادثة لعجبية في الحق كما يقول مؤرخها اذ يسألنا هو أن نسمع ما جرى ونعجب ! .. وهذا الكلام الذى يقصه أجنبى غريب يكتب على تخوم ميدية بعد ستمائة سنة يوازنه ويرجع عليه ولا شك سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحي وكلاهما مصرى ، وأقدمهما البطريق يوتيوخوس Eutychius الذى توسع في الكتابة عن فتح الاسكندرية ، وإن القضاء الصارم الذى نسب الى عمر لبغيض الى

(١) جمع عاهل ، والعاهل : الملك الاعظم كالخليفة . (٢) ادحضوها :

أبطلوها .

أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين الذين يفتون بتحريم احراق الكتب الدينية التي تغنم من اليهود والمسلمين في الحرب ، وما كان من الكتب دنيويا ظنيئا^(١) سواء أُلِّفه المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة فحكمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين . وقد تعزى^(٢) الى متقدمى الخلفاء بعد محمد غيرة أضرى^(٣) من ذلك بالهدم والابادة . ولكن لو صح هذا لوجب أن تنفذ الأوراق سريعا لقلة المادة المحترقة ! .. فلا نرجع الى نكبة المكتبة في الحريق الذى أصابها على غير قصد بيدى قيصرى وهو يدافع عن نفسه ، ولا الى تعصب المسيحيين الأوائل الذين كانوا يدبرون الوسائل تدييرا لتعفية الآثار المتخلفة من أيام عبادة الأصنام ، ولكننا نتحدر شيئا فشيئا من عصر أثنونين الى عصر ثيوديسيوس فنعلم من سلسلة الأنباء المعاصرة أن القصر الملكى وهيكلى سرايس لم تبق فيهما تلك الأسفار التى جمعها البطالسة وبلغت فى احدى الروايات أربعة آلاف وفى رواية أخرى سبعة آلاف ، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة بذخيرة من الأوراق والأضابير ، فان كانت هذه هى الوقود الذى أفتته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعديد الطبيعة المسيحية والقائلين بتوحيدها فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامة أنها كانت فى الحمامات أنفع لبنى الانسان ! .. »

والدكتور الفرد بتلر Butler المؤرخ الانجليزى الذى أسهب فى تاريخ فتح العرب لمصر والاسكندرية يلخص الحكاية وينقضا ابتداء لأن حنا فليبيوتوس الذى قيل انه خاطب عمرو بن العاص فى أمر المكتبة لم يكن حيا فى أيام فتح العرب لمصر .. ثم ينقضا لأسباب شتى منها أن كثيرا من كتب القرن السابع كانت من الرق وهو لا يصلح للوقود ، وانها لو قضى الخليفة باحراقها لأحرقت فى مكانها ولم يتجشموا نقلها الى الحمامات مع ما فيه من التعب ومع امكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس الأثمان ، واننا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق لما كفى الباقي من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يوما ،

(١) المنهم . (٢) أي تنسب . (٣) أي أشد . (٤) يقال : عما المنزل : أي درس . (٥) نوع من الجلد الرقيق يكتب فيه . (٦) أي تكلفه على مشقة .

وهذا عدا الشك الذى يعتور^(١) القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الاسكندرية ، ثم كتابتها بعد ذلك خلوا من المصادر والاسناد ، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة فى السنة الثامنة والأربعين للميلاد ، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلقل بين طوائف المسيحيين والمستشرق كازانوفاسمى الحكاية: أسطورة ويقول انها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون ، وينقضها لمثل الأسباب التى لخصناها من كتاب بتلر ، ثم يقول : « ... وهناك اعتراض أخطر مما تقدم وهو أن ما ذكر عن يحيى النحوى منقول عن كتاب الفهرست لابن النديم فى أواخر القرن العاشر ، وفيه أن يحيى هذا عاش حتى فتحت مصر وكان مقربا من عمرو ولم يذكر شيئا عن مكتبة الاسكندرية . فحادثة المكتبة اذن من أوهام ابن القفطى أخذها عن خرافة كانت شائعة فى عصره »

ثم يمضى فى تفنيده^(٢) فيقول : « وقد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس والأشوريين والبابليين والقبط التى حرقها عمر عند فتح العرب . وقال ابن خلدون فى كلام آخر : ان العرب لما فتحوا بلاد الفرس لبسأل سعد بن أبى وقاص عمر عما يأمر به فى شأن الكتب التى بها فأمره بالقائها فى اليوم^(٣) فانتقلت القصة من فارس الى الاسكندرية مع الزمن ، وفعل الخيال فعله فى تحريفها ... »

« وقد وقع تحريف فى هذه الخرافة فى بعض دوائر المعارف حيث نقل عن سبرنجل أن مكتبة الاسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد ، وأن الترك فتحوا الاسكندرية سنة ٨٦٨ وأضرموا^(٤) فيها النار على عهد أحمد بن طولون ... ولكن أحمد بن طولون لم يفتح مصر ، وانما أقامه خليفة بغداد حاكما عليها . فلا علاقة للترك اذن بهذا الحادث المزعوم »

قال : « وفى سنة ١٨٧٧ ذكر الكونت دى لندبرج أن أحد الضباط الانجليز اتهم نابليون الأول باحراق مكتبة الاسكندرية »
قال : « وسنلم هنا بالسبب الذى من أجله ظهرت هذه الخرافة فى

(١) أي يعيبها . (٢) اللوم وتضعيف الراي . (٣) اليوم : البحر .

(٤) أضرموا : أي أشعلوا .

القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك » ...

« ففى أواخر القرن الثانى عشر رجعت مصر الى حكم خلفاء بغداد . وأبلى صلاح الدين بلاءه فى الحروب الصليبية واتتصر على المسيحيين فلقبه الشعب بقاتح مصر ، وقرن بين اسمه واسم عمر بن الخطاب وكان لابن القفطى أب يعجب بصلاح الدين ولاه صلاح الدين قضاء القدس ، وعاصر عبد اللطيف البغدادي وهو من المعجيين شله بصلاح الدين ، فتلاقيا فى القدس وسمع منه هذه الأسطورة التى توسع ابن القفطى فى نقلها . فكان أول من ألف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد . وما يروى عن صلاح الدين: انه باع كنوز القصر والمكتبة فبقيت هذه الرواية الى القرن الثامن عشر يوشيه^(١) ما ينسجه الخيال حول الخرافة العمرية . ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد تعززها^(٢) خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله الا كتاب الله ..

ومن المشاركة الذين تناولوا حكاية المكتبة المؤرخ الكبير جورجى زيدان فى الجزء الثالث من كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » حيث قال : انه كان يميل الى نفى الحكاية ثم عدل عن ميله هذا الى قبولها وأورد من أسباب ذلك « ان حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يختلقها أبو الفرج تنعصب دينى ، ولا دسها أحد بعده ، بل هو نقلها عن ابن القفطى وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وكان صدرا محتشما جمع من الكتب ما لا يوصف وكانوا يحملونها اليه من الآفاق وكانت مكتبته تساوى خمسين ألف دينار . ولم يكن يجب من الدنيا سواها وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ولم يخلف ولدا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب ، وله مؤلفات عديدة فى التاريخ والنحو واللغة وفى جملة كتاب أخبار مصر من ابتدائها الى أيام صلاح الدين فى ستة مجلدات وكتاب تراجم الحكماء الذى نحن فى صدد

(١) الوشي : نقش الثوب وتزيينه . ومعنى يوشيه : يزينها ويحسنها .

(٢) تعززها : أي تقويها .

وان ابن القفطى وعبد اللطيف البغدادى أخذوا عن مصدر ضائع . وأما
خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة ، فلا بد له من سبب ، والغالب انهم
ذكروها ثم حذفوا بعد نضج التمدن الاسلامى واشتغال المسلمين بالعلم
ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين
فحذفوه أو لعل لذلك سببا آخر ، وفى كل حال فقد ترجع عندنا صدق
رواية أبى الفرج ... »

ونرى نحن أن ابن القفطى كان أولى ممن تقدموه بالسكوت عن حريق
المكتبة بأمر عمر بن الخطاب لو كان الذين تقدموه قد سكتوا عنه
لعرفانهم قدر الكتب وغيرتهم على سمعة الخلفاء الراشدين ، فإن ابن
القفطى لا يجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين فى المغالة
بنفاسة المكتبات . فلا بد من تعليل أصوب من هذا التعليل لسكوت
المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية
الى أن نجمت^(١) بعد بضعة قرون ..

فمن جملة هذا العرض لآراء نخبة من الثقات فى هذه المسألة يحق لنا
أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها ، وانها موضوعة فى القرن
الذى كتبت فيه ولم تتصل بالأزمة السابقة له بسند صحيح ، وربما
كانت مبدوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل
التعصب الذميمة^(٢) عليه وعلى الاسلام

واذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة فالمعقول ألا توضع
قبل القرن السادس الهجرى الذى تسربت فيه الى الكتب المدونة ، وهذا
يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر فى الحكاية من جميع أطرافها لأن
تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها فى وقت واحد
قبل القرن السادس للهجرة

فهو يستلزم أن يكون الملفق عليهما بالأقوال والأحوال التى أثرت عن
عمر بن الخطاب وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريية التصديق مشابهة لما

(١) نجم الشيء : ظهر وطلع . (٢) أي الغيب المذموم .

يتوخاه^(٢) الخليفة في أوامره ونواهيه ... ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم عند فتح الاسكندرية فضلا عن المسيحيين أو الاسرائيليين ، وانما عمت واستفاضت بعد ما دونت السير وجمعت المتفرقات -

ويستلزم تلفيق الحكاية ، للتشهير بالخليفة المسلم ، أن يكون الملفق عارفا بما في هذه التهمة من المعابة ، شاعرا بما فيها من الاعتساف^(٣) والغرابة ولم يكن هذا أيضا مفهوما في أيام فتح اسكندرية بين خصوم الاسلام ، لأنهم كانوا قد تعودوا احراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية وبقاياها رجسا^(٤) من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم ، وما من عارف بالكتب بينهم الا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحية في تدمير التحف الاغريقية ولا سيما « ثاوديسيوس » الذي أحرق هياكل شتى فيها ولاشك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التي عليها الخلاف .

وقد يستلزم تلفيق الحكاية أن تكون مصر وأخبارها موضع اهتمام ومثار قيل وقال ، ولم تكن مصر قط قبلة أنظار العالم كما كانت في أوقات الحروب الصليبية ، يوم كانت هي ميدان الفصل ومناط الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها^(٥) . وقد يستلزم كذلك أن يكون العصر عصر حرازة بين الاسلام وخصومه كما كان عصر الحروب الصليبية وما قبله بقليل .

وقد يستلزم مع جميع أولئك أن يشترك في القيل والقال حافظو الكتب الاغريقية في بيزنطية وشواطئ آسيا الغربية وهي البلاد التي كانت موطئ أقدام الجيوش في الكر والفر والقدوم والاياب ، ومنها تدفق حافظو الكتب الى أوروبا عندما أغار الترك على بيزنطية من تلك الأرجاء .

فتلفيق الحكاية اذن كان عجيبا في أيام فتح الاسكندرية وما تلاها من الأزمنة الى زمان القفطى والبغدادى وأبى الفرج الملقب ، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبة في تلك الأيام .

وتلفيقها في عصر الحروب الصليبية غير عجيب لاجتماع الأسباب التي

(١) أحاديث ملفقة : أي أكاذيب مزخرفة . (٢) يتحراه ويقصده .

(٣) الاخذ على غير الطريق . (٤) القدر . (٥) وجع في القلب من غيظ .

يستلزمها ذلك التلفيق ، ولهذا ظهرت فيه وأمدنا ظهورها فيه بالسبب الذى يبطل العجب ويفسر الغوامض التى لا يفسرها تعليل معروف غير هذا التعليل ..

الا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر باحراق مكتبة الاسكندرية ، فما هى الوصية التى تلحقه من هذا الأمر؟.. ولماذا كان يحرم عليه أن يحرقها ويجب عليه أن يستبقيا ويفتح أبوابها ؟ .. ولماذا كان ينبغى أن يكون على يقين أنها شئ مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم ، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها ؟ ..

أمن النقص فى تفكير الانسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية؟.. أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها ، ان صح أنهم حفظوها ؟ ..

ان أحوال الروم والقبط فى ذلك العهد لم يكن فيها دليل واحد على أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفيسة ، وان ضياع كتبهم فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التى لا يجوز التفريط فيها

فقد كانوا على شر حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفاسف الأمور . فاذا كان عمر غير مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها ، واذا كانت أحوال الأمم التى هى أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوغ^(١) الاعتقاد بخلوها من كل قيمة ، فأين هو العيب فى تفكيره ان صح انه فكر على ذلك المتوال ؟ ..

انما يعيب الانسان أن يكون عدوا للمعرفة على اطلاقها ، ولم يكن عمر عدوا للمعرفة ولا معرضا عنها ، بل كان مشغوبا بها حيث رآها ، دينية كانت أو أدبية ، ومن قومه أتت أو من غير قومه

فكان يستشير الغرباء فى تدوين الدواوين ومتافع الصناعة ولا ينهى عن علم شئ الا أن تكون فيه فتنة أو ضلال

١ . (١) العيب والعار . (٢) تجيز .

وكان ولا ريب يؤثر للمسلمين أن يقبلوا على دراسة القرآن ويقدموا فهمه على فهم كل كتاب ، وهذا واجبه الأول الذى لا مرأى فيه ، وما من أحد هو مطالب بهذا الواجب قبل أن يطالب به عمر على التخصيص ، لأنه الخليفة الذى فى عهده انتشر المسلمون بين أقطار المشرق وخيف عليهم أشد الخوف أن ينحل^(١) العقد الذى جمعهم وبث فيهم الهمة والبأس وسودهم^(٢) على العالمين .

وفى الأخبار التى نقلت بهذا الصدد ، أن رجلا أنبأهم لما فتحو المدائن أصاب كتابا فيه كلام معجب . فسأله : أمن كتاب الله ؟ .. فقال : لا ... فدعا بالدرة فجعل يضربه بها وهو يقرأ : « الر . تلك آيات الكتاب المبين . انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون^(٣) » .. ثم قال : « انما أهلك من كان قبلكم انهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل حتى درسوا وذهب ما فيهما من العلم »

رويت هذه الرواية عن عمر بن ميمون عن أبيه ، وليس فيها ما يأباه العقل ولو حكمنا على عمل عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والايان الى حين ..

فبالتجربة الواقعية أيقن عمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات الى النور واتصروا على من حاربوه وعندهم كل كتاب .

وما فرغ المسلمون بعد من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله، بينهم سنوات . فكيف يرضى الخليفة الذى يهيم أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه الى كتب لا يؤمن ما فيها ؟ .. وكيف يكون الحال اذا تفرقوا شذر مذر ولهم فى كل بلد قراءة غير هذا الكتاب الذى لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا كل ما فيه ؟ .. أمن عداوة المعرفة هذا أو من ايثار المعرفة التى تتقدم على غيرها ؟ .. واذا لم تتقدم هذه المعرفة على غيرها فى السنوات الأولى من تداول القرآن الكريم فمتى تتقدم ؟ .. ومتى يعطى القرآن حقه من الفقه والوعى والاقبال ؟ .. وأين هى الغنيمة الروحية التى تعدل فى كتاب من الكتب بعض ما غنمه المسلمون بوحى القرآن فى صدر الاسلام ؟ ..

(١) أي ينفرط . (٢) أي جعلهم سادة . (٣) الآية : ٢٥١ من سورة

فعلى أى فرض من الفروض ، لم يكن فى تصرف عمر ما يأباه العقل الذى ينظر الى الحقائق المشهودة والآثار الواقعة ، ويجوز أنه أمر باحراق مكتبة الاسكندرية على أبعد احتمال ، ولكن الذى لا يجوز لمنصف أن يفهم من ذلك أنه عدو الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب ، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفع ، ومعرفة مجهولة ظواهرها كلها تغرى باتهامها . ولا لوم عليه أن يولد حيث يجهلها . ولا لوم عليه أن يتهمها وهى لم تنفع أهلها يوم رآهم يخبطون^(١) فى الضلالة والهزيمة ، ولا يقال عن عقل يفكر هذا التفكير أنه لم يفكر على هدى مستقيم ...



(١) يخبطون : أي يضربون .

عمر في بيته

كان الخليفة الأكبر - صاحب الأمر في الجزيرة العربية ، وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقيصرة والفراعنة ، ومدير الحكم في الرقعة الوسطى بين قارات العالم المعمور - رجلاً فقيراً يعيش في بيته عيشة الكفاف^(١) ، ويقنع من الغذاء والكساء بحظ لا يتمناه كثير من الرجال ، ويزهد فيه كثير من النساء .

فمن غير العجيب أن يخطب بعض النساء فيأبين عيشه ، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبي عليه السلام ، فلم يقبلنه الا وقد خيرن بينه وبين الطلاق ..

وما ندري أى الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أغلى وأجمل ، فان الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصى ، وهى جميعاً مما تغالى به السير وتزدان بجوانبه . ولكننا لا نعرف بينها ما هو أغلى وأجمل من هاتين الشهادات : أن يعيش في بيته عيشاً لا يشتهى ، وأن تكون في يده صولة الملك فلا ترى فيها امرأة من النساء خلافة^(٢) تغرها ولا صولة تخيفها من أن ترفضها وتأبأها ..

ان امرأة واحدة ترفض عمر لأغلى في الشهادة له من ألف امرأة يقبلن على بيته ويطمعن في سلطانه

وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفا ، لم نسمع قوماً قيل عن إيمانه بالله أصدق منه ولا أوجز وأوفى ، فقالت أم ابان بنت عتبة بن ربيعة : انه رجل « أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه ، كأنه ينظر الى ربه بعينه » والذي نعينه من الوصف هو قولها عن مخافته الله انه كان يخافه كأنه يراه بعينه ..

فهو في الحق أصدق وصف لايمان هذا الرجل المتفرد بإيمانه كما تفرد

(١) الكفاف من الرزق : ما كف عين الناس وأغنى . (٢) الخديعة ، واختلبه : خدعه ، وخاب وخلبوب : البرق ، والخداع الكذاب . (٣) أي تخدعها .

بكثير من شؤونه . انه تجاوز حد الايمان الى حد الرؤية والعيان ، وحقق مبالغات أبى الطيب المتنبى حين وصف الغاية القصوى من الشجاعة والحكمة فقال :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى الى قول قوم أنت بالغيب عالم ومهما يكن من ايمان بالغيب فهو لا يبلغ في اليقين والحضور مبلغ الرؤية بالعين ، وهى قولة عائرة من قائلة أصابت ما لم يصبه قائل ، ولعلها لا تدرى مدى صوابها .

٤ . وخطب عمر أم كلثوم بنت أبى بكر الى أختها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقالت له : الأمر اليك . ثم سألت أختها فأبته وقالت : لا حاجة لى فيه . فرجرتها قائلة : أترغبين^(١) عن أمير المؤمنين ؟.. قالت : نعم ، انه خشن العيش شديد على النساء . وكرهت عائشة أن تجبه بالرفض فوسطت في الأمر عمرو بن العاص يحتال له برفقه وحسن تديره ، فجاء عمر وفاجأه قائلاً : بلغنى خبر أعيدك بالله منه . قال : ما هو ؟.. قال : خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر .. قال : نعم ، أفرغت بى عنها أم رغبت بها عنى ؟ .. قال : لا واحدة ، ولكنها حدثت^(٢) نثأت تحت كف^(٣) أمير المؤمنين فى لين ورفق ، وفيك غلظة ، ونحن نهايك وما تقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها ان خالفتك فى شيء فسطوت بها ؟.. كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك !.. ففهم عمر أن ابن العاص لا يقدم على هذه الوساطة بغير موسط ، وان فى الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء .. فسأله كأنه يستطلع ما وراءه من الممانعة : كيف بعائشة وقد كلمتها ؟.. قال : أنا لك بها ، وأدلك على خير منها : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، تعلق منها بنسب رسول الله

وأم كلثوم بنت على حدثت أيضا ، والمحظور فى اغضاها أكبر من المحظور فى اغضاها بنت أبى بكر ، وان اعتمد ابن العاص على أن عمر يملك نفسه فلا يغضبها فقد كان حرياً به أن يعتمد على شيء من ذلك فى

(١) رغب بالشيء : أراده ، ورغب عن الشيء : لم يردده . (٢) أي

نواجهه . (٣) أي صغيرة السن . (٤) الجانب . (٥) القهر بالبطش .

خطبته لبنت الصديق ... فلن يفوت عمر - وهو يعلم من يخاطبه في الأمر - أن يفهم خبيثة^(١) سعيه وأن يتجاهله لئلا يكشف موقف الرفض والاعتذار من عائشة وأختها رضى الله عنهما ، ويعمل بما يراه الصواب والطريف في القصة - وكلها طريف - أن يذهب عمرو بن العاص الى خليفته ليواجهه بما يؤخذ عليه من خلأثقه وهو آمن أن يفضبه ، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته اياه ما دام على صدق في مقاله .

وللمرأة أن تأبى الخشونة في رجلها ولا تستريح اليها ، ولكن دارس الاخلاق لا ينبغي أن يعيب هذه الخصلة الا بمقدار ما فيها من نقص في الطباع الانسانية الاصلية .. اذ المحقق أن الخشونة حرمان من الصقل^(٢) والمرونة ، ولكننا نخطئ كل الخطأ ان حسبنها حرمانا من البر والرحمة ، لأن المرء قد يكون ناعم الملمس وهو قاس مفرط القسوة ، ويكون خشن الملمس وهو رحيم مفرط الرحمة ، ويغلب في هذه الحالة أن تكون خشوته - كما أسلفنا في فصل سابق - درعا يستر بها مواضع اللين في خلقه ، وضربا من الخجل أن يطلع على ناحية فيه يتطرق اليها الضعف وتنفذ منها الرماية ..

فالخشونة تقيض الصقل والنعموة ، وليست تقيض العطف والرحمة . وعمر بن الخطاب من أفذاذ الرجال الذين تتجلى فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء ، حتى في علاقاته بالأهل والنساء .

رحمة عمر رحمة في غلاف وليست بالرحمة المكشوفة لكل ناظر ولا مس ، ولا تطول بالناس عشرته حتى ينقشع^(٣) هذا الغلاف عن قلب وديع مفعم بالعطف والمودة ، مفتوح الجوانب لكل عاطفة كريمة ولو لم تكن من ولى حميم^(٤) .

ففساؤه اللائى عاشرنه قد كلفن بحبه ورضين عيشه لرضاهن بمودته وعطفه ، وكانت احداهن التى سميت العاصية وسماها النبی عليه السلام الجميلة لا تطيق فراقه . فاذا خرج مشيت معه الى باب الدار فقبلته. ولم تزل في انتظاره ..

(١) ما خبيء وغاب . (٢) الجلاء . (٣) يذهب . (٤) مليء . (٥) أى

قريب .

وكانت من نسائه عاتكة بنت زيد ، وهى على قسط وافر من الجمال
ومن الدين ومن البلاغة ، تولعت^(١) فى رثائه حين قتل فلم يكن بكاءها عليه
كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد ، وتعددت قصائدها فى تأبينه^(٢) بكلام
لا يغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة ، وهى التى قالت فيه :
عصمة الناس والمعين على الدهر روعيث المنتاب والمحروب^(٣)
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا قد سقته المنون كأس شعوب^(٤)
وقالت فيه :

رؤوف على الأدنى غليظ على العدا أخى ثقة فى النائبات منيب
متى ما يقل لا يكذب الله قوله سريع الى الخيرات غير قطوب^(٥)
وقالت فيه :
جسد لطف فى أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد
وقالت فيه :

يا ليلة حبست على نجومها فسهرتها والشامتون هجوة^(٦)
قد كان يسهرنى حذارك مرة فاليوم حق لعينى التسهيد^(٧)
ولا يبكى الرجل هذا البكاء على ما فيه عيشه من الشظف الا ومن
وراء خشوته مودة قلب تنفذ الى القلوب
وأكثف ما تكون الدروع أرق ما يكون الموضع الذى يليها وأخوفه
من الاصابة . فانظر أين الموضع الحصين المحمى فهناك الموضع اللين
الذى يخاف عليه ، ولا يخدعك عن ذلك خادع من اظهار أو تظاهر غير
مشعور به ، وغير مقصود .

أين أكثف ما تكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التى غيناها ؟ ..
المرأة ولا نزاع ! ..

فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعدت من دلائل شدته عليها ، وفى
هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله غيور يحب الغيور ،
وان عمر غيور »

(١) ذهاب العقل ، والتحير من شدة الوحدة . (٢) النناء على الشخص
بعد موته . (٣) سلب ماله ، فهو محروب . (٤) المنية . (٥) الذى زوى ما بين
عينيه . (٦) أي نائمون . (٧) الارق .

وعلى المرأة ومن المرأة كان حذره أن تتخايل للعيون وتبرج في مضطرب القتون
 وكلما أوصى بوصية فيها فانما هي الفتنة التي يتقيها ، فلما قال :
 عليكم بالإبكار . لم يقل عليكم بالإبكار لأنهن أمتع وأنضر ، ولكنه قال
 عليكم بهن لأنهن أكثر حبا وأقل خبا^(١) .
 ولما توجس^(٢) من زواج المسلمين بينات الأعاجم لم يتوجس منه لأنه
 حرام بل لأن « في نساء الأعاجم خلافة^(٣) » ، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على
 نسائكم » ..

فبالخلافة هي المحذور الذي يتقى

وهنا كثافة الدرع فابحث هنا عن منفذ الحذر ، انك لا تبعد كثيرا حتى
 تلمس الموضع الذي نم عليه الرجل حيث قال : « لو أدركت غفراء وعروة
 جمعت بينهما » .. أو نم عليه الصبي الذي عناه ابن الخطاب حيث قال :
 « أحب أن يكون الرجل في أهله كالصبي فاذا احتيج اليه كان رجلا »
 ومتى كان فرط الغيرة على المرأة أو الحذر منها دليلا على أنها ذلك
 : لشيء المهيئ ، وإن قال الغيور الحذور بلسانه انها لشيء مهين ؟ ..



وابحث عن جائب واحد مغلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذي
 ينفي أن يوصل فانك لن تجده في نفس هذا الرجل بته ، وإن جهدت في
 البحث ..

فكان ابننا بارا لا ينسى التحدث عن أبيه ويعتز بذكراه على ما كان
 من قسوته عليه في صباه ، ولم يزل يقسم باسمه حتى نهاء النبي ، فانتهي
 وهو يقارب الكهولة

وكان أبا يجب أبناءه ويعرف وجد الآباء بالأبناء ، وينزع الثقة من وال
 لا يحنو^(٤) على صغاره ... أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبي صغير
 فجلس في حجره وهو يلاطفه ويقبله فسأله المرشح للولاية : أتقبل هذا
 يا أمير المؤمنين ؟ .. إن لي عشرة أولاد ما قبلت أحدا منهم ولا دنا أحدهم

(١) خبا : أي خدعا • (٢) توجس : أضمر الخوف • (٣) أي خداع

(٤) لا يحنو : لا يعطف •

منى ... فقال له عمر : وما ذنبى ان كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك ... انما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول : انه اذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟ ..

وكان كلاب بن أمية الكنانى فى غزوة فاشتاق اليه أبوه الهرم^(١) وحزن لغيابه ، واتصل نبؤه بعمر فكتب الى قائد الجيش يستعيد كلابا الى المدينة . فلما عاد ودخل عليه سأله : ما بلغ من برك بأبيك . قال : كنت أكفيه أمره ، وكنت أعتد اذا أردت أن أحلب لبنا أغزر ناقة فى ابله وأسمنها فأريحها وأتركها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلافها^(٢) حتى تبرد ، ثم أحلب له فأسقيه ..

ثم بعث الى أبيه فجاء يتراوح فى مشيته ضعيفا بصره محنيا ظهره فسأله : كيف أنت يا أبا كلاب ؟.. قال : كما ترى يا أمير المؤمنين ... ثم جاءه بلبن حلبه ابنه ففطن الرجل ، وقال وهو يدنى الاناء الى فمه : لعمر الله يا أمير المؤمنين انى لأشم رائحة يدى كلاب من هذا الاناء ! .. فقال عمر : هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به . فوثب اليه ابنه ، وطفق^(٣) الأب الذى لم يكذب يراه يضح ويقبله ... وبكى عمر ، وأمر كلابا أن يلزم أبويه ما بقيا ، وله عطاؤه كأنه يجاهد فى سبيل الله

ومن حنانه على الأطفال انه كان يشفق عليهم أن يحزنوا فى لهوهم ولعبهم فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوهم ومحصول لعبه ، فحدث سنان بن سلمة انه كان فى صباه يلتقط البلح فى أصول النخل مع بعض الصبية اذ أقبل عمر فتفرق الغلمان وثبت هو فى مكانه ، فلما دنا منه أسرع قائلا : يا أمير المؤمنين ! .. انما هذا ما ألقى الريح . قال : أرنى أنظر فانه لا يخفى على . فنظر فى حجره ثم قال : صدقت ، الا أن الصبى لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين الى بيته . فقال : يا أمير المؤمنين ! أترى هؤلاء الآن ؟.. وأشار الى الصبية الهاربين . ثم قال : والله لئن انطلقت لأغاروا على فاتتزعوا ما معى ، فمضى معه عمر حتى بلغه بيته !.. وكثير على المصدقين المفرطين فى التصديق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم

(١) كبر السن . (٢) أي ضرع الناقة ، او حلمة ضرعها . (٣) أي جعل .

يصدقوا أنه وأد بنتا في الجاهلية على تلك الصورة البشعة التي انتقلت إلينا في بعض الروايات ، وخلصتها « انه رضى الله عنه كان جالسا مع بعض الصحابة اذ ضحك قليلا ثم بكى . فسأله من حضر فقال : كنا في الجاهلية نصنع صنما من العجوة فنعبده ثم نأكله وهذا سبب ضحكى . أما بكائى فلأنه كانت لى ابنة فأردت وأدها فأخذتها معى وحفرت لها حفرة ، فصارت تنفض التراب عن لحيتى فدفنتها حية » .

فهى قصة يعثورها^(١) الشك من ناحية ضحكها ومن ناحية بكائها ومن ناحية اجتماعهما فى لحظة واحدة لتمكين واضع القصة من التفرقة بين عصرى عمر فى جاهليته واسلامه ، وادعى ما فيها من الشك تلك الخاتمة التى يتم بها اختراع الفجيعة والبلوغ بها الى ذروتها^(٢) ، وهى نفص الطفلة الصغيرة تراب حفرتها عن لحية أبيها ...

فالوآد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية . ولم يشتهر بنو عدى خاصة بهذه العادة ولا اشتهرت بها أسرة الخطاب التى عاشت منها فيما نعلم فاطمة أخت عمر وحفصة أكبر أولاده وهى التى كنى أبا حفص باسمها ...

وقد ولدت حفصة قبل البعث الاسلامى بخمس سنوات فلم يثدها . فلماذا وأد الصغرى المزعومة وهى فى السن التى تفهم فيها كيف تنفض التراب عن لحية أبيها ؟ .. لماذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومة فلم يذكرها أحد من اخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومته وخؤولتها ؟ ..

ما نحسبها الا احدى جنائيات الاغراب على من خلقوا وفى سيرتهم مثال للأغراب والاعجاب . فهى اختراعة تضعفها قرائن التاريخ ، وتضعفها خلائق عمر التى لا تتبدل هذا التبديل من النقيض الى النقيض بين جاهليته واسلامه . وقد كان عمر فى جاهليته لم يسلم بعد يوم أشفق على أخته وهى دامية الوجه . وكان فى جاهليته يوم أحب أخاه حبه المفرط وبقي عليه . فليس وقوع القصة المزعومة فى الجاهلية مانعا لمرابتها ومقربا لتصديقها . وغير هذا الأب وهذا الأخ يطبق هذه القسوة التى لا تطاق

(١) اي يخالطها . (٢) اي قمتها .

ان قليلا من الآباء من أحب أبناءه كما أحب عمر أبناءه ، وان قليلا من الاخوة من أحب أخا كما أحب عمر زيدا أخاه ، فما سمع اسمه بعد : مقتله الا سالت عبرته^(١) ، وما هبت الصبا ، كما قال - الا وجد نسيم زيد - وتمنى نظم الشعر لينظمه في رثائه

بل ان قليلا من الأصدقاء من أخلص لأصدقائه وعشرائه كما أخلص عمر لكل صديق وعشير ... وهو القائل : « لقاء الاخوان جلاء الاحزان » وهو القائل حرصا على المودة وضنا بها : « اذا أصاب أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به ، فقلما يصيب ذلك »

فاذا أردنا أن ننقب عن وشائج^(٢) الرحم وصلات المودة في نفس هذا الرجل المهيب المخيف فلننقب^(٣) عنها في ينايعها الخفية التي تسرى منها وتترقرق في نواحيها ، ولا ننقب عنها في الصخور التي تكتنفها وتطفو عليها وترفع أعلامها ...

أو نحن حريون أن ننقب عنها بين هذه الصخور والأعلام ولكن على هدى وبصيرة . فلا تقنع منها برأى العين من بعيد أو قريب ، ولا نفتر بما تبديه كأنه كل شيء تحتويه ...

فما هذه الصخور والأعلام التي كانت تروع^(٤) الناظر من هيئة عمر ومن ملامح سيماء ؟ ..

هي مظهر قدرته على نفسه لا أكثر ولا أقل ، وهي الحارس اليقظ الذي يحمي تلك النفس أن يتسرب اليها الوهن وأن تؤخذ على غرة^(٥) ، من حيث يخاف عليها

والمرء لا يعتصم بقدرته على نفسه وهو آمن . ولا يوقظ الحارس على دخيلته وهو وادع في سره^(٦) . انما يعتصم بقدرته وبوقظ حارسه حين يحذر ، وانما يحذر من الطارق الذي لا يستهين به ولا يزال على رقبة منه ..

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر ما يكون اعتصاما بقدرته في أمس

(١) أي دموعه . (٢) الحب . (٣) أي روابط وعلائق . (٤) فلنبحث .

(٥) أي ترهب وتخيف . (٦) أي غفلة . (٧) النفس .

الأمر بقلبه وسريرة طبعه : في خشية الخديعة من ناحية الترف والمتعة فهو لا يستسلم لشهوة مأكلا ولا ملبس ولا قنية^(١) ذنوبية . وفي خشية الخديعة من ناحية ولده وأهله فهو يجفل^(٢) من أن يرى لهم رزقا لا يعرف مأثاه ، ويجفل من أن يرى لهم ابلا سمانا بين الابل العجاف^(٣) ، مخافة أن يسمنها لهم الناس في مراعيهم .. لأنهم ولد أمير المؤمنين وتلك ابل أبناء أمير المؤمنين ؟ ..

وكان أكثر ما يكون اعتصاما بقدرته حين يلح الفتنة الكبرى التي يقتدر بها شيطان الغواية . وتلك هي المرأة لا فرق بين خيارها وشرارها . فمن شرارها استعذ بالله ! .. ومن خيارها كن على حذر ! ..^(٤) وإذا اعتصم عمر بن الخطاب بنفسه فانتظر شيئا واحدا لن تجد حولا عنه ، وهو تقديره العدل تقدير الخائف أن يزيد فيه شعرة أو ينقص منه شعرة . فمتى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر ، ومتى استيقظ وانتصر فلحق يقظته وفي سبيل الحق انتصاره

يعرض شأن المرأة فهو الغيور الحذور ، وهو الواقف على الميزان فيما تعطاه وفيما تعطيه ، فلا هي بظالمة ولا مظلومة في كل أمر يرجع اليه فمن همه كان ألا تظلم لضعفها ، ولا تغبن لحيائها ، وخفها^(٥) ، ومن حقها عنده ألا تكره على زواج الرجل القبيح لأنها تحب لنفسها ما يحبه الرجل لنفسه ، وأن يعرف لها عذرها حيث يعرف للرجل عذره في الصلاة بينها وبينه . فسمع مرة اعرابية تنشد :

فمنهن من تسقى بعذب^(٦) مبرد نقاخ فتلكم عند ذلك قرت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن^(٧) أجاج^(٨) ولولا خشية الله فرت
فتوهم في زوجها عيا وأرسل في طلبه فاذا هو متغير الفم . فخيره
بين خمسمائة درهم وطلاقها .. فقبل الدراهم وطلقها ..

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد :

نطاول هذا الليل تسرى كواكبه وأرقنى الا خليل ألاعب
فوالله لولا الله لا شيء غيره لزلزل من هذا السرير جوابه

(١) في الرجل : أي صار غنيا وراضيا . (٢) المنزعج . (٣) الهزال .

(٤) أي تحولا . (٥) بمعنى شدة الحياء . (٦) الماء العذب البارد . (٧) الماء

المنغير الطعم واللون . (٨) أي ملح مر .

فسأل عن زوجها فعلم أنه خرج في غزوة طالت غيبته فيها ، فأمر بعد ذلك ألا تطال غيبة الأزواج في الغزوات ...

وكان يقبل شكوى المرأة من زوجها الذى يهمل النظافة والزينة لأن النساء « يحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لهن »

وقبل شكوى المرأة من زوجها الخاضب^(١) قبل البناء بها يوهما أنه شاب وهو موخوط^(٢) الرأس بالشيب ، فأوجعه ضرباً وقال : غررت القوم

ولم يكن يتخرج مع المرأة مثل هذا التخرج أن تستر من سيرتها ما لا يضير ستره ان عاق زواجها . فكاشفه رجل بأمر ابنة له أسلمت وأصابها حد من حدود الله ، فهمت أن تذبح نفسها ، فأدركها أهلها وقد قطعت بعض أوداجها^(٣) فبرئت وتابت واستقامت على الهداية . فسأله : أخبر القوم الذين يخطبونها بما تقدم من سيرتها ؟ .. قال : ويلك ! .. أتعمد الى ما ستره الله فتبديه ؟ .. والله لئن أخبرت بشأنها أحدا من الناس لأجعلنك فكالا^(٤) .. « انكحها فكاح العفيفة المسلمة » .

فهى أولى عنده ببعض المحاباة حين لا ضير فى المحاباة ، وقد عاهد الناس فيما عاهدهم عليه « لينعن النساء الا من الإكفاء » .

ونرى انه قضى فى الخلاف بين الزوج والزوجة بالقول الفصل فى بناء الأسر وتعمير البيوت ، حيث قال لرجل هم بطلاق امرأته لأنه لايجبها : « أوكل البيوت بنى على الحب ؟ .. فأين الرعاية والتدزم^(٥) ؟ .. »

فانه لبر بربات البيوت لم يدركه متحذقة العصر الذين يلفطون بالحب والزواج ويجهلون أن الرعاية والتدزم أقمن بالدوام والتعمير من زواج يبنى على الحب وحده . لأن الحب منوط بالأهواء التى تتغير بين آونة وأخرى . وأما مناط الرعاية والتدزم فهو الأخلاق التى قل أن يطرأ عليها تغير ..

وقد استشار النساء فيما يحسن كما استشار الرجال فيما يحسنون ،

(١) الذى صبغ شعره بالحناء ونموها . (٢) خالطه . (٣) عرق بالعنق . (٤) أي عرة لغيرك . (٥) استنكف . (٦) المشرقة الواضحة .

ولم يتعال قط أن يرجع عن خطئه اذا ردته عنه امرأة بالبينة الصادقة .
ومن ذاك أنه نهى الناس في بعض خطبه أن يزيدوا مهور النساء على
أربعين أوقية ، فصاحت به امرأة فطساء^(١) من صفوف النساء : ما ذاك
لك ؟ .. فلم يأنف أن يسألها : ولم ؟ .. قالت : لأن الله تعالى يقول :
« ... وآتيتم أحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإنما
ميينا^(٢) » . فرجع عن خطئه واعترف بصوابها

فما للمرأة من حق تعطاء
وما ليس لها بحق لا تعطاء وتذاد^(٣) عنه
والذى ليس لها بحق في رأى عمر — ورأى بكل رجل ذى رجولة —
ألا تعرض لعمله الذى لا تفقهه ولا يرجع اليها في مثله ، ولا سيما ان
كان شأنا من شؤون الدولة ومهمة من أخص مهام الرجال ، فتشفعت
له امرأته في وال مقصر تسأله : فيم وجدت^(٤) عليه ؟ .. فالتفت غاضبا
وقال لها : وفيم أنت وهذا ؟ .. انما أثت لعبة يلعب بك ثم تتركين ! ..
كلمة لا تلبس القفاز الناعم ، ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس في كل حين
والذى ليس بحق للمرأة أن تعلق كلمتها على كلمة وليها ، وهذا الذى
كان ينكره عمر على أهل المدينة حيث قال : «... كنا معشر قريش نغلب
النساء فلما قدمنا على الانصار اذا هم قوم تغلبهم نساؤهم . فطلق^(٥)
نساؤنا يأخذن من أدب نساء الانصار . وصحت على امرأتى فراجعتنى
فأنكرت أن تراجعنى . قالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ .. فوالله ان أزواج
النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وان احداهن لتهجره اليوم حتى
الليل . فأفزعنى ... »

نعم هذا مفزع لعمر ، وقد كان ولا ريب مفزعا لرسول الله أن تعلق
كلمة على كلمته في بيته . لكن طريقة محمد في تغليب الكلمة طريقة نبى
يؤم متبعيه ، وطريقة عمر طريقة مريد مؤتم بنبوة ، ولا جناح على عمر
ألا يلحق بشأو محمد في كل ما سبق اليه

(١) التي انفرس أنفها في وجهها . (٢) من الآية : ٢٠ من سورة النساء .

(٣) أي تدافع . (٤) أي غضبت . (٥) أي فجعل .

فمحمد انسان عظيم ، وعمر رجل عظيم . وهذا هو الفارق بينهما كما بيناه في مناسبة سابقة . وانما الفارق بينهما في المناسبة التي نحن بصددھا أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندي في معرض القوة والنضال ، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها في معرض الهوى والفتنة ، فيكسرها ولا ينكسر لها اذا لجت في الغرور وانطلقت في عنائه . ومن ثم استصغر عمر ولده نفسه — عبد الله — لأنه عجز عن تطليق زوجته . فلما أشاروا عليه باستخلافه قال لمن كلمه في ذلك : « ويحك ! .. كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟ .. »

أما الانسان العظيم فهو يشمل ضعف الانسانية كله ويعطف عليه . ومنه ضعف المرأة في غرورها واعتزازها بدلال الضعف على القوة ، لأنه في حقيقته اعتزاز بمكانها منها وتقدير لتلك القوة في بعض نواحيها . فهو يرى في تكبر المرأة اذا كانت كبيرة عنده نوعا من الاعتراف بكبره ، وهو لا يقف معها في ميدان كما يقف كل ذكر وأنثى ، لأن ميدانه هو يشمل الميدانين مجتمعين اذ هو ميدان الانسان كله والانسانية جمعاء .



على أن شأن الرجل مع المرأة لا يظهر من رأى الرجل فيها كما يظهر من رأيها فيه : فبعد معاملة عمر للمرأة وقوله فيها يبقى له شأن في عالمها يظهر لنا من رأيها هي فيه...

وقد أكبرت سيدة نساء العصر عمر فوصفته بأنه كان نسيج وحده ، وهي عائشة رضى الله عنها ، وجمعت الشفاء بنت عبد الله بعض صفاته فقالت انه « كان اذا تكلم أسمع ، واذا مشى أسرع ، واذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا » . وصاحت أم أيمن مرضعة النبي يوم أصيب : اليوم وهى الاسلام ..

وعلينا نحن أن نسأل المرأة في عصر عمر عن مثال الرجل في عصرها ولا نسأل فيه نساء زمان غير ذلك الزمان . وما نخالنا نعرف رأى المرأة يومئذ في الرجل الذى يكبر في عينيها كما نعرفه من امرأة هي: هند بنت

(١) وهى السقاء : تحزن وانشق ، وهى الحائط : ضعف وكاد يسقط .

عتبة زوج أبى سفيان وأم معاوية ، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه ..

جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها يخطباناها فاستخبرته عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش ، ان تابعته تابعتك وان ملت عنه حط اليك ، تحكمن عليه في أهله وماله ، وأما الآخر فموسع عليه منظور اليه في الحسب الحسيب والرأى الأريب^(١) . مدره أرومته وعز عشيرته شديد الغيرة لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله » ..

فقلت : « يا أبت !.. الأول سيد مضياع للحره ، فما عست أن نلين بعد ابائنا وتضيع تحت جناحه اذا تابعتها بعلمها فأشرت^(٢) وخافها أهلها فأمنت ؟.. ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالتها ، فان جاءت بولد أحملت . وان أنجبت فمن خطأ ما أنجبت . فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه على بعد ! .. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة^(٣) الحرة العقلية^(٤) ، وانى لأخلاق مثل هذا لموافقة ، فزوجنيه »

ونحن نحسب هذا رأى المرأة النجيية في زمان عمر ، ولو شئنا لحسبناه رأيها في كل زمان على أن تضره بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان ، فان زادت خشونة العيش في بيت عمر على القدر الذى ترضاه المرأة فهى خشونة غير محقورة السبب ، لأنها لا تحسب على عز « الزوج » من ناحية حتى تحسب لعمر « الرجل » من ناحية. أخرى : اذ هى لم تأت من قلة القدرة على العيش ، وانما جاءت من كثرة القدرة على النفس ، وهى خليفة تعجب بها المرأة في الرجل الذى تكبره ، لأنها من أقوى خلائق الرجولة فيه .



وليس لدينا بيان واف عن النساء اللائى تزوج بهن عمر يعيننا على التمييز بين سماتهن والبحث فى المياسم الشخصية التى يتعددن فيها أو يختلفن ، ويجيز لنا أن نسهب فى الكلام عن موقع كل منهن من نفسه

(١) العاقل . (٢) برح . (٣) البكر لم تمسس ، أو الحفزة الطويلة
السكوت الخافضة الصوت المستترة . (٤) كريمة الحي .

وأثرها في حياته ومبلغ حظوتها عنده ^(١) وسبب هذه الحظوة في رأيه وشعوره ، وما يدل عليه جميع ذلك من نوازع فطرته وذوقه — فقد سكت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان واف في هذا الباب ، فلم يبق لدينا منه الا أسماء وأعوام ونوادر مقتضبات ، لا تساعدنا على تكوين سمات واضحات فضلا عن التفرقة بين تلك السمات

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يفقدنا شيئا كثيرا في هذا الباب لأننا مستطيعون أن نعوض ما فقدناه بالقياس الى ما عرفناه ، فلا نخطئ اذا رجحنا أن سمات هؤلاء النساء جميعا تدخل في نطاق الوصف الذي كان يستجبه عمر في المرأة ولا يطبق منها أن تخالفه وتخرج عليه

فأفضل ما كان يشرطه في المرأة أن تكون ولودا ودودا وألا تعاب بالحق فيسرى حمقها في دماء وليدها . اذ « لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر الا خرج مائقا » ^(٢) كما قال

أما ذوق الجمال فقد كان عمر فيه كما كان في جميع خلأقه عربيا بحتا ^(٣) يستملح ما يستملحه كل عربي صميم ويستحسن الحسن عنده وهو أعم من الملاحظة ، ويروى عنه أنه قال : « تزوجها سمراء ذلفاء ^(٤) عيناء ، فان فركتها فعلى صداقها » . وانه قال : « اذا تم يياض المرأة في حسن شعرها فقد تم حسنها » . وهذان هما الملاحظة والحسن كما وصفا في الشعر العربي من قديم الى حديث .

ومن القليل الذي بقي لدينا من أخبار نسائه نعلم أنه كان موفور الحظ من هذا الجمال في الزوجات . فقد وصف أكثرهن بالحسن البارع وضرب المثل بملاحة احدهن بين نساء قريش وهي قرية بنت أبي أمية ابن المغيرة . فروى في مآثور الحديث الشريف أن سعد بن عبادة قال يوما في حضرة النبي عليه السلام : ما رأينا من نساء قريش ما كان يذكر من جمالهن ! .. فقال له عليه السلام : « هل رأيت بنات أبي أمية بن المغيرة ؟ هل رأيت قرية ؟ » . وهي إحدى زوجات عمر قبل اسلامه

وروى أن جميلة بنت ثابت سميت بهذا الاسم لجمالها ، وكان اسمها

(١) أي نزلتها . (٢) أي غبيا احمق . (٣) أي مرفا . (٤) أي صغيرة

في الجاهلية عاصية فكرهته بعد اسلامها وسألت عمر ثم سألت النبي في تغييره فاتفقا على تسميتها بوصفها ، ونوديت بعد ذلك باسم جميلة .

وروى عن عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل أنها أعطيت شطر الحسن مع ما رزقته من الفصاحة والتقوى ..

وروى مثل ذلك عن زوجات أخريات ، وان لم يتفوقن هذا التفوق

المشهور ..

ومن أخبار زوجاته أنه طلق اثنتين من أشهر نسائه بالجمال وهما قريبة وجميلة ... تزوج بالأولى وطلقها قبل اسلامه . وتزوج بالثانية وطلقها بعد اسلامه ، ولا ندري على التحقيق ما سبب تطليق هاتين الزوجتين الجميلتين ، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو على شمس^(١) المرأة غير صبور ؟ .. لعله ذاك ، ولعل الذي أبقي عاتكة بنت زيد في عصمته^(٢) أنها تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها ، أو غضت من دلالها بالفطنة والتقوى .

وكذلك بقيت في عصمته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وهي جميلة صغيرة ، وولدت له ابنا سماه باسم أخيه زيد الذي كان يحبه ويذكره ويطيل البكاء عليه ، وأعزها عنده النسب والأدب والمحافظة على آصرة^(٣) النبوة ، فلم يفرقا في الحياة ، ولم ينشب بينهما خلاف الا حين جاءتها الهدية من ملكة الروم فضعها الى بيت المال .

وله مع احدى أولئك الزوجات قصة صغيرة لا يفوتنا ايرادها في الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه : تدل على عمر في أبوته ، وتدل على عمر في سورة طبعه^(٤) ، وتدل على عمر في مثوبته الى الحق كلما وجب أن يشوب اليه .

فقد طلق جميلة وله منها ولد صغير . فرآه يوما يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه ، فأدركته جدّه الشمس بنت أبي عامر وجعلت تنازعه اياه حتى انتهى الى أبي بكر رضى الله عنه وهو خليفة . فقال له أبو بكر: خل بينه وبينها فهي حاضنته ، فردّه اليها ولم يراجعه بكلمة

(١) الشمسوس : صعوبة الخلق . (٢) الفطنة : الفهم . (٣) أي رابطة .

(٤) أي حدته . (٥) أي رجوعه .

ولعمري ان في هذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغنى عن قصص ، وفيها عمر انسان عطوف ، وفيها عمر رجل سوار الطبيعة ، وفيها عمر صاحب خلق مكين يكبح من طبيعته كل سورة جاوزت حد العدل والانصاف ، وهذا هو عمر في شتى نواحيه .

وقد تدل هذه القصة على شيء يبرئه من بعض اللوم في تطلقه أم هذا الولد ، فاسمها عاصية واسم أمها الشموس ، وكأنهما - كما ينبىء عنهما هذان الاسمان - من أسرة تباهى بدلال بناتها وشموسهن وتختار لهن من الأسماء ما يدل على هذه الخصلة ، وقد يضيف الى توكيد هذه الخصلة فيهن أن عاصية غضبت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له : سميتنى باسم الاماء ! .. ثم اختار لها النبى هذا الاسم ، فقالت : يا رسول الله !.. أتيتك عمر فسمانى جميلة فغضبت ، قال عليه السلام : أو ما علمت أن الله عز وجل عند لسان عمر وقلبه .

فكأنها نشأت في قوم يعتقدون ان التحسين والترغيب انما هو من شأن الاماء ، وان الشموس والعصيان أليق بالحرائر وان أحبين أزواجهن وأحبوهن ، فان كان في تطلقها مأخذ على عمر فقد يكون فيه مأخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبا وأحبته .



ورزق عمر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات^(١) ، فقرت عينه بهم لأنه كان كاهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصى الناس أن يستكثروا منها ، وكانوا جميعا عنده بمكان الحب والمودة لا يخشى الانحراف عن العدل من جانب كما يخشاه من جانب هذه الذرية أو جانب أهله على التعميم ، ولهذا كان يجمعهم اذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم « ان الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم » ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة ! ..

وليس بنا أن نحصى فتاواه وأقضيته في محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه

(١) النجيب : الكريم .

خاصة قبل سائر أهله . فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته ، ولكننا نكتفى بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه في اتجار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين ، وذلك أن ابنه عبد الله وعبيد الله خرجا في جيش الى العراق ، فلما قفلا^(١) نزلا بالبصرة وذهبا الى أبى موسى الأشعري وهو أميرها ، فقال لهما : لو أقدر على أمر أنفعكما به ؟ .. ثم عرض عليهما أن يحملوا الى أبيهما مالا من مال الله فيشتريا به متاعا من العراق يبيعانه بالمدينة ، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح . فلما علم عمر سألهما : أكل الجيش أسلفه ؟ .. ثم أمرهما أن يؤديا المال وربحه ... فسكت عبد الله وقال عبيد الله : ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا . لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه ! .. وقال رجل في المجلس : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا ؟ .. فأخذ رأس المال ونصف ربحه ، وأخذ ابناه نصف ربح المال ..

وانما كان عمر يتقى محاباة الولاة لأبنائه وذويه واقرار هذه المحاباة باذنه ، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتجر ويربح ما يعيش به في أهله ، ويلجأ الى التجارة لقلّة رزقه الذي فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين ، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسول الله . فقال عثمان : كل واطعم ، وقال علي : ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ، وقال هو : ان افترقت أكلت بالمعروف وان أيسرت قضيت وكان يقترض فيعسر فيتأخر قضاؤه ، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد في تقاضيه ، فيحتال له عمر ويؤجله الى أن يستحق عطائه مع عطاء المسلمين ، فيسد به دينه .

ومع هذا كان يشفق أن يقترض من بيت المال الا أن يتعذر عليه الاقتراض من بعض صحبه ، فأرسل مرة الى عبد الرحمن بن عوف في طلب أربعة آلاف درهم يجهز بها عيرا الى الشام ، فعاد الرسول يقول له : خذها من بيت المال ثم ردها ! .. وشق ذلك عليه فلقى صاحبه وعلم منه صدق ما بلغه فقال : أفئن مت قبل أن تجيء قلتّم أخذها أمير المؤمنين

(١) قفلا : أي رجعا .

دعوها له وأوخذ يوم القيامة ؟ .. « لا .. ولكنى أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح^(١) مثلك ، فإن مت أخذها من ميراثي »

وحدث ما توقعه من مجيء الأجل قبل سداد ديونه جميعا فلم يشغله الموت ولا شغلته كبار الخطوب التي يضطلع بتصرفها قبل موته أن يسأل عن ديونه ويوصى بسدادها من ماله ومال أهله وقال لابنه : « ان وفي به — أى بالدين — مال آل عمر فأده من أموالهم ، والا فاسأل فيه بنى عدى ، فإن لم تف أموالهم فاسأل فيه قرىشا ولا تعدهم الى غيرهم ، وكان عبد الرحمن بن عوف حاضرا فأشار عليه مقترحا أن يستقرضها من بيت المال حتى تؤدى فلم يقبل عمر ، ودعا بابنه عبد الله فقال : اضمنها ! فضمنها ، ووفى بوعده فلم يدفن أبوه حتى أشهد بها على نفسه أهل الشورى وعدة من الانصار ، وما انقضى أسبوع حتى حمل المال الى عثمان ، وأحضر الشهود على البراءة بدفعه . وقد بيعت لعمر دار في هذا الذين وسميت زمنا باسم دار القضاء ، لأنها بيعت في قضاء دينه

ولأن يموت عمر مدينا ، وفي الدين ، لهو أعظم الشرفين ... وأيسر من ذلك شرفا أن يموت غنيا بغير دين .

(١) شحيح : أي ممسك بخيل حريص .

صورة مجملة

صحبنا عمر بن الخطاب في حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال ..
صحبناه في جاهليته واسلامه ، وفي سره وعلايته ، وفي بيته وحكومته ،
وفي دينه وثقافته ، وفي اتصاله بالله واتصاله بالناس . فاذا الصورة المجملة
من جميع هذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقريّة
والامتياز بين الناس على اختلاف العصور . واذا هو صاحب مناقب
وأخلاق من أنبل الصفات الانسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت
فيه الى غاية واحدة : وهي احقاق الحق وادحاض^(١) الباطل ، ووسته
جميعا بسمة الجندية المجاهدة التي تحمي الحدود للناس وتحميها من
الناس ، وهو هو في طليعة من يحمي وفي طليعة من يختمى على السواء
ورسخت في طويته خليقة المساواة في العدل حتى أصبحت كالوظيفة
العضوية التي لا تنفصل منه ، وحتى أصبح يتجرد من نفسه أو يجرد منها
شخصا آخر غريبا عنه لا فرق بينه وبين أحد في حدود الله وحرماته ،
وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عامدا وغير عامد ، فكان
يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن غريب : بخ يخ يا عمر !.. ويحك يا ابن
الخطاب ! ماذا يقول عمر ؟.. وهذا فلان بن عمر وليس بفلان ولدى ...
الى أشباه هذه التجريدات التي تنبعث فيه من خليقة التسوية بين جميع
الناس ، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس

وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء ، ولكنه كما قال عارفوه من
الصحابة : « باطنه خير من ظاهره » أو كما قال فيه الصديق من كلام
فحواء : « ان مبغضيه هم المبغضون للخير »

وكان له محبوبون من كرام الناس لا يعدلون بحبه حب أحد من أمثاله .
فكان عبد الله بن مسعود يقول : « لو أعلم عمر كان يحب كلبا لأحببته ،

والله انى لأحسب العضاء^(١) قد وجدت فقد عمر «
والغالب فى أمثال عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبة أن تحجب
عنهم الهيبة ألفة الغرباء الذين لا يختلطون بهم فى السر والعلاية ، بل
تحجب عنهم ألفة الأقربين فى كثير من الأحيان ، لأنهم من تفردهم
بالصراحة والحق فى عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم اليهم :
أعاذك أنس المجد من كل وحشة فانك فى هذا الأنام غريب
ولكنهم لا يكرهون الا عن خطأ أو حسد لئيم . وكان عمر على
التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية فى قلب انسان : لأنه كان على
عظم « شخصيته » مبرأ من العنصر الشخصى ، فى معاملة الأصدقاء
والخصوم . وانما ينجم^(٢) العداة الشديد من الاحساس بهذا « العنصر
الشخصى » ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام...^(٣)
فالذين كانوا يذوقون انصاف عمر كانوا يستمرئون^(٤)ه ويحبونه ،
والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقبا لهم
صوالا عليهم ، وانما يشعرون بميزان الشريعة منصوبا على رؤوسهم .
يتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب . فلا موضع هنا للضعفة
ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزاة بالحزاة .
ولهذه الخصلة ذكره بالحب والاعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء ،
وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء .
فعمرو بن العاص ومعاوية كانا يثنيان عليه وشد ما ابتليا فى حياته
بضربات عدله وهيبته ، والحطيئة أهجى الشعراء وأبخلهم بالثناء ، كان
رفاقه يذكرونه اسم عمر بعد موته فيرتعب ثم يهدأ فيقول : يرحم الله
ذلك المرء ! .. ويشئى عليه . وقد قال عمرو بن العاص اذ رأى عمر يبكى
لاستعطاف الحطيئة اياه فى سجنه : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء^(٥)
أعدل من رجل يبكى على تركه الحطيئة ! ..
وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلا فلا يكون قتله دليلا على بغضاء

(١) جمع عضامة : وهو شجر كبير له شوك . (٢) أى حزنت .
(٣) أى يظهر . (٤) من قولهم : مرا الطعام فهو مرىء هنيء حميد المغبة .
(٥) الارض .

« شخصية » أو خلة^(١) ترتبط بحياته الفردية . فانما بغضاء « الوطنية » هي علة التأمر على قتله بين المغلوبين في ميدان القتال على التحقيق ، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذكره فانما هي في أصلها « بغضاء وطنية » كامنة^(٢) وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية ، وإن تطاولت الأيام .

فالمعلوم أن عمر مات بطعنات من خنجر فيروز « أبى لؤلؤة » من سبایا الفرس بالمدينة ، وإن فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا إليه مولاه المغيرة بن شعبة لأنه فرض عليه خراجا درهمن في كل يوم ، فسأله عمر عن صناعته فأنبأه انه « نجار نقاش حداد » ... فلم يستكثر عمر هذا الخراج على من يصنع هذه الأعمال ، وقال له : قد بلغنى انك تقول : « لو أردت أن أعمل رحي تطحن بالريح فعلت » وطلب إليه أن يصنع رحي على هذه الصفة ، فقال له : لئن سلمت لأعملن لك رحي يتحدث بها من بالشرق والمغرب ... ثم انصرف وهو يقول : « وسع الناس عدله غيرى ! » . فقال عمر لسامعيه : لقد توعدنى العبد آثقا ... ولم يؤاخذ بهذا الوعيد بل كان من نيته أن يلقي المغيرة ليخفف عن مولاه ..

هذا هو السبب الظاهر الذى لا يستر ما وراءه ، لأن « أبى لؤلؤة » لم يكن الا منفذا للكيد الذى اتفق عليه كثيرون ، وقد روى عبد الرحمن ابن أبى بكر أنه رأى هذا الرجل مع الهرمزان وجفينة قبل مقتل عمر جالسين يتحدثون ، فلما فاجأهم قاموا وقوفا فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه ، وهو الخنجر الذى حمله فيروز لقتل عمر وقتل نفسه ان أخذ بفعلته .

والهرمزان أمير زالت عنه الامارة بعد ذهاب الدولة المجوسية ، وجفينة من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس ، و « أبو لؤلؤة » فارسى شديد الحقد على المسلمين لم ينس أسره ولم يزل كلما جئ الى المدينة بأسرى من وقعات فارس مسح رؤوسهم وتوعد المسلمين أجمعين .

(١) الخصلة • (٢) أي مستترة .

وقد شاركهم في هذه المؤامرة يهودى مغلوب تظاهر بالاسلام وهو المسمى بكعب الأحبار ، ولعله أراد أن يكسب سمعة العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة ، فذهب الى عمر قبل ثلاثة أيام من مقتله ينذره أن يختار ولى عهده لأنه ميت في ثلاثة أيام ... فسأله عمر : وما يدريك ؟ .. قال : أجد في كتاب الله التوراة . فلم تجز هذه الدعوة على عمر ، وعاد يسأله : « آله ! .. انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ » فأشفق^(١) الرجل أن ينكشف دجله وقال : « بل أجد صفتك وحليتك وانه قد فنى أجلك » .. ثم كرر له النذير مرتين في اليومين التاليين ..

فعمر انما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الاسلامية لا شك فيها ، وما كانت قصة الخراج الا الستار الذى يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى مخافة القصاص الذى يحقق^(٢) بهم اذا جهروا بما دبروه ، أو جهروا بالعلة التى من أجلها تربصوا بذلك التدبير ان مقتل عمر أخرى أن يعد جزءا من أكبر أجزاء سيرته ولا يحسب نهاية تختتم تلك السيرة دون أن تضيف إليها ...

فقد تمثلت في مقتله مزاياه الكبار التى تمثلت في جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله ، فكان عمر الصريع قدوة في الشجاعة وتقديم الواجب والايثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير ، كما كان عمر في أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير

وكان رضى الله عنه ينظر الى الحياة كأنها رسالة تؤدي ما يستطيع أداؤها ثم لا معنى لها اذا فرغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أداؤها ، فبعد الحجة التى مات على أثرها أناخ بالأبطح ثم كوم كومة من البطحاء ألقي عليها طرف رداءه واستلقى عليها ورفع يديه الى السماء ، ودعا الله : « اللهم كبرت سننى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعتى ، فاقبضى اليك غير مضيع ولا مفرط ، اللهم ارزقنى الشهادة في سبيلك ، واجعل موتى في بلد رسولك »

مضت أسابيع فخرج يوما قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوى

(١) أي خاف . (٢) ينزل .

الصفوف للصلاة ، فلم يكذب يؤم الناس حتى فاجأه القاتل بطعنتين احدهما في كتفه ، والأخرى في خصرته ، وقيل ثلاث طعنات .. احدها من تحت السرة ، وقد خرقت الصفاقين^(١) قضى بها نحب^(٢) رحمه الله . وقيل : بل ست طعنات .. منها تلك الطعنة القاتلة ..

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة ، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم في موعدها وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلى بالناس .

ثم جعل يغمى عليه ولا ينتبه اذا دعوه . حتى قال بعض عارفيه : انكم لن تفزعوه بشيء مثل الصلاة ان كانت به حياة .. فنودي : الصلاة .. الصلاة ! .. فلما سمع النداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات : « الصلاة ! .. ها ... الله ... اذن .. » ثم قال : « لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة ... »

ولم يهمه من قتله بعد أن حمل الى منزله الا أن يعرف : المظلمة كان قتله أم لبغى من القاتل ؟ .. فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال : ولم قاتله الله وقد أمرت به معروفا ؟ .. ثم حمد الله قائلاً : « الحمد لله الذي لم يجعل قتلى يحاجني عند الله بسجدة سجدتها له قط .. ما كانت العرب لتقتلني » وهمه بعد ذلك أن يلقي حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقي حسابه عند الله . فأمر ابن عباس أن يخرج الى المهاجرين والانصار يسألهم : أعن ملا منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني ؟ .. فصاحوا معلنين : « لا والله .. ولوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا » .

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة قبلها ، فنهاهم أن يبكوا عليه . ثم سقوه قيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو فلم يعرفوا آدم هو أم النقيع خرج بلونه ؟ .. فسقوه اللبن فخرج أبيض يشوبه^(٣) صديد . فأشار عليه الطبيب أن يعهد فقال : « لو قلت غير هذا لكذبتك » وكان قد أنكر على الناس أن يجيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصاياهم : ويحكم أيها الناس أنظر في أمر نفسي قبل أن أنظر في أمور

(١) الجلد الاسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر ، أو ما بين الجلد

والمصران ، أو جلد البطن كله . (٢) المدة والوقت ، والمراد هنا : الاصل .

(٣) أي يخالطه .

المسلمين ؟ .. فلما قال الطبيب مقالته أخذ في تدبير المهم من شؤون الدولة وأولها الخلافة ، فجعلها شورى ليستقر بها القرار ما استطاع إقراره ، ونجا بأهله منها وهو يقول : « ... أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي ، وإن نجوت كفافا لا وزر ولا أجر أنى لسعيد »

وهو في هذا كله لا يخالف ديدنه^(١) من صراحة ولا يكتف طبيعة أهل الفناء من حب الحياة ، ولا يخفى « أن للحياة لنصييا من القلب وإن للموت لكربة^(٢) ! » ولكنها لم تمنعه قط أن يعطى الحق حيث وجب للموت أو للحياة ..

فلما فرغ من شؤون الدولة نظر في أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداده ، وأقبل يطمئن الى مضجعه في جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا . فدعا بابنه عبد الله ينطلق الى عائشة أم المؤمنين ويقرئها منه السلام ... ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين ، لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميرا ... ثم يستأذنها أن يدفن الى جوار صاحبيه ، يعنى النبى عليه السلام وخليفته الصديق

ووجدوها عبد الله تبكى فسلم عليها ، واستأذنها فأذنت وقالت : كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه به اليوم على نفسى ! ..

فلم يكفه هذا حتى يستوثق^(٣) كل الاستيثاق من رضاها ، فعاد يخاطب ابنه : « يا عبد الله بن عمر ! .. انظر ، فإذا أنا قبضت فاحملونى على سريرى ثم قف على الباب . فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لى فأدخلنى ، وإن ردتنى فردنى الى مقابر المسلمين ، فانى أخشى أن يكون اذنها لى لمكان السلطان »

قال شهود دفنه : « فلما حمل ، فكان المسلمين لم تصبهم مصيبة الا يومئذ » ... وفارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلوم أو متهم بظلم ، فما دلها شيء على عظم فضله ولا عظم الحاجة الى العدل فيها كما دلها هذا الختام ..

(١) الدأب والعادة • (٢) الشدة • (٣) أى يتأكد •

فهرس

صفحة

مقدمة	١٣
عبرى	١٧
رجل ممتاز	٢٤
صفاته	٣١
مفتاح شخصيته	٦٦
اسلامه	٨١
عمر والدولة الاسلامية	١٠٤
عمر والحكومة العصرية	١٣١
عمر والنبي	١٤٤
عمر والصحابه	١٦٩
ثقافة عمر	١٩٣
عمر فى بيته,	٢١٦
صورة مجلده	٢٣٤

Mr. Mr. 2



Maged